

الموسوعة

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة

دار الجيل
بيروت

مُؤلفَاتُ
مصْطفى لطفي المنِفلوطي الكاملة
المَوضُوعَةُ

يحتَوي هذا المجلّد على:

النّظرَات
العَبَرات

دار الجيل
بيروت - لبنان

القسم الأول

النظرات

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

نشأته وحياتـــه

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث اهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغـــير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقـة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربـــه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقـــه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده . وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغي في جريـــدة (المؤيد) الوسيلة والنجح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربيـــاً لها . ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هـــذا

المنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قـام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره .

أخلاقــه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنــه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم في بطء ، سليم الفكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللسان في تحفظ ؛ وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرتــه ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبــه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحــد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعاً انشأه الطبع القوي على غير مثال .

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأه كنشأته في جيل كجيله . وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهــذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أمــا

صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة .. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها . لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبّد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (بجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجيني (الفضيلة) لبرنار دي سان بيير ، وسيرانودبر جراك (الشاعر) لادمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغـــة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى تراء الأدب العربي ثروة ، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

عن كتاب تاريخ الأدب العربي
حسن الزيات

مقـدمة

يسالني كثير من الناس كما يسالون غيري من الكتّـاب : كيف أكتب رسائلي ، كائمـا يريدون ان يعرفوا الطرق الـتي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فـإني لا احب لهم ولا لأحـد من الشادين في الأدب ان يكونوا مقيـّدين في الكتابة بطريقتي او طريقة احد من الكتاب غيري ، وليعلموا – إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر – اني ما استطعت ان أكتب لهم تلك الرسائل بهـذا الأسلوب الذي يزعمون انهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت ان أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن ان تمسك الا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله ان أقرأ ، ثم لا ألبث ان أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي او أستعين

بـه عـلى تهذيب بيـاني ، او تقويم لساني ، او تكثير مـادة علمي باللغـة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ احب الجمال وأفتتن به كلما رأيتـه في صورة الإنسان ، او مطلـع البـدر او مغرب الشمس ، او هجعة الليـل ، او يقظة الفجر ، او قمم الجبال ، او سفوح التـلال ، او شواطىء الانهار ، او أمواج البحار ، او نغمة الغناء ، او رنة الحداء ، او مجتمع الاطيار ، او منتثر الازهار ، او رقة الحس ، او عذوبة النفس ، او بيت الشعر ، او قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مراً ، فـإذا لاحت لي زهرة جميلة بـين أزهاره ، تتالق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجب بهـا ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها او إزعاجها من مكانها ، ثم اتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها الى أخرى غيرها ، وهكذا حتى اخرج من ذلك الروض بنفس تطـير سروراً به ، وتسيل وجـداً عليه ، وما هو الا ان درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض ازهارها بضع وقفات ، حتى شعرت اني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها ، وان بين جنبي حالا غريبة لا عهـد لي بمثلها من قبل ، فاصبحت أرى الاشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمـال فرأيت لبـه وجوهره ، وأرى الخـير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى الباساء فرأيت مدامعها ، وارى العين فرأيت السحر الكامن في

محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم ان يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد [1] الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء الى الارض هوى الكرى الى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ؛ فاحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتي ؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وامسك على بابي ثم أسلم نفسي الى كتابي فيخيل إليّ اني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه الى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فاشهد بعيني تلك العصور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، واعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ [2] وصبارة البرد [3] ، وتنقلها من صحراء الى ريف ، ومن مشتى الى مصيف ، ومن نجد الى وهد ، ومن

---

(١) التجاليد : الجسم . (٢) شدة الحر . (٣) شدة البرد .

شرف الى غور ، وانتجاعها مواقـع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فاذا جـد الجـد أكلت القد[1] واشتوت الجـلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الابقـار ، واكتفت من اللبـاس بأكسية الكرابيس وأرديـة الاشعار ، وقمص الاوبار ، فـاذا أعوزها ذلك لبست الظـل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقـد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغـد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبيها، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس واعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيـادها ، ومـذاهب طرائدها ، ومواقف حجبها ، وازدحام شعرائها عـلى ابواب أمرائهـا ، وجوائز أمرائهـا في ايـدي شعرائها ، وانطـلاق ألسنتها بوصف مـا تشاء من الاعواد والـبرابط والمعـازف والمزاهر والاقداح والدنان والموائـد والصحف ، وألوان الطعام حـلوه وحامضـه ، وأصنـاف الشراب حـلاله وحرامـه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الذاهبة في الدأمـاء[2] ، والرياض الخضراء والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلهـا ، والبحـيرات واسماكهـا ، والانهـار

---

(١) السير يقد من جلد . (٢) الدأماء : البحر .

وشواطئها ، والازهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الاعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى .

ثم لا أشاء ان أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، او أدباً غضاً ، او حباً وفياً ، او مجوناً مستظرفاً ، او حوراً مستملحاً ، الا وجدته ؛ ولا ان اسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يحدو به الحادي في اعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح [1] الا سمعته . ولا ان اعلم ما يهجس في نفس المحب اذا اشتمل عليه ليله ، والحائر اذا ضل به سبيله ، والثاكل اذا فجعت بواحدها ، والموتور اذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم اذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل اذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس اذا أعوزه القوت ، واليائس اذا أعوزه الموت ، والعزيز اذا ذل ، والمشرف اذا هوى ، والشريف اذا عبث بشرفه عابث ؛ والغيور اذا لمس عرضه لامس ، الا علمته ، ولا ان اعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا اثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، الا عرفته ؛ فكنت اجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به

---

(١) الماتح : المستقي على البئر .

الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت ان الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وانه لما علم انه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال او جاه اعيش في ظله ، وانعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البرىء من الريبة والإثم ، وزوّره [1] لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على ان اهلك ، او يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا ازال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال اضحك مرة واكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وابكي احياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين او يستعيد إليّ نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب احد ؛ لأنني كنت اعيش في مفتتح عهدي به - ولم اكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة - بين اشياخ ازهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه او الإلمام به عمل من اعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي - يزعمون - ان انفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ! فكنت لا استطيع ان ألم بكتابي الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي ان يلموا بأمري - وقليلا ما كنت اجدها - وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون

(١) زوره : حسنه وقومه .

فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب أدب خيل إليهم انهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، او الزجاجة في جيب الغلام ، او العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛ وهم لا يعلمون — احسن الله إليهم — انهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من اياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهْم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دوّنوها لهم وتركوها بين ايديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون ان يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما يعلمون ان الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم ، وان الذوق الأدبي الذي يستفيده المتادب من دراسةالأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به مايحاول فهمه من عبارات العلوم واساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع اقدامه في فهم اصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع او واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بادق اغراضه واعمقها واقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو ان هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه — وهم اليوم والحمد لله قليل ، بل هم في طريق الفناء والانقراض — قد تعلقوا منه بما كان يتعلق

فكان شأني في ذلك شان السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى ، فيطير بالاولى فرحاً وبالثانية جزعاً ، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ الا ما أفهم ، ولا أفهم الا ما أشعر انه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس ، فاذا هو في كبد الرمية ولبها ، فان رأيت ان المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة ، والاساليب الملتوية ، علمت ان القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به ، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها ، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له الى الإفصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم ان المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد له ان ينفقه [1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوره [2] في اعينهم ، فهو يكسوه اسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى اذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم انهم قد ظفروا بمعنى غريب ، او خاطر بديع ، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح [3] الماء الكدر اذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم ان ضعفاء الافهام من الناس ، وهم سواد الامة ودهماؤها ، لا يرضون عن معنى من

(١) ينفقه - بالتشديد - يجعله نافقاً ؛ أي رائجاً .
(٢) زور الشيء : حسنه وزخرفه . (٣) الضحضاح : الماء القليل في قعر البئر .

المعاني ولا يستسنون [1] قيمته ولا يقيمون له وزناً الا اذا جاءهم في جلدة من الالفاظ المتكرسة المتقبضة ، وانهم اذا ورد عليهم أثمن المعاني واغلاها، واكرمها جواهراً واطيبها عناصراً في ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم الى انه ما جاءهم على هذه الصورة الا لأنه ساقط مبتذل ، او سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته . ان لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي ! وتملقهم بالغموض والإبهام . وإما أعجمي يظن ان اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو اشبه الاشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعيت عليه غرابة اسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه ان المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الاكسية البدوية ، والاردية العربية ، كأنما هو يظن ان المعاني والخواطر خطط وأقسام ، وأنصبة وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم ! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي ان الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الاعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية ، فلما أراد ان يفضي بها الى العرب ، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من اساليبهم عجز عن ان ينزع عنها اثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي الا ما كان

(١) استسنى قيمته : رآها سنية رفيعة .

من تبديل حرف بحرف او لفظ بآخر من حيث يظن انـه يهتف بشيء قام في نفسه او يفضي بخاطر من خواطر قلبه ، وإمـا شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته ان يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون ان يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة . والشح خلق اذا نزل منزله من نفس صاحبه اقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر ببلة . فيضن بعلمه كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد [1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس اليه كما يجيع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والاشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ـ سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل ـ اوصفهم لحالات نفسه او أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على انظارهم عرضاً ، او يضعه في أيديهم وضعاً ، فان ظننت ان القائل كاذب فيما يقول او انه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، او انـه لغوي يفر من ضعف اسلوبه وفساد نظمه الى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، او ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، او مترجم ينقل عن اللغة الاعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو

(١) صرد العطاء : أعطاه قليلاً قليلاً .

صاحبها ، او شعرت انه قد قدر في نفسه ، وهو يكتب كلمته ان يكون بليغاً فيها او مبدعاً ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي ان أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ان احسن فيا يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين ، وفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، واحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثار أخيه ، وشقاء أمرىء القيس في الطلب بثار أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على اخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الاكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري

على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد بن مزيد ، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه ، وجلوسه في جنبات الحي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا ياكل الا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها، وراحته الى الطريق يصعد مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والاحجار ، وشقاء قيس بلبناه بعد ان طلقها براً بوالده ، ونزولا على حكمه ، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقف جميل بن معمر بين يدي أبيه ، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول : يا أبت ! هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع عن قلبه هواه او ملك ان يسلي نفسه او استطاع ان يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت ان أمحو ذكرها من قلبي او أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي ، وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه انه كان يئد بناته في الجاهلية ، وان واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر ، فدفعتها الى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها ، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له انها ولدت مولوداً ميتاً . ثم مضت على ذلك

سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فاعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسالها عنها فحدثته حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئاً طمعاً في ان يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فامسك عنها أياماً، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فاخذت تقول: يا أبت ما تريد ان تصنع بي، وما هذا الذي تفعل ؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها، وهي تئن وتقول: أتاركي انت يا ابت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني ؟ حتى واراها وانقطع أنينها، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً، وفقدتك سريعاً، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها، فاصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً، اللهم انك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكاً ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ورضيت قضاءك، فارحم اللهم غربته، وآنس وحشته، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات؛ واثكل الوالدات! ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن، وأطول ليلهن، وأقل انسهن، وأشد وحشتهن، وابعدهن من السرور، واقربهن من الاحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى اصبحت زوجاً لغيره

وأصبح بعدها هائماً مختبلا يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الارض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن ان زوجها لا يعلم من أمره الا انه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم انه يعرف حقيقته ، وانه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، انت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، واني عالم أني راحل الى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشي وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زوّدته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه ، فسأله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها،فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسببي ولا بد ان أندبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم ان أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن

الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً ، فصار الى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شان له الا ان يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله ان يبلّغ رسائله الى عيسى ، حتى رآه بعض الناس في بعض الايام ميتاً الى جانب الدير . وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ؛ كانما كنت أرى ان الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين ؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ او كانما كنت أرى ان الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والاحزان ، وان الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصوراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ؛ او كانما كنت أرى ان بين حياتي وحياة اولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ؛ فانست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم ، او كانما كنت في حاجة الى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي ؛ او كانما كنت أرى ان جمال العالم كله في الشعر وان الشعر هو تفجر من صدع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها أحسن ما مرّ لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فاكاد أشرق

بدمعي لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبوة [1] ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . واقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد عرا [2] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فاصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر [3] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون [4] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم ان يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطراب الحدود

---

(١) الهبوة : الغبرة . (٢) عرا الثوب عن جسمه : ألقاه عنه .
(٣) تشطر : صار شاطراً ؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثاً .
(٤) الضاحي : المنكشف للشمس .

والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا ، وخرج منها ما لم يكن خارجاً ، فسمى الشح اقتصاداً ، والكرم اسرافاً ، والحلم جبناً ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيماً من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها، وكنت أرى ان الادب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر او يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه عليه ، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدباً ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً : من لا يفي على شرط ان يعد ، ومن يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على ان يكون بساماً ضحوك السن ، ومن يسرق على ان يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية ، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس واسفافها ، اكثر مما يرجع الى علوّها

وكالها ، فداخلني من ذلـك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معـه ، كأنما خيـل اليّ ـ لقرب عهدي بمـا أرى ـ انني أرى شيئاً عجيباً ، او منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيـه إنمـا هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه ، فأزعجني مـا رأيت من هـذا الاختلاف العظـيم بينهما ، فارسلت الكلمة اثر الكلمة كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت اطمع فيهم وأرجو ان اصيب ما في نفوسهم ، حتى سموني كاتباً .

وكان لذلك الأدب الذي توليت بـه نفسي فيما مضى أثر بـاق عندي حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يفضي بهـا غيري او أعـبر عن معنى لا يقوم بنفسي او ابكي على من لا يحزنني فراقه . او اندب من لا يفجعني موته او استنكر ما استحسن . او استحسن ما استنكر ، كما لا استطيـع ان أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزنا شديداً ، او طربا كثيراً ، فاملك نفسي عن محاولة الإفضاء بمـا تركه عندي من خير او شر ، وما اعلم اني كتبت كلمة في شأن من الشئون الا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلا لا احب الكذب ، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منـه بـداً ، فابغضت الكاذبين بغض الارض للدم . فكان من همي ان اقاتلهم على الصدق قتالا مستعراً ، حتى أصل بهم الى احدى الحسنيين: إما ان يكونوا صادقين وإما ان يعلم الناس انهم كاذبون، وكنت إنسانا بائسا لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشة لم يرمني به ،

ولا جرعة من كاس مصائبـه ورزاياه لم يجرعني إياهـا ، فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر اعواما ،ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي ان أبكي كل بائس ، وانـدب كل منكوب ، واطلب رحمـة القوي الضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل .

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من ايام حياتي ان رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه ان يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها ، فأبى ذلك عليها وقال لهـا ــ وهو يحسب انه يعقل ما يقول ــ : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما باكبر من حظها منه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديما ، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا : أيها الناس ان الفتاة مريبة . وكان كاذبا فيما يقول ، ولكن صدقـه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وافظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من اولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فامر بطردها ذهابا بنفسه ان تسوء سمعته بدخولها بيته ، وكان هو الذي افسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها عـلى لقمة تتذوقها في بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلا . فكان بي منذ ذلك العهد ان انظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ،

وان ألتمس لها من العذر ـ وان زلت بها قدم ـ ما لا يلتمسه لها احد ، وان انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا الى ذلك حتى يديل لها الله منه ، وكنت من شئون عيشي في حالة لا استطيع معها ان اعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا ان اختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سراً ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج الا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ، ليأخذ اكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي . ومن كان يبسط اليّ يد الآمل الراجي فأكره ان أرده خائباً ، فلما عجزت عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، او يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب [1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي [2] ، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن اخذ نفسه بالنيل مني والغض من شاني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له ان يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له ان رأى عاتقي بين يديه فظن انه اعلى العواتق وابعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به

(١) نصب فلان لفلان : عاداه .
(٢) المماظة : المخاصمة والمشارة .

بقياً عليه وضناً به ان يسقط سقطة لا يئل منها ، ومن كان لا يكبر شاني الا اذا اتقاني ، فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني ، لا يستحي ان يكرر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي [1] كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثار لنفسي ، ولكن اصبح رأيي في الناس غير رأيهم في انفسهم ، ورأى بعضهم في بعض ، وخفت ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين [2] امثالي مثل ما اصابني ، فكان من همي ان أدل على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم وان اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقعوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمراً يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم ،وكان منشىء في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينا ، ولا بوطنهم وطنا ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته ، الا ان اكون ملحداً في ديني او زاريا على وطني ، فاستطعت ـ وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ـ ان اجلس ناحية منها . وان انظر اليها من مرقب عال ، وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما اخذه كله او تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ،

---

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه : احتمله . (٢) المحدود : المحروم : ويراد به سيء الحظ.

وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، والحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى اصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه اذا حزبه الامر [1] في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه الا ان يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، او ترك ما ترك كانما هي القانون الإلهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام ، او القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ؛ وحتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الاوربية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر الكبائر ؛ وحتى اصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بعلمه ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي ــ خادم الخان ــ منفرداً على ما لا تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثها

(١) حزبه الامر : اشتد عليه .

بلغتها ، وهو الى ان يترضاها ويستدنيها احوج منهـا الى ان تترضاه وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا ، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا اكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب نفسي عنها .

وعندي ان الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا ان يكتب ما يفضي به الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غـير قائل ، لا فرق بينـه وبـين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على ان خير ما ينتفع به الاديب من أدبـه ان يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح احلامه ؛ فان كان من شأنه في حياته ان يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، او وفيعة [1] تتمسح بها اعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال او يؤثلون من جاه ، والتاريخ اضن من ان يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء الا مجد اولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل انه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وانه رواغ متخلج [2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وانه يستبكي ولا يبكي ،

(١) الوفيعة : حرقة يمسح بها القلم .　　(٢) المتخلج : المضطرب في مشيته .

ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائر وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق الى سوق ومن حانوت الى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والاريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب اشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على اسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو ان أمراً من ذلك كائن لكان ابرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، او اعلمهم بقواعد اللغة ، او أجمعهم لمتونها ، او احفظهم لفصيح القول ورائعه ؛ أما العلم فاكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ، وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب واكثرنا عاجز عن فهم اكثر ما كانوا يكتبون ؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلماماً بالادب ولا أبعد عنه مكاناً ؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتاخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل او قرض الشعر او القوة

القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا انفسهم به ؛ وكان الخليل بن احمد اذا سئل عن نظم الشعر قال : ياباني جيده وآبي رديئه ؛ وكان الاصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الانصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والازهري والصاغاني وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية ،والجوهري والفيروزا بادي وامثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في احدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال ابو العباس المبرد في بعض احاديثه لا احتاج الى وصف نفسي : لعلم الناس بي انه ليس احد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها وأعدني لها ، فانا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفي عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فاجعل المعنى الذي اقصده نصب عيني ، ثم لا اجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني ان عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت ان اكتب اليه رقعة أشكره فيها واعرض بعض اموري فاتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم اقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت احاول الافصاح عما في نفسي فينصرف لساني الى غيره اهـ . بل لو شئت لقلت انه ما افسد على المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وامثالهم من حبائس اللغة وانضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون

ويدونون ، من حيث يظنون انهم ينظمون او يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب العربي كان يستطيع ان يكون خيراً مما كان لو ان الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وانك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه - الذين ياخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة - من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، او من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي او مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحماً من اولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شأن من شئون حياتهم وأرادوا انفسهم على الافضاء به - ارتج عليهم فاغلقوا او تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين ان الاولين كاتبون ، والآخرون مصححون ، فمثلهما كمثل النساج وعامله : هذا ينسج الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره [1] ، او كمثل الشاعر والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة

---

(١) الزئبر : ما يظهر من درز الثوب .

الغرض وتطبيق المفصل ، والاخذ بمجامع الالباب ، امتلاك ازمة الهواء ؛ فاذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير او الشاعر الجليل ؛ فان زلت به يده اصيل ، او كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة او بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه او بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، اصبح شانه شبيهاً بشان العرب الاولين ، وكان من شانهم ان يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول ابو علي الفارسي : انهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ؛ فربما استهواهم الشيء ، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون ، وكما ان الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من سحنته ، ان تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج اصيل ، او دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الانكليز : نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة ، فاجاب : ان سطراً واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي ان احرم نفسي التمتع بادبه واكراماً لسواد عيون الغراماطيق [1] الانكليزي ، فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها افضل من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون [2] طرقها ويستدنون نافرها ،ويجمعون شاردها ، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك

(١) الغراماطيق : النحو .

(٢) يعبدون : يذللون ويمهدون .

فيأخذها الناس عنهم من اخصر الطرق واقربها ، واشهاها الى النفس ، واعلقها بالقلب ؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة او يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ، وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ؛ فكما ان الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط، ولا تتبسط اعضاؤه، ولا تنتشر القوة في اعصابه ، الا اذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه الا اذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون ان يسيطر عليه في ذلك مسيطر الا طبعه وسجيته؛ واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فان مشى خيل اليه انه يمشي على رملة ميثاء ، وان تحرك خيل اليه ان تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول اليها . على ان الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة الا اذا نظر الى الألفاظ بالعين التي يجب ان ينظر بها اليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي ان تكون خدماً لها وخولا،

واوعية وظروفا ، فاذا كتب تركها وشانها واغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ، فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ؛ ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة الى لسانه ، او غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الاغراض وابهمها ، او شوّه الالفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فاكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية احسان المحسن منهم ان يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الاعضاء مستوى الخلق ؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ؛ وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته ، وما خلط التكلف عملا من أعمال الذوق الا شوّه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت ان الاحاديث ثلاثة : حديث

اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فاما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة، او تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى ياتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ،وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها او معجمة كلها او راوح بين الإهمال والإعجام ، فيخيل اليك وانت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً ، او يصفه تصفيفاً ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الاثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها واجدرها ان ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وان ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شان لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين اثقالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والاغراب ، ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل ، الى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة ، وآية ما بينك وبينها : انك

اذا رأيتها شعرت بانك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وان صاحبه لا يريد منه الا ان يطرفك او يضحكك او يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كان يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل ان يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون الى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولا لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها – وهي من سكان السماء – ان تهبط الى الارض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله ان يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شانه ، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا ان يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا ان يمتدح ممدوحه برفعة الشان وعلو المقام .

او يقول :

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ،

مستعظما ان يخلفها ما عوّدها إياه من طعام وشراب ، لا يمكن ان يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق احشاءهم ، ويقطع اوصالهم، ليملأ بها بطون الوحش ؛ ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هـذا السبب الذي ذكره ؛ عـلى ان المحسن لا يكـون محسناً الا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيتـه ، فإما ان يقتـل الناس تقتيلا ويمثل بهم ، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها ؛ فذلك شيء هوْ بالجنون اشبه منه بالإحسان .

او يقول :

لا يـذوق الإغفـاء الا رجـاء ان يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الإنسان وعمـاد حياتـه ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من ابعد الاشياء عن التصور والفهم ان يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه ان يرى فيه الاحلام والرؤى ، فـان فعـل فعـلا يدخل في باب اغراضه وامانيه ان ينـام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتاكلين ، وهم ملء الارض وهباء الجو ، وارصاد الاعتاب ، واعقاب الابواب ، لا تفتح الاعين الا عليهم ولا تمتلىء الأنظار الا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به الا اذا ألقى في طريقه حبائل الاحلام ليصطاد بها .

او يقول :

لم يتخـذ ولداً الا مبـالغـة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعامـاً ، واكثر مـا تقذف به الأرحام من النسمات إنمـا هي ثمرات الحب يـأتي بهـا عفواً ، لا نبتـة من نبـات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعـالى غـني بربوبيته ووضوح آثارهـا عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليـل يـدل عـلى مخالفته للحوادث في الصفات والافعـال ؛ فالأدلة عـلى ذلـك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربمـا كان أهونها واضعفها انه لا يتخذ ولداً ، وانهم يتخذون . على ان المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسالة مفروغ منها قبـل ان يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

او يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيباً

فإن الأزهار الـتي تستمد حياتهـا ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن ان تكون طيبة الريح ، على ان الأزهار مريحة قبل ان يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على ان أتى بخيال ضعيف مبتذل هو اشبه الاشياء بخيـال العامة الذين يرون ان بعض الأزهار مـا خلق الا اكراماً لبعض النبيين .

او يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي الـ ساعـة مـا تجتنيـه في سنتك

فقـد اراد ان يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق مـا يصف النـاس

وياتي في ذلك بما لم يأت بـه غيره؟ ، فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة او يوم واحد .

او يقول :

ولما ضاق بطن الارض عن ان يضم علاك من بعد المات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق باحد ، والجو لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن .

واما حديث القلب فهو ذلك المنثور او المنظوم الذي تسمعه فتشعر ان صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه ،او ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون ،او سرائر القلوب ، او ليفضي اليك بغرض من اغراض نفسه ، او لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، او ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا او ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكاس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمة بغير إناء ، او كما

تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى الا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو ارقى الاحاديث الثلاثة واشرفها ، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت اساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء اربعة انا ذاكرها ، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في ادبه .

(اولها) اني ما كنت احفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، اي انني ما كدت اتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت احدث الناس بقلمي كما احدثهم بلساني ، فاذا جلست الى منضدتي خيل إليّ ان بين يدي رجلاً من عامة النـاس مقبلاً عليّ بوجهه ، وأن من ألذ الاشياء وأشهاها الى نفسي ان لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه ، فلا أزال اتلمس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتاتى اليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحـاح المشفق الجد ، حتى اظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيـد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في اوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامـاً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقاً عليه ان يمل ويسأم ، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

(وثانيها) اني ما كنت أحمل نفسي على الكتـابة حملاً ، ولا أجلس

الى منضدتي مطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بل كنت ارى فافكر فاكتب فانشر ما اكتب فارضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا اتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

(وثالثها) أني ما كنت اكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة ، لأني كنت أعلم ان الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ، وأحسب ان السبب في ذلك ان اكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والاخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو اثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر . ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما ان الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الاعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي فيساحة الحرب،ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم ان الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد الى سماء .

(ورابعها) أني كنت اكتب للناس لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا

لاسمع منهم : انت احسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ، خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شان لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شان من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لأني لم اكتب لهم ، ولم اتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ، لأني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي اكتب بها ، فلا احب ان يكدرها عليّ مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا احب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع به ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فاصغي الى الاول لاستفيد علمه ، واعرض عن الثاني لاتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم ان على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله،فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع احسنه ،فانا احمد الله في امره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

الغد

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيما اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو[1] دون غايته؟ وهل استطيع ان اتمم رسالتي هذه،او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فأصبحت كأنما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[1] وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ؛ لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه[2] العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ؛ الا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كاني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه[3] . متلفع بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقاً في الارض ، وصعد في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب باسباب[4] من حديد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

---

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .
(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئاً فشيئاً .
(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .
(٤) الاسباب : الحبال ، وكل ما يوصل بين الشيئين .

وعرف أغوارها وأنجادها . وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم ومسافات الاشعة. والموازين لوزن كرة الارض إجمالاً وتفصيلا . وغاص في البحار فعرف اعماقها ، وفحص تربتها وازعج سكانها ، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها،ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى اصحابها وعرف كيف يعيشون واين يسكنون ، وماذا ياكلون ويشربون ، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة [1] واحدة من صفحات وجهك المقنع ، او لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك .

ايها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛

(١) صفحة الشيء : جانبه .

أأذللتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وامانينا ، حتى لا تفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فـإنما نحن احياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأماني وان كانت كاذبة .

وليست حياة المرء إلا امانيـا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

*

الكأس الاولى

كان لي صديق احبه واحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فانا اليوم ابكيه حياً اكثر مما كنت ابكيه لو كان ميتاً ، بل انا لا ابكي إلا حياته ، ولا اتمنى إلا مماته ، فهل سمعت باعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس !

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلا غير سبيله فانكرته وانكرني ، حتى ما امر بباله، لأن الكاس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه اذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت القاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها ان يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد اعلم من امره بعدذلك شيئاً،لأن حياة المدمنين حياة متشابهة

متماثلة ، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها ؛ ذهاب الى الحانات فشراب ، فخمار[1] فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة ، لا يدري اين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن ، حتى ان بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أحرى ان يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد ان سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم اعد أراه معربداً في الحانات ، ولا مطرحاً في مدراج الطرق ، ولا معتقلا في أيدي الشرط[2] . هناك سألت عنه فقيل لي : مريض ، فلم اعجب لشيء كنت اعد له الايام والاعوام ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه اعوده فلم اجد عنده طبيباً ولا عائداً ، لانه فقير ؛ والاطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ؛ والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم اجد المنزل ولا صاحبه ،لاني لم اجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف باجنحته في غرفه وقاعاته ،ولم أر دخان المطبخ؛ ولم اسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء اطفال ؛ ولا رنين الاجراس ؛ فكانني دخلت القبر ازور الميت ، لا المنزل اعود الحي .

---

(١) الخمار : صداع الشراب .

(٢) الشرط : اعوان الأمير ، ومفرده « شرطي » بضم الشين وسكون الراء .

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منـه الا إهاب[1] لاصق بعظم ناحـل ، فقلت : أيهـا الخيـال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك ان تدلني عليه ؟ فبعد لأي ما[2] حرك شفتيه وقال : هل اسمع صوت فلان ؟ قلت : نعم ، مم تشكو ؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها اضلاعه واجاب : اشكو الكاس الاولى ، قلت : أي كاس تريد ؟ قال : اريـد الكاس الـتي اودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي ، وها أنا ذا اليوم اودعها حياتي ؛ قلت : قد كنت نصحتك ووعظتك ، وانذرتك بهذا المصير الذي صرت اليه فما اجديت عليك شيئاً ، قـال : مـا كنت تعـلم حـين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد اكثر مما اعلم ، ولكنني كنت شربت الكأس الاولى فخرج الامر من يدي .

كل كاس شربتها جنتها عليّ الكاس الاولى ، أما هي فلم يجنها عـليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الاصدقاء والخلطاء .

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد اليها كما يعذر في الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية ؛ فـلا سلطان لها عليه الا بعد ان يتناول الكاس الاولى . فلمَ يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبـين من خلانـه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرهـا ليستكملوا بانضمامه اليهم لذتهم التي لا تتم الا بقراع الكئوس وضوضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومالوفه

(١) الإهاب : الجلد .   (٢) يقال « فعله بعد لأي » أي إبطاء ، و « ما » زائدة .

وأي ذريعة تذرعوا بها الى ذلك، لتحققت انه ابله الى النهاية من البلاهة، وضعيف الى الغاية التي ليس وراءها غاية .

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء ، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان .

قالوا : ان حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء الا الشراب ، وقالوا : ان الشراب يزيد في رونق الجسم ، ويبعث نشاطه ، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان ، وانه يشجع الجبان ، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام ، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به .

صدقت ان في الشراب أربع مزايا : السعادة، والصحة ، والفصاحة، والإقدام ، فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ، والمرض ، والسقوط ، والجنون .

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر ، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء . وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة الهذر والهذيان ، وهجر [1] القول وبذاءة اللسان ، ومن الإقدام العربدة التي لا تسكن الا في غرفة السجن ، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هي ، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة [2] والصفع تحية ، فيضحكه من

(١) الهجر : الفحش .　　(٢) الطرفة : الملحة المستحسنة .

ذلك ما يضحك الاطفال والممرورين[1] .

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه ؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات ؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً[2] يتسرب في المنعطفات والازقة ، ويعوذ بالواذ[3] الجدر والاسوار فراراً من نظرات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار .

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من انهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه ان لي قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العد ، وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به ؛ ولولا الكاس الاولى ما هلكت ، ولا شكوت الذي شكوت ، ولولاها ما عافني الاصدقاء ،ولا زهد في الاقرباء، فكن انت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاهدته على ذلك ، ثم تركته في حالة :

تصم السميع وتعمى البصير ويسال من مثلها العافية

---

(١) الممرور : الذي هاجت مرته ، ويطلق على الجنون . (٢) متخلجاً : متثنياً
(٣) لوذ الجبل : جانبه ، والجمع : ألواذ .

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدت الى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك الا دمعة لا استطيع إرسالها ، وزفرة لا استطيع تصعيدها .

ذلك لان الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل ان أساله اياك ، ثم استلبنيك قبل ان استعفيه منك ، قد أراد ان يتمم قضاءه في ، وان يجرعني الكاس حتى ثمالتها ، فحرمني حتى دمعة أرسلها او زفرة اصعدها ، حتى لا اجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغاضباً ، وله الثناء منعماً وسالباً ، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه .

رأيتك يا بني في فراشك عليلا فجزعت . ثم خفت عليك الموت ففزعت وكانما كان يخيل اليّ ان الموت والحياة شان من شئون الناس وعمل من الاعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب

لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك اصب في فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة ، حتى نظرت فإذا انت بين يدي جثة باردة لا حراك بها واذا قارورة الدواء لا تزال في يدي . فعلمت أني قد ثكلتك ! وان الامر امر القضاء ، لا امر الدواء .

سانام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك ، واحسب ان آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شئون الحياة واطوارها ، وخطوبها واحداثها : هو الندم العظيم الذي لا ازال أكابد أله على تلك الجرع المريرة التي كنت اجرعك اياها بيدي وانت تجود بنفسك ، فيربد وجهك ، وتختلج اعضاؤك ، وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع ان تمدّها اليّ لتدفعني عنك ، ولا لسان فتستطيع ان تشكو اليّ مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني ان أكل الى الله أمرك في شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي اجشمك اياها ، فلقد اصبحت اعتقد انني كنت عوناً للقضاء عليك وان كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم تكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت احملها لك في يدي.

ما اسمج وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما اقبح صورة هذه الكائنات في نظري ! وما اشد ظلمة البيت الذي اسكنه بعد فراقك اياه ! فلقد كنت تطلع في ارجائه شمساً مشرقة تضيء لي كل شيء فيه ، اما

اليوم فلا ترى عيني مما حولي اكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى اذا استنفدوا ماء شئونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال اكثر مما احتملوا ، لجاوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها ، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين : عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى انت تعلمها .

لقد طال عليّ الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسال الله ان ينفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار ، بل ليت النهار ياتي ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت من قبلكما خويكما فانا في كل يوم استقبل زائراً جديداً ، واودع ضيفاً راحلا .. نيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب .

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فاصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقاً مبعثرة في زوايا القبور ، ولم يبق لي منها الا دماء قليل لا احسبه باقياً على الدهر ، ولا احسب الدهر تاركه دون ان يذهب به كما ذهب باخواته من قبل .

لماذا ذهبتم يا بني بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون انكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما اسفت خلو يدي منكم ، لأنني ما تعودت ان تمتـد عيني الى ما ليس في يدي ؛ ولو انكم بقيتم بعد ما جئتم مـا تجرعت هذه الكاس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم ان يتزحزح لي عن طريقي التي اسير فيها ، وان يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن اليّ ولا يسيء ولا يتقدم اليّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لي مبتسما ، ولا مقطباً ، ولا ضاحكاً ، ولا باكياً ، لو انه رضى مني بذلك ؛ ولكنه كان أذكى قلباً ، وانفذ بصراً ، من ان يفوته العلم بانني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يـدي ، ومـا كنت اجـد مرارة فقدانها لو لم أذق حـلاوة وجدانها ، وكان لا بد له ان يجري في سنة الشقاء الـتي اخذ عـلى نفسه ان يجريها في الناس جميعـاً ، فلمـا عجز عن ان يدخل اليّ من باب الطمع ، دخل اليّ من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فاغتبط بها حقبة من الدهر ، حتى اذا علم ان بذرة الأمل الـتي غرسها قـد نمت وازدهرت وانني قـد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها ، كر عليّ فانتزعها من يدي انعم ما اكون بها ، كما تنزع الكاس الباردة من يد الظامىء الهيان ، ليعظم وقع السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمة من يدي ، ولولا ذلك ما نال مني منالاً ، ولا وجد اليّ سبيلا .

يا بني ، ان قدر الله لـكم ان تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، او عـلى شاطىء غـدير من غدرانهـا ، او تحت ظـلال قصر من قصورهـا فاذكروني مثل ما اذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين

يديه المصلون ومدوا اليه اكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له : اللهم انك تعلم ان هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الايام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وباسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين اليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي تنعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وانت أرحم بنا وبه من ان تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما ان تاخذنا اليه او تاتي به الينا .. لا ، بل لا تطلبوا منه الا ان ياتي بي اليكم . فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى ان يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا .

★

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه . أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها ، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان ؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهذه النيرات حور وولدان ؟ أم فص من ماس ما يتلألأ ، وهذا الافق المحيط بك خاتم من الانوار ؟ أم مرآة صافية ، وهذه الهالة الدائرة بك إطار ؛ أم عين ثرة ثجاجة ؟ وهذه الاشعة جداول تتدفق ؟او تنور مسجور ؛ وهذه الكواكب شرر يتألق؟!

أيها القمر المنير :

إنك أنرت الارض : وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ، وعامرها وغامرها ؛ فهل لك ان تشرق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما اظلها من سحب الهموم والاحزان ؟

أيها القمر المنير :

ان بيني وبينك شبهاً واتصالاً ؛ انت وحيد في سمائك ، وأنا وحيد

في ارضي كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوي على احد ولا يلوي احد عليه ، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل فيسايره ويناجيه ، يراني الرائي فيحسبني سعيداً ، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ، ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والاحزان لبكى لي بكاء الحزين إثر الحزين ؛ ويراك الرائي فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق إنسان ، ولا يبغم حيوان.

أيها القمر المنير :

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً ، وقلبي لذة وسروراً ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه، فهل لك أن تحدثني عنه ، وتكشف لي عن مكان وجوده ؟ فربما كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ، ويرجوك رجائي .

وهاأنذا يخيل إليّ أني أرى صورته في مرآتك ، وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزداد شوقاً إليه ، وحزناً عليه .. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفتنا ، ويدوم اجتماعنا .

أيها القمر المنير :

مالي أراك تنحدر قليلا قليلا الى مغربك كأنك تريد ان تفارقني ،

ومالي أرى نورك الساطع قـد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هـذا السيف المسلول الذي يلمع من جانب الافق على رأسك ؟

قف قليلا ، لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيداً ، فإني لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك .

آه ، لقد طلع الفجر ، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار ، ويقبل إليّ أنس الظلام ! !

★

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فاحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب : فانشا يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه الا انه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنه فتش عنها فوجدها ، وفتشت عنها حتى عييت بامرها فما وجدت اليها سبيلا .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت انه سارق للدينار الثاني ، ولو وكل اليّ أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص

الدراهم، وأغفل لصوص الدنانير، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه •

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ، ولكني أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أنفق من راحته في سبيل صونها واحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب •

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه اياه، أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم • وأراحة[1] الحقوق على اهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب: فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه[2] لها ، ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكم القانون عليه • كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، وما القانون الا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه •

فتشت عن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغنى اما شحيحاً او

(١) أراح الحق على اهله : أعاده اليهم . (٢) أبه للشيء : تفطن له واحتفل .

متلافاً ، اما الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل انينها وانين ولديها من الجوع ما مدّ اصبعيه الى اذنيه ثقة منه ان قلبه المتحجر لا تنفذه اشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان، واما الثاني : فماله بين الثغرين : ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء ٠٠ فعلى يد اي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء ؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط : الفاظ مترادفة معناها الكذب ، فرأيت ان الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته ، لا فرق بينهما الا ان هذا ينقض (تعريفته) ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت ان اعدى عدو للإنسان الإنسان ، وان كل امة قد اعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله ان تعده لاختها من الموت وافانين العذاب حتى اذا وقع الحتف بينهما على حد من الحدود او جدار من الجدران ، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية اظفاراً كاظفاره وأنياباً كانيابه ، فشحذ الاولى وكشر عن الاخرى ثم هجم على ولد ابيه وأمه هجمة لا يعود منها الا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ؟ وعلام تقتتلان ؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما ، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما الا في الساعة التي اقتتلتما فيها ؟ لعرفت انهما مخدوعان عن نفسيهما ، وأنهما ما خرجا من ديارهما ليضعا درة في تاج الملك ، او نيشاناً على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم - الا من رحم الله - يتجرون بالعقول في اسواق الجهل ، ورأيت كلا منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها الى الاخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها .

فتشت عنها في كل مكان اعلم انه تربتها وموطنها فلم اعثر بها ، فليت شعري هل اجدها في الحانات والمواخير ، او في مغارات اللصوص ، او بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس : قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً ، وموردا عذباً ، وإني قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم : إني لا انكر وجود الفضيلة ، ولكني اجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس امام عيني سحابة سوداء اظلم لها بصري ، حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الاذكياء والاغنياء ، ومظهر يخدع اسوأ الناس بالناس ظناً ، فمن لي بالوصول اليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل ؟

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها ان اعثر في طريقي في يوم من ايام حياتي بصديق يصدقني الود واصدقه ، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون ان يتجاوز ذلك الى ما وراءه من مآرب واغراض ، وأن يكون شريف

النفس فـلا يطمع في غـير مطمع ، شريف القلب ، فـلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره؛ شريف اللسان فـلا يكذب ولا ينم ، ولا يـلم بعرض ولا ينطق بهجر[1] . شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ، ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي اتمناها ولكنني لا اراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارهـا ، وترن اطيارهـا ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وازهارها ، انسياب الافـاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى انامل النسائم تعبث بمنثورها الاوراق ، عبث الهوى بألباب العشاق ، واسمع مـا بـين صفير البلابل ، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ اوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر ، ولا يطربني مسمع ؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي انشدها .

لقد سمج وجـه الرذيلة في عيني ، وثقـل حديثها في مسمعي ، حتى اصبحت اتمنى ان اعيش بلا قلب فلا اشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس بـه والسكون اليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت اطـير

(١) الهجر : الفحش .

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كانما يشكو ألماً ، فرثيت لحاله وسالته : ما باله ؟ فشكا الي الجوع ، ففثاته [١] عنه ببعض ما قدرت عليه ، ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة ، فادهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه ، وانه يشكو من الالم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسالته عما به فشكا إليّ البطنة، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألما .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفىء غلته ؛ ولكنه كان محباً لنفسه ، مغالياً بها ، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

---

(١) يقال : فثأت فلاناً عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه .

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الارض بنباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما[1] واحتجنهما[2] دونه ، فاصبح فقيراً معدماً ، شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الاغنياء ، لا الارض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس. فاستطيع ان اتصور كما يتصورون ، حجة الاقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ، واولى بامتلاكه من الضعفاء ؛ إن كانت القوة حجتهم عليه ، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب اموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الابوة علة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في اموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم ان يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال الى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الاقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم ، ينام احدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه انه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقراً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه . أن بين أقربائه وذوي رحمة من تتواثب أحشاؤه شوقاً الى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها . بل ان بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء

---

(١) زوى عنه حقه ؛ منعه اياه .

(٢) احتجن الشيء : اذا جذبه بالمحجن الى نفسه ؛ والمحجن الصولجان ، والمراد انه استأثر به.

لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد مـا تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الاثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليـه عيشه ويبغض اليه حيـاته وكانه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته : أنا سعيد لاني غني ، وانت شقي لانك فقير .

أحسب لولا أن الاقويـاء في حـــاجة إلى الضعفـاء يستخدمونهم في مرافقهم وحـاجاتهم كما يستخدمون أدوات مـنازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم،ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين ايديهم ، لامتصوا دمـاءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا استطيع ان أتصور ان الانسان انسان حتى أراه محسنـاً ؛ لاني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان ، واني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن الى غيره ليتخذ احسانه اليه سبيلاً الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبـار الذي لا يفهم من الاحسان الا انه يستعبد الانسان ؛ ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشره المتـكالب الذي لو علم ان الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ؛ ورجل لا يحسن الى نفسه ولا الى غيره وهو البخيل الاحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه ؛ وأما الرابع : وهو الذي يحسن الى غيره ، ويحسن الى نفسه ، فلا أعلم له مكاناً ، ولا اجد اليه سبيلاً ، واحسب انه هو الذي كان يفتش عنـه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينـما سئل : مـــا يصنع بمصبـاحه ؟ وكان يدور به في بياض النهـــار ، فقال : « افتش عن انسان » .

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني امشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الامواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط وكانت الشمس قد طفلت[2] للإياب فلم أر في بطحائها ظلا غير ظلى المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر[3] فاوسعتني طولا ورسمتني ميلا .

أنشأت أمشي لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، واني يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها . وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس الى مستقرها : وطار طائر الليل من مكمنه . ونشر الظلام اجنحته السوداء في الافق حتى وجدتني احير من دمعة وجد في مقلة عاشق ؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، ولا اعلم هل

---

(١) القاموس : وسط البحر ومعظمه . (٢) طفلت الشمس : احمرت للغروب .

(٣) وربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين) .

أنا سر كامن في بـاطن الظلمـاء ، او حوت مضطرب في اعمـاق المـاء .
وأحياناً كان يخيل اليّ اني في منجم من منـاجم الفحم فامـد يدي أتلمس جدرانه مخافة ان اصطدم بواحد منها ؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفض صبغته . وان ذراته تتطاير ههنا وههنا ؛ فإذا انابين يدي جبل عال كانمـا هو جدار قائم يمسك السماء ان تقع على الارض ، او ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر ، ومن شعاعهـا الرداء الاصفر .

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخبال ؛ حينما رأيت ان صعود السماء اقرب الى الامـل ، من صعود هذا الجبـل ، وحرت بين الاقدام والاحجام ، فلم ار بدمن الاستسلام لمقدور الحمام،ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضـاء ناعمة الملمس ، فاضطجعت عليها وانا اتمثل بقول ابي العلاء ؛

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

ومـا هي إلا غمضة الطرف ان اشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلا ، ثم استقلت ثم طارت ، فكدت احسب انه الموت قد نزل،وانها الروح تصعد الى الملأ الأعلى .. لولا ان فتحت عيني فرأيت مـا كنت احسبه صخرة طائراً اشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها،واستمر ذاهباً بي في افق السـماء ، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط الى قمـة الجبـل فاسرعت بالانحـدار عنـه وهنـالك احسست بسلسبيل بـارد من الامـل يتسرب الى قلبي فينقع غلته . ويطفيء لوعته ، لانني رأيت السفح الثاني

ورأيت بهجة الحيـاة وزهرة العمران .

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الاكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كانهـا العصافير السوداء ، والحمائم البيضاء ، وكان ما ألم بنفسي من السرور انساني ما ألم بجسمي من النصب فانحدرت اليهافما بلغتهاحتىرأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابهاشيخ هو اشبه الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ ، فذعر مني كما يذعر الانسان لرؤية الجان ، وما كان الذي قام في نفسه مني باكثر ممـا قـام في نفسي منـه ، لولا اني الفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكانما الهمت لغته،فحييته بها فحياني وهو يقول:ما كنت احسب ان الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الانسان ؛ فمـا زلت احدثه واستدنيه حتى أنس بي ودعـاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مرقـداً وثيراً [1] . وكان الليل قد اقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه،فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت انا والشمس من مرقدينا عـلىصوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي الى الله تعالىصلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهيمصطفة صفاً واحداً ان ييسر لها الله عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره، فاخذ منظرها هذا من نفسي ماخذاً عظيما فلم ار بداً من

---

(١) الوثير : الواطيء .

الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها ؛وعجبت ان يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخاً في نفوس اهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول،ولم ينزل عليها كتاب؛فلما فرغنا من الصلاة التفت الى صاحب البيت وقلت له: أرا كم تتعبدون ، فمن تعبدون؟ وتصلون ، فمن الذي تدعون؟ قال : نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ؛ قلت : هل رأيتموه حتى عرفتموه قـال نعم رأيناه في أثاره ومصنوعاته ؛ رأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات؛ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ؛ قلت: ولم تعبدونه ؟ قال:شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وان آحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن اليه بجرعة او انعم عليه بمضغة ؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن الى المحسنين ؛ فقلت في نفسي : لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ثم سالته اين تذهبون بعد الموت ؟ قال:الى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ؛ قلت : لعلك تريد الجنة والنار ؟ قال : لا افهم ما تقول ، وانما اعلم ان الإله الحكيم لا يترك المحسن دون ان يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يابى عدله ان يسوي بين المحسن والمسيء؛قلت : متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ؛ قال : الاحسان عمل الخير ؛ والاساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه، او من يقصر في دفع الأذى عنه؛فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون اعمارهم في الحيض

والاستحاضة والمذى والودى [1] والحدث الأكبر والحدث الاصغر . وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم،والدور والتسلسل؛ وليت المتصوفة الذين يحاولون ان ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته ، ويغالبوه على امره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه ـ يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار ، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ، ولا يميزون بين الدين والتين .

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ ان يزيرني في المدينة .فانحدر بي اليها،فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ؛ ورأيت سكانها مكبين على اعمالهم ، مجدين في شؤونهم . . صغاراً وكباراً . . رجالاً ونساء . . مافيهم فقير يتسوّل . . ولا متبطل يتثائب ويتململ؛واغرب ما استهوى نظري انني لم ار في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم . . ومطاعمهم ومشاربهم،وهيآتهم وازيائهم،كان جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة،فسالت الشيخ:الا يوجدفيكم غني وفقير،وسيد ومسود؟ قال:لا يا سيدي،حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل اثقاله ، ثم لا شان له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه لا يوجد فينا غني وفقير.قلت لا بد ان يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان ! قال : اما الكسلان

(١) المذى والودى : نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب

فلا وجود له بيننا ، لأنه يعلم انا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلها عن العمل ، واما العاجز فنحدب عليه ونحسن اليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا انما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين ، ورحمة البائسين .

وانه ليحدثني بهذا الحديث اذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا ، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن [1] دون عباده أرضهم ومالهم ليعلو عليهم ، ويستأثر بالنعمة من دونهم ، فغضب الله عليه ، وقلب نعمته نقمة ، ورخاءه شدة ، فإنه مما أراح [2] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه الى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما بغض اليه العيش ، وحبب اليه الموت : لم يحمه قصره ، ولم يغني عنه ماله ، فهو عبرة للمعتبرين ، وموعظة السابلة [3] ؛ فكبر الرجل في ذرعي [4] وعظم في عيني ، وأكبرت فيه وفي امته هذه الخلال الشريفة ، والأخلاق العالية، وقلت في نفسي ان مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة واصول التربية وفنون الآداب ، لتعجز عن ان تخرج للناس رجالاً يستطيعون ان يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم ؛

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٢) اراح فلان الشيء : وجد ريحه .
(٣) السابلة : المختلفون على الطرقات في حوائجهم .
(٤) كبر في ذرعي : عظم وقعه عندي .

وأردت ـ على ذكر المدارس ـ ان اعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ : هل لك ان تزيرني مدرسة من مدارسكم ؟ فعجب لسؤالي وقال : ما المدرسة ؟ فكان عجبي لجوابه اكثر من عجبه لسؤالي وقلت: المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون ، قال : ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ قلت : ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم ، قال : وأي حاجة بنا الى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ إنا يا سيدي ارحم بابنائنا من ان نكل امرهم الى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم . فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع ،نعلمهم فيها كيف يرمون البذور ..وكيف يستنبتونها..وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها .. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم .. وإنا لا نعرف علما غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا .. ونستعين به على عبادة ربنا . قلت الكم حاكم يتولى اموركم ؟ قال لنا : حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته .. فاخترناه لفصل الخصومات ان عرض لنا من ذلك عارض . قلت : اليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ احكامه ؟ قال كلنا جنده وكلنا واعوانه على كل من يختلف عليه او يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى .

قلت : اليس له سجناً يسجن فيه المجرمين ؟

قال : لا .. حسب المجرم عندنا عقوبة ان يتفق اهل المدينة على احتقاره والزراية به .. وان احدنا لا يؤثر ان يتخطفه الطير او يسقط

عليه كسف[١] من السماء على ان يرى نفسه بغيضاً الى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في اعينهم . . لا يرفعون اليه طرفاً ولا يقيمون له وزناً .

وما وصلنا من حديثنا الى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا الى المنزل الذي خرجنا منه .. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق .. فلم ار فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً اسعد حظاً ولا انعم عيشاً ولا اروح بالا من هذا البيت .

تلك هي « مدينة السعادة » التي يعيش اهلها سعداء لا يشكون هماً .. لأنهم قانعون . ولا يمسكون في أنفسهم حقداً .. لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون .

تلك « مدينة السعادة » التي رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها .. لولا ان الله في خلقه سنة لا تتبدل .. وشاناً لا يتحول .. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم استيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ، فلا السهل ولا الجبل .. ولا الشيخ ولا المزرعة .. ولا المدينة ولا السعادة :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى[١] أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى، فتمنينا فكنت الأمانيا

(١ الكسف القطعة .

(١) طل امطره الطل ، وهو المطر القليل .

أيها المحزون

إن كنت تعلم انك اخذت على الدهر عهداً ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك..وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مارب او استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في اخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها ،. حتى تكر عليها راجعة فتستردها .. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم . . سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ .. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء .. ومن ينام على بساط الغبراء ؛ فخفض من حزنك وكفكف من دمعك .. فما أنت باول غرض أصابه سهم الزمان . وما مصابك باول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً .. وقلبك سروراً ؛ وما هي إلا كرة الطرف ان

افتقدته .. فما وجدته . ولو انك اجملت في املك لما غلوت في حزنك .. ولو أنت انعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ..ما تظنه نجما زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لهـا .. ونظر اليهـا نظرة المستريب بهـا .. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها .. فإن بقيت في يده فذاك ، والا فقد أعدّ لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت؛ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق .

* *

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيتـه صبـاح أمس منزويـاً في ركن من الأركان في احـد الاندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن ، وانحنى على نفسه كأنمـا هو يشعر ان قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحـه ، ولو أنه اراد بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والاحزان .

سألته : مـا بالك ايها الصديق ؟ قال : لا شيء ؛ قلت : انت تكتمني مـا في نفسك ، ولو عرفتني مـا كتمتني ، قال : مـا جهلتك مذ عرفتك ، ولكنني أعطيت الله تعالى عهـداً مذ خلقت ألا اشكو الا من ارجو عنده البرء ، وما انا براج عندك ولا عند احد من الناس براءاً من دائي، قلت : هبني طبيباً ، والطبيب وان كان لا يشفي الا نادراً فإنه يسكن غالبـاً ويعزي دائماً . فان انا عجزت عن معالجتك فلن اعجز عن تعزيتك ، على

ان المـــاء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه ، والا طـــار بالقدر ، طيران الهم بالصدر .

فاصغى الى كلماتي واستخذى لها وأنشا يحدثني حديثاً تمازجه العبارات وتقطعه الزفرات ، يقول : زوجني ابي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج الا فيه قضاءلبانتها وترفيه عيشها وارضاء نفسها وهو يحسب انه قد احسن اليّ بسليلة المجد،وربيبة النعمة،ومالكة الدور، وساكنة القصور ؛ اجل انهــا ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عنه ــ غفر الله له ! ــ انني مــا كنت اريد ان اكون تاجراً اكسب مالا ، بل زوجاً ، وأن اجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبهــا ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي ، لا تكذبني في خير ولا شر واني اريد ان اجد في الزوجة التي اتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى ارضاع طفلها،ولبس ثوبها اعلى ان ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها ؛ فقد كانت لها خادم للابسها،واخرى لشعرها واخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ؛ومرضع وقهرمانة[1] وخياطة خــاصة بهـــا ، وطبيب لا يغب[2] عن زيارتهــــا ، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها .. ولم تكن ممن انعم الله عليهن بنعمة الجمال .. فكانت تنفق مـــا يزيد عن نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب .. وليتها كانت كانت تغفل أمري وتتركني وشاني فاستطيع ان اتناساهـــا واعد نفسي

---

(١) القهرمان : الوكيل ، أو أمين الدخل والخرج ، جمعها : قهارمة .
(٢) أغب فلان القوم : إذا جاءهم حينا بعد حين .

من العذاب تخيلا وتقديراً ، بل كانت تقيم عليّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب [1] المحيط بهـا حراسـاً كحراس الليـل وجواسيس كجواسيس الإنكليز ، يرقبن مواقع نظري ومواطىء قدمي ، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتتغار علي من الكواكب اذا رأتني انظر اليها .. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم اني احبه وأؤثره .. وتحسبها آهة الوجد او دمعة اذا رأتني اتاوه من آلام عشرتها او ابكي لعظم مصيبتي فيها .. وما هي بغيرة الحب ، ولكنها الاثرة [2] قبحها الله وقبح كل من تاتي به ، واكثر ما كان يغيظني منها : انها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفتات والخطوات الا في الساعة التي اريد ان اخلو فيها بنفسي او بكتابي ، فما اكاد انتفع بواحد منها . فإن سكت اغضبها سكوتي وان نطقت اغضبها حديثي . وان قرأت في كتابي ظنت ان المؤلفين ما الفوا الكتب الا نكاية بها لاستطيع ان اتخذها معتصماً اعتصم به من محادثتها ومسامرتها . فكان الكتاب في نظرها اعدى أعدائها وابغض الاشياء اليها ، وجملة القول انها ما كانت تستطيع ان تتصور الا ان الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع اطوار حياتها ، وانه ما خلقني الا لاكون زينة مجلسها ودمية [3] قصرها ، واداة لهوها ولعبها ، فلا اقرأ ولا اكتب ولا اعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا ابكر لمزاولة اعمالي ولا اسام أحاديثها الطويلة المملة التي لاتشمل الا على نقد الازياء واغتياب النساء . فإن وافيت فذاك والا

---

(١) الجحفل : الجيش واللجب : ذو الجلبة والصياح .
(٢) الأثرة : اختيار الشيء والاستئثار به .
(٣) الدمية : الصورة المنحوتة من المرمر .

استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق الى وحش مفترس، فلاتعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكنت ـ بين الم رضاها وعذاب غضبها ـ في شقاء حبب اليّ الموت وبغض اليّ وجه الحياة . وبعد : فقد رأيت ان العيش معها مستحيل .. فلم ار بدآ من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شيء ابغض اليّ من الجد .. ولا اسمج في نظري من المال .قلت:ولكنني لا ازال اراك حزيناً حتى الساعة . قال : نعم لانني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة .. ورحت افتش عن الزوجة المتعلمة وقلت : ليكون لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول .. بعد ما صار اليّ الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار .. فهيا لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جواري ان في بيته فتاة جميلة ما زال يعني بأمرها حتى خرّجها [1] وأدبها فاصبحت نابغة مدرستها .. وسيدة أترابها علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً . فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها .. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقعت في نفسي احسن موقع .

* وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل *

خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث ان أخطبني [2] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً .. وخيل اليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة

---

(١) خرج الأستاذ تلميذه : هذبه وعلمه .

(٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه : أي أجابه .

حيـاتي ، وسجلت ان الدهر أنشأ يكفر بحسناته مـا اسلف من سيئاته ؛ فاني لكذلك وقـد أعددت للبناء بهـا عدته ، ولم يبق بيـني وبينه الا يوم واحد ، اذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب ، فهاكهه فاقرأه ؛ فان فيه بقية قصتي ، وسر نكبتي . ثم ألقى اليّ بكتاب معنون بإسمه ، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه ، ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما ياتي :

« علمت انك خطبت فلانة الى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذبك نظرك ، وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً بها ، فانها لن تكون لـك بعـد ان صارت لغيرك ، ولا يخلص حبـك الى قلبها بعد ان امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يـدك منها ، وان أردت ان تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صـدق خبري واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر الى الصور المرسلة مع هذا الكتاب ؟

التوقيع »

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فأحسست برعشة تتمشى في اعضائي ،وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، الا انني تماسكت قليلا ، فاعدت اليـه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت ان اقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد مـا انكشف لك سرها ، وظهرت لـك حقيقتها ، ولو كنت

مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، الى الاستغفار من حبها ، وحمداً لله على ما الهم من صواب الرأي فيها ؛ أمـا ان سالتني عن رأيي في زواجك بعد الآن ، فاني لا أرى لك الا ان تترهب وتتعزب [1] وان تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها : « الى الدير .. الى الدير » .

* *

(١) تعزب : أي عاش عزباً لا يتزوج

الرحمة

ساكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأني أريد ان اخاطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر .

ان البذور تلقي في الأرض فلا تنبت الا اذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته ، وتخللت اجزاءه ، وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد : كن رحيماً ، اشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : اني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، اجل . فليكن ذلك كذلك ، ولكن اطعم الجائع واكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك واحزانك ، ولا تعجب ان ياتيك النور من سواد الحلك ، فالبدر لا يطلع الا اذا شق

رداء الليل ، والفجر لا يدرج الا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها .. ورثت حبالها ..واصبحت اثقل على النفس من الحديث المعاد .. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها الا لذة واحدة : هي لذة الإحسان .

ان منظر الشاكر منظر جميل جذاب .. ونغمة ثنائه وحمده اوقع في السمع من العود في هزجه ورمله [١] واعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول [٢] .

احسن الى الفقراء والبائسين ، واعدك وعداً صادقاً انك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، انك اكرم مخلوق ، وأشرف إنسان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك ان يجزيك الله خيراً بما فعلت .. فيدعو صاحبه بدعائه ، ويرجو برجائه .. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة : ما يجده الصالحون اذا ذكروا في الملأ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون او مفؤود [٣] فتبتسم سروراً ببكائك .. واغتباطاً بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور .. تسجل لك في تلك

(١) الهزج والرمل : نوعان من الموسيقى .
(٢) معبد : أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول : ضرب من ضروب الغناء.
(٣) المفؤود : المصاب في فؤاده بألم او غيره .

الصحيفة البيضاء : انك إنسان .

ان السماء تبكي بدموع الغمام..ويخفق قلبها بلمعان البرق .. وتصرخ بهدير الرعد ، وان الارض تئن بحفيف الريح .. وتضج بامواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الارض الا رحمة بالإنسان .. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وانينها .

ان اليد التي تصون الدموع ، افضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور . اشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن افضل من القائد واشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيى الميت . ومن يميت الحي .

ان الرحمة كلمة صغيرة .. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها . والشمس في حقيقتها .

واذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم .. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم .. ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه . ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعاً .. بل أرادت حكمته ان يخلقه ويخلق له فوق بساط الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته . ويسد حاجته .. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن دونه رزقه .. فتغير نظام القسمة العادلة .. وتشوه وجهها الجميل .. ولو

كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليها سبيل .

الفرد هو المجتمع .. وإنما يتعدد بتعدّد الصور .. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة واشعرها نفسه .. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها ، انفرد عنها واستوحش من نفسه ، واذا كان الأنس مأخذ [1] الإنسان المجتمع .. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع .

وجماع القول انه لا يمكن ان تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الاشقياء في مكان واحد ؛ الا اذا أمكن ان يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم .

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل .. فاذا مشى مشى مندفعاً مندلثاً [2] يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه الا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه ، وان من الناس من اذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم [3] ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم الا كما يعامل شوياته وبقراته .. لا يطعمها ولا يسقيها الا لما يترقب من الربح في الاتجار بالبانها واصوافها ..ولو استطاع ان يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل .. وان من الناس لا حديث له الا الدينار واين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه والوقوف في

(١) مأخذ الكلمة : أصل اشتقاقها .
(٢) الدلث : كاندفع . (٣) الدرة : اللبن اذا كثر وسال .

وجهه والحيطة لفراره .. يبيت ليله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته او يحلم في منامه انه سيأتيه فلم يقيض له ، وان من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة او يدفع عنها مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه او ليضرّي[1] نفسه بالاذى مخافة ان ينساه عند الحاجة اليه .. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه .. وان من الناس من اذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيها ، او عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها الا الصورة البشرية ، او عن قلبه رأيت حجراً صلداً من احجار الغرانيت لا يبضّ[2] بقطرة من الرحمة .. ولا تخلص اليه نسمة من العظة .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله ان تكون واحداً من هؤلاء فانهم سباع مفترسة وذئاب ضارية .. بل اعظك ألا تدنو من واحد منهم او تعترض طريقه .. فربما بدا له ان يأكلك غير حافل بك .. ولا آسف عليك .

أيها الإنسان . ارحم الارملة التي مات عنها زوجها ، ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، ارحمها قبل ان ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها

---

(١) يقال : أضري فلان كلبه بالصيد ، وضراه : اذا أغراه به وعوده متابعته .
(٢) بض الدم : سال .

تعجز عن ان تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً الى كسر بيتها .

ارحم الزوجة أمولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ، ولأن الله قد وكل أمرها اليك ، وما كان لك ان تكذب ثقته بك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فانك الا تفعل قتلته او أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لانه يحس كما تحس ويتالم كما تتالم ويبكي بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين .. ارحمه وكذب من يقول ان الإنسان طبع على ضرائب لؤم ، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً .

ارحم الطير لا تحبسها في اقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، ان الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها ؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الاشجار ، وفي الغابات ، وعلى شواطىء الانهار ، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء ، فيخيل اليك انها اجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار .

أيها السعداء . احسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الاشقياء ، وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

رسالة الغفران [1]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة [2] بأنواع من الخلق لا احصيهم عدداً ، فعلمت أني بعثت ، وانه يوم القيامة ، فساورني [3] من الهم ما ساورني حين ذكرت ان مقداره ألف سنة من سني القيامة ،وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظما وجوعاً ، ويحترق تحت اشعة شمس ليس بينه وبينها الا قيد ظفر ، فتماسكت بضعة اشهر ، ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلا ، فزينت لي نفسي الكاذبة ان اذهب الى رضوان خازن الجنان ، وكنت احمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه وألتمس منه الاذن بالدخول قبل انقضاض الحشر ، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة [4] باسمه كما كنت أرقي بامثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها ، فما أبه [5] لي ولا فهم كلمة مما اقول ، فانصرفت عنه الى

---

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها .

(٢) مكتظة : مملوءة .

(٣) ساورته الهموم : واثبته وملكت ناصيته .

(٤) المسومة : المعلمة .

(٥) أبــه : احتفل .

خازن آخر اسمه زفر فكان شاني معه شاني مع صاحبه ؛ الا انه كان أرق منه وألين جانباً ، فاشار عليّ بالذهاب الى النبي الذي أتبعه ، وأفهمني ان الأمر موكول اليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به ، فبينا أنا اتخلل الصفوف ، وازاحم الوقوف ، إذ وقـع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، وانعمت النظر فيـه ، فـاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، واذا بالمحتفين بـه جماعـة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : رويت بيتي عـلى غـير وجهه ؛ وذاك يقول : أعربته عـلى غير مـا أردت وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم الى الـنزول في ميـدانهم فلما فرغنـا من الرفـع والنصب والزيادة والحـذف حـتى أدركت شؤم مـا فعلت ، وعلمت ان شهادة التوبة قـد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب ، إنها شؤم الآخرة والاولى .

وقفت أحير من ضب في حمارة قيظ [1] لا أدري ما آخذ ، وما أدع ، حتى رميت بطرفي ناذا بأمـير المؤمنين عـلي بن أبي طالب في لفيف من العترة [2] الطاهرة النبوية فدلفت [3] اليه وأبثثته [4] أمري وأمر الشهادة المفقودة فقـال : لا عليـك ، ألـك شاهـد بالتوبة ؟ قلت : نعم ، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : تريث [5] قليـلا حتى تمر فاطمة بنت محمـد فنسالها في أمرك ، فهي تمت الى أبيهـا بمـا لا نمتّ به [6] وكانت من

(١) الحارة ـ بالتشديد ـ شدة الحر .
(٢) عترة الشخص : عشيرته وأهله .
(٣) دلف : مشى مشياً متثاقلا .
(٤) أبثه السر : كاشفه .
(٥) تريث : أبطأ .
(٦) تمت بالشيء : توصل به .

قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء الا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ، ثم تعود الى مستقرها ؛ فإنا لكذلك ، واذا بمناد ينادي ان غضوا ابصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، فهرعت اليها ، فرأيتها راكبة مع اخوتها وجواريها على افراس من نور ، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري ، فانجز وعده ، فقالت لأخيها ابراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي ، فتعلقت ، فطارت الافراس في الهواء تقطع الاجيال وتتخطى رؤوس القرون ، حتى وافينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، واقفاً لشهادة القضاء ، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً ، وما كنت اقدر ان بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فامرت فاطمة جارية من جواريها ان تعبر معي فامسكت بيدي ، فمشيت اترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : احمليني زقفونة ، فقالت : وما زقفونة ؟ فقلت : أما سمعت قول الجحجلول من اهل كفر طاب :

صلحت حالتي الى الخلف حتى   صرت امشي الى الورا زقفونة

فقالت : ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلت : ألقي يدي فوق كتفيك ، واجعل بطني الى ظهرك ، فحملتني ، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف ، حتى صرت الى باب الجنة،فرمت الدخول

فوقف رضوان في وجهي وقال : اين جوازك [١] فبعلت [٢] بالأمر ؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على ان يعطيني منها ورقة اعود بها الى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى ؛ فقلت ، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي : أما والله لو انك حارس على أبواب الكرماء ، او خازن لخزائن الملوك والامراء لما وصل شاعر الى درهم ، ولا سائل الى سحتوت [٣] ، ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً ، فسمع ابراهيم عليه السلام حواري [٤] فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر اليّ شزراً فدخلت ، فرأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت انهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، واصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، اذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وامن ان يذوق كاس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكئوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار [٥] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطربل [٦] من من البواطي [٧] والدنان ، ولو نظر الاقيشر الاسدى بعين الغيب الى

(١) الجواز : صك المسافر . (٢) بعل بأمره : برم به فلم يدر ما يصنع فيه .
(٣) السحتوت في الأصل : السويق القليل الدسم ، ثم أطلق على كل شيء قليل .
(٤) الحوار : مراجعة الكلام .
(٥) الخمار : صداع الخمر . (٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما .
(٧) جمع باطية ، وهي إناء الشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه .

عسجد هذه الاباريق وزبرجد تلك الكئوس لخجل من نفسه ان يقول :

أفني تلادي وما جمعت من نشب — قرع القوازيز [1] أفواه الاباريق

وفي تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها اسماك من الذهب والياقوت :

يعمن فيها بأوساط مجنحة [2] — كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت انهاراً من لبن ، وانهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه الا اذا ادرك ما يمتص نحل الجنة من ازهارها وانوارها .

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ، ثم تمثلت في نظري مصغرة ، فاذا هي سطور من النور ، واحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، فرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن، وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » .

ظللت أمشي فما أكاد اخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسي السابق ، ويشوق الى اللاحق، فوددت لو طويت لي الارض طياً فاتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وانها الامنية التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره

---

(١) القوازيز : جمع قازوزة ، وهي قدح للشراب . (٢) مجنحة : ذات أجنحة .

وغمزتـه غمزة خرج بها خروج الودق[1] من السحـاب ، والسيف من القراب[2] ، وعلى مـا جهدته لم يشك اليّ مـا شكاه جواد عنترة العبسي اليه في قوله :

فازور من وقـع القنـا بلبانه وشـكا اليّ بعـبرة وتحمحم

او ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة اليه في قوله :

تشكي الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يسطيع ان يتكلما

ذكرت أني ، وأنا في الدار الفانية كنت اسمع بذكر الذاهبين الاولين من الادبـاء والشعراء والرواة ، فـآسف عـلى ان لم اكن في زمنهم أراهم واحضر مجالسهم ، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار ، وهل سعدوا او شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ، ما لم يقيض في دار الفناء ؟

ثم رميت بطرفي فاذا فارس يحضر فرسه[3] في الهواء إحضاراً حتى تقاربنـا فتماست الركب واختلفت الاعناق ، فقـال : انتسب ، فقلت : فلان ، ومن انت يرحمك الله ، وقد فعل ؟ فقال : عدي بن زيد العبادي ، فدهشت وقلت : عدني ابن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال ؟ فقال انا عيسوي ، وانت محمدي ،وليس لصاحبك على احد حجة الا بعد ظهوره، وبلوغ دعوتـه ، فقلت : لا نكران ؛ ولكن كيف لم يقعـد بـك فسقك وشرابك ، واين استهتارك في قولك :

---

(١) الودق : المطر . (٢) قراب السيف : غمده .
(٣) أحضر الفرس : ارتفع في عدوه .

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قال : غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت : هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله ان أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة ! فقال : اصحبني ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له : هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد او هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً او ساقاً ؟ فتبسم ، وقال : اين يذهب بك ؟ نحن في دار الخلود والبقاء .

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر. متقابلين ، او على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هويه ، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ، ثم اخذوا فيما كانوا فيه ، فاذا الأصمعي ينشد مروياته ، وابو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان ، واذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد ان وقع بينهما في مجلس البرامكه ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر ، واخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون :

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه ، وقلت في نفسي : لولا ان قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت

هاتفاً من ورائي يقول : انـا بينكم ، وفي مجلسكم ، فالتفت فـاذا الأعشى ميمون ، فلم أدر من أي مدخليه [1] اعجب ، امن مدخله الى الجنة ؟ أم من مدخله الى نفسي ، وعلمه بما هجس في صدري ؟ فعلمت ان أهل الجنة ملهمون ، ثم سألته : كيف غفر لك ؟ فقـال : سحبتني الزبانية الى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد ، فاخذت أخذهم ، وهتفت هتافهم فأمر ان أدنو منه ، فدنوت فسألني : ما حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أيهـذا السائـل ان يمت　　فإن لهـا في اهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لهـا من كلالة　　ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم　　تراحي وتلقى من فواضله ندا
نبي يرى ما لا ترون وذكره　　أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال : مـا سمعتها منك قبـل اليوم ، فقلت : خدعتني عنك الناس بعد ما شددت راحلتي اليك ، وكنت رجلا احب الشراب وخفتك عليه ان تفرق بيني وبينه ، فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا اذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب ، وبمـاء الثغر المنضود عن مـاء العنقود ، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب ، فسألت عنه فقيل لي : زهـير بن ابي سلمى ، فما كدت اصدق انه القائل :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش　　ثمانـين حـولا لا أبالـك يسأم

فقلت له : بم غفر الله لك ؟ فقال : كنت في جاهليتي أترقب مبعث

---

(١) المدخل : مصدر دخل ، كالدخول .

محمد ، وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت ؛ فاوصيت به ابني كعباً وبجيراً وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله مافي نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب او يقدم فينقم

والى جانب زهير ، عبيد بن الأبرص ، فسألته عن مصير أمره ؟ فقال : كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم الى النعيم .

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر من النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعاً فما افقنا الا على حفيف رف [1] من إوز الجنة نزل بنا ،ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج ، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الارض الفضاء ، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم ، وقلنا : لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه ، لقرع السن على ان باع دينه بسرور محدود وانس معدود ، ودف وعود .

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فتمنيت ان أطلع فارى المعذبين كما رأيت المنعمين ؛ فالهمت الإذن ؛ فاشرت لصاحبي فقام وقمت ، وركبنا فرسينا فطارتا بنا

(١) الرف : القطيع من الطير .

حتى انتهيا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زري الهيئة ، فاشرفنا عليه فقال : لا تعجبوا لشاني ، أنا الحطيئة .. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة .. ولما ادركت كوخاً ولا حجراً ، فتركناه .. وطلعنا ، فما رآنا اهل النار حتى ضجوا بصوت واحد « ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله » فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون[1] في السلاسل والاغلال ويقولون : « ربنا ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فيهتف بهم هاتف « او لم نعمركم ؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هي الخنساء ، تطلع مثلنا فترى رجلا كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار . فتمتعض وتقول : يا صخرة .. هذا تأويل قولي فيك من قبل :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من امثال أمرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارا بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار ، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك :

---

(١) يقال : بات الصبيان يتضاغون من الجوع ، أي : يتضورون منه .

إبليس افضـل من أبيـكم آدم فتبينـوا يـا معشر الأشرار
النـار عنصره وآدم طينـة والطـين لا يسمو سمو النـار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع .. واذا إبليس يهتف بنـا : يا اهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم ادخل النار بسببه حتى اخذت معي اكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلا يهنأ كثيراً بمصيري ، فقلنا : قبحه الله ، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا همّ بعـد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام .. فلقيناه .. فبلغناه الرسالة ، فقال: وارحمتاه له ، مـا كان بينه وبـين الإيمان الا القليـل .. فارداه الحسد فكان من المهلكين .. فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير .. وحور وولدان ، كأنهم الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

●

عبرة الدهر

بـني فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصراً فخما يتلألأ في تلـك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنـير في البقعة الزرقاء .. ويطاول بشرفاته الشماء افلاك السماء ، كانه نسر محلق في الفضاء ، او قرط معلق في أذن الجوزاء ، وكان شرفاته آذان تفضي اليها النجوم بالاسرار ، وطاقاته ابراج تنتقل فيها الشموس والاقمار .

شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور [1]

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة [2] لرسام الا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته واركانه حتى ليخيل الى السالك بين ابهائه [3] وحجراته ، ومحاربيه وعرصاته [4] انه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء ،

(١) الكلس : الصاروج يبنى به .
(٢) ليقة الدواة : صوفتها ، ويتخذها أيضاً لجمع أخلاطه فيها .
(٣) الأبهاء ، جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .
(٤) المحراب هنا : صدر البيت ، والعرصات ، جمع عرصة : وهي ساحة الدار .

والانوار البيضاء ،الى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء، والنمور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الاسود ، الى غاب تصيد فيه الاسود الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته ، وأوسع باحاته : صهريجاً من المرمر مستديراً يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعداً كانه سيف مجرد ، او سهم مسدد ، فيخيل الى الرائي ان الارض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضب . وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات ، واغصان ، صنوان وغير صنوان ، اذا رنحتها نسائم الاسحار .. رقصت فوق بساط الأزهار ، وتحت ظلال الأثمار ، فغنت على رقصها الاطيار ، غناء الاغاريد لا غناء الأوتار ، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته (١) ما شاء الله ان يدخر من نضائد (٢) ومقاعد ، ووسائد ومساند ، وفرش ، وعرش ، وكلل (٣) وحجل (٤) ، وتماثيل وتهاويل (٥) وصحاف من ذهب ، كاللهب ، واكواب من بلور ، كالنور ، واقفاص للحمائم والنسور ،ومقاصير للسباع والنمور ،وعربات وسيارات ،وجياد صافنات،ووصائف وولائد ،تحيط بالمجالس والموائد .. إحاطة القلائد .. بأعناق الخرائد .. وخدم حسان .. تنتقل في الغرف والقيعان .. تنقل الولدان في غرف الجنان .

(١) بلهنية العيش : رخاءه : (٢) النضائد : جمع نضيدة ، وهي الوسادة .
(٣) جمع (كلة) بالكسر : وهي الستر الرقيق .
(٤) جمع (حجلة) بفتحات : وهي ستر العروش في جوف البيت .
(٥) التهاويل : النقوش والصور ؛ لأنها تهول من ينظر إليها .

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية[1] الإهاب ، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير امامه غير خادمه « بلال » ، وهو خصي اسود من ذوي الاسنان ، رباه صغيراً وكفله كبيراً ، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء ، فأشار اليه إشارة الواله المتلهف ان يأتيه بجرعة ماء ، فجاء بها ، فتساند على نفسه حتى شرب ، وكان الماء قد حل عقدة لسانه ، فسأله : في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال ؟ فأجابه : نحن في الهزيع الاخير يا سيدي ، فقال : ألم تعد سيدتك الى الآن ؟ قال : لا ، فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : انها تعلم أني مريض ، وأني في حاجة الى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه[2] عني بعض ما اعالجه ، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي واقوم عليّ منها ، واين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه ؟ اين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها واصائلها ؟ اين النعيم الذي كنت اقلبها في اعطافه والعيش الذي كنت ارشفها كؤوسه؟ أإن علمت أني اصبحت بين حياة لا ارجوها، وموت لا اجد السبيل اليه برمت[3] بي واستثقلت ظلي واستبطأت اجلي واستطالت ضجعتي ، فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور ، آه من العيش ما اطوله ، وآه من الموت ما ابعده !

(١) الغداف : الغراب الأسود ؛ وليلة غدافية شبيهة به .
(٢) رفه عنه : نفس عنه وخفف . (٣) برم به : سئمه وضجر منه .

مازال يحدث نفسه بمثل هذه الاحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت اعصابه . فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كاس الموت جرعاً مريرة ، بيد انه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها ، فسأل الخادم : ألا تعلم اين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها عنك ، فان لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه ، قال : ما عرفت قبل اليوم ان بينها وبين احد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل ؟ وهل اعياها ان تجد من يقوم لها بذلك ، فهي تتولاه بنفسها ؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها اليه سنة كاملة ! قال : ان بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً ان يؤدي ما عليه من الدين اقساطاً في كل ليلة قسط ، على ان تتناوله بيدها وان تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي ، قال : ما سمعت في حياتي باغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك ، ومن هو غريمها ؟ قال : انت يا سيدي . فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه [١] وقال : إني أكاد اجن لغرابة ما اسمع ، واحسب انك هاذ فيما تقول او هازىء . فدنا منه الخادم وقال : والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكاس تشربها ،

---

(١) المشدوه : المدهوش .

وملاعب تجرر فيها أذيالك،ومراقص تهتك فيها اموالك ،تاركاً زوجتك في هذه الغرفة علـى هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة ، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً اليـك ووجداً عليك ، فـلا تعود اليهـا الا اذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح ، انك سلبتها تلـك الليالي السابقة فاصبحت غريمها فيها ، فهي تستردها منكاليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا غريمها ؛ألا تذكر انك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هـذا في حسرتك هذه ، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب ؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه ، ويأبى الا ان يأخذه عيناً بعين ونقداً بنقد ، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعـه في زوجتـه ، ويقض[1] مضجعك كما تقض مضجعه ، وانا اعيذك بعدلك وإنصافك انـ تكون من لواة الدين ، أو تكون من الظالمين .

قال حسبك يا بلال ، فقد بلغت مني ، وان لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي ، فادع لي ولدي ، قال : لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن ، قال : لا اذكر أني بعثته في وجه ما ، واين ذهب ، قال : ذهب الى الحانة الـتي يختلف اليهـا ، ولن يرجع منهـا حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً اليـك ان تحول بينه وبين خلطـاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ، فكنت تعرض عني إعراض من يرى انـ تدليل الولد

---

(١) أقض مضجعه : جعله خشناً .

وترفيهه[1] وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ؛ كنت اسالك ان تعلمه العلم وان تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة ، فكنت ترى ان الذي يحتاج الى العلم إنما هو الذي يرتزق منه . وان ولدك عن ذلك من الأغنياء ، فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فانت الذي ارسلته الى الحانة ، وانت الذي أبقيته فيها الى مثل هذه الساعة من الليل ، وانت الذي ابعدته عن فراشك احوج ما كنت اليه .

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، واذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الشكلى فقدت واحدها ، فقال السيد : هات يدك يا بلال واحملني الى جوار النافذة لأروّح عن نفسي بعض ما ألم بها ، او أودع الى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمد على يده حتى وصل الى النافذة : فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال اثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفين ؛ لا يتعاتبان ولا يتشاحان[2] ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً ؛ رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً متسلسلاً وكأنهما يحاولان ان يخرجا من إهابهما[3] مرحاً ونشاطاً ؛ رآهما راضيين

(١) رفهه : جعله مرفهاً ، أي لين العيش .
(٢) من المشاحة . وهي المخاصمة والمجادلة .
(٣) الإهاب : الجلد .

بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة [1] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ؛ سمعهما يتحدثان فاصغى إليهما فاذا البستاني يقول لزوجه : والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخرثيه [2] ؛ على ان تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والاحزان . فقالت : لا احسب ان سيدنا ينجو من خطر هذا المرض ، فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولا ، قال : قد علمت ان الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه واضمر اليأس منه . ولا عجب في ذلك ، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها : قالت : ما أشقاه ، أكانت نفسه عدوة اليه فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال : ما كان عدواً لنفسه ، ولا كانت نفسه عدوة اليه ، ولكنه كان رجلا جاهلاً مغروراً ، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد اخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه ؛ قالت : أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ؟ قال : أعلم انه سيكون لولده ؛ قالت : ولكنني أعلم انه سيكون لفلان ، قال : ان فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت : إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته .

---

(١) جشونة المطعم : خشونته . (٢) الخرثي : أثاث البيت .

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً ، وسقط عن كرسيه وهو يقول : اشهد أني من الاشقياء . وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم .

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك ترباً من اترابها وتغمزها بطرفها ان قد حان حينه ودنا اجله ، ورأى صديقه او ولي عهده يامر في القصر وينهي ، ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ، ويعد عدته للانتقال من القصر الى القبر ، وهنا سمع كان هاتفاً يهتف به من السماء ويقول : أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو احسنت اختيار صديقك ما خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك .. فاغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله » .

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا　　يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا　　وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها ، والاجسام ارواحها، لست احمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك ، ولا انظر اليك بالعين التي نظر بها اليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك ، لأني اعتقد ان لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من ان انصفك ، وان كنت لا استطيع ان انفعك .

شريكك في الجريمة أبوك ، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيراً ما كان يبخبخ[1] لك اذا رآك هجمت على تربك وضربته ، ويصفق لك اذا رأى انك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ، او اختطاف لقمة من يده ، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي انت معلق به اليوم ، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات ، ويصعد الزفرات ، ولو عرف انها جريمته ، وانها غرس يمينه

(١) يخبخ : قال له « بخ بخ » .

لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على ان لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك[1] في يده .

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي اغراك بها ، مهد لك السبيل اليها ، فقد كان يسميك شجاعاً اذا قتلت ، وذكياً فطناً اذا سرقت ، وعالماً اذا احتلت ، وعاقلا اذا خدعت ، وكان يهابك هيبته للفاتحين ، ويجلك إجلاله للفاضلين ، وكثيراً ما كنت تحب ان ترى وجهك في مرآته وجهاً ابيض ناصعاً ، فتتمنى ان لو دام لك هذا الجمال ؛ ولو انه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء ، وهنالك ربما وددت يجدع الانف لو طواك بطن الارض عنها وحالت المنية بينك وبينها .

شريكك في الجريمة حكومتك ؛ لأنها كانت تعلم ان الجريمة هي الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهي اليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ؛ ولو انها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت الى ما اليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع ان تعلمك وتهذب نفسك ، وان تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير ، وان تحول بينك وبين مخالطة الاشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الارض ومخارمها .. وان تعديك[2] على قتيلك قبل ان يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك .. وان تحسن تأديبك في الصغيرة قبل ان تصل الى الكبيرة .. ولكنها اغفلت أمرك

(١) الجامعة : الغل .   (٢) أعدى الأمير فلاناً على فلان ، اذا نصره وأعانه عليه .

فنامت عنك نوماً طويلاً .. حتى اذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول .. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة .. فاستصرخت جندهـا ، واستنصرت قوتهـا واعدت جذعهـا وجلادها ، وكان كل ما فعلت انها اعدمتك حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمـة .. وأقسم لو كنت قاضيـاً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا استطيع ان انفعك .

فيا أيها القتيل المظلوم : رحمة الله عليك .

★

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء .

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق ، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر .. وسمعت بالكذب .. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب .. وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم .. وإجماعهم ان الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذي تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة .. والصفات الكريمة .. وانه ما تمسك به متمسك الا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله .. وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في ان ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء ، وعيشي من الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب ، وان ما كنت أتخيله قبل اليوم من ان هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب

من ضروب الوهم الباطـل .. ونزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي الا اكذب مـا حييت ، واعددت لذلك القسم العظيم عدتـه من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي الى الله تعالى وسألته ان يمدني بمعونته ونصره .

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعـد ذلك العهد ، ومـا رأيته من آثارها ونتائجها .

الموقف الأول : جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم الا صدقتـه القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا استطيـع ان أعد نفسي رابحاً اذا تجاوزت عن بعضه .. فيأبى الا الحطيطة [1] فآباها عليه ، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاماً لقدره ،وما هو الا الربح الذي اعتدت ان آخذه منه في مثل تلك الصفقة، الا أنني كنت اكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح ، فلمـا صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي ، ولم أزل عـلى هـذه الحال حتى أظلـني الليل ، ولم يفتح الله عـليّ بقوت يومي ، ومـا هي الا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمـع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

الموقف الثـاني : جلست في مجلس يتصدره شيـخ من تجـار العقول الضيقـة المعروفين بمشايـخ الطرق .. وقـد حف بـه جماعـة من عبدته وسدنة [2] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريبـاً يذهب

(١) الحطيطة : ما يحط من الثمن :
(٢) السادان : خادم الهيكل او خادم الكعبة والمراد به الحاجب ، والجمع : سدنة .

فيه الى أنه العقود عن العمل ، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه ، واعراض عن كل سعي يؤدي الى أية غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، او قرأها في كتابه ، واكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[1]. فقلت له ، وقد أخذ الغيظ من نفسي ماخذه: يا شيخ : أردت ان تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمد الى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل ، ألم تر ان الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد ان أمرها بالغدو ، وهي التي ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ،فكيف لا يامر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تفني مطالبه ، ولا تنتهي رغباته ؟

أيها القوم ، إنكم تقولون بالسنتكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم الى الكسل ، وأردتم ان تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلا ،وما هو الا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه : ان أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي ، فتالبوا عليّ تالبهم على قصاع الثريد ، وأوسعوني لطماً وصفعاً ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت او كدت ، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة الا رموني

---

(١) الخماص جمع خميص ، وهو ضامر البطن ، والبطان جمع بطين ، وهو ممتلىء البطن .

بالنظر الشزر ، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون بـه من الشيطان الرجيم .

الموقف الثـالث : لا أكتمك يـا سيدي ، أني كنت أبغض زوجـتي بغضاً يتصدع له القلب ، غير أني كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورة لها وإبقاء على مـا تحتويه يدي من صبابة مال كانت لها ، فرأيت ان ذلك اكذب الكذب وأقبحه ، فآليت على نفسي ألا اسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم مـا بيني وبينها ، فمـا هي الا عشية او ضحاهـا ، حتى وهنت تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق .

الموقف الرابع : حضرت مجتمعاً يضم بـين حاشيته جماعة من الفضولين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون الى الحديث عن الناس وتتبـع عثراتهم ، ويحاولون ان ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا في أطواء[1] سرائرهم ؛ ويغالون في ذلك مغالاة الكيمائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بالسنتهم رجلا عظيماً من اصحاب الآراء السياسية لا أعتقد ان بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، او وقف المواقف المشهورة وقوفه ؛ او لاقى في ذلـك السبيـل من صدمات الدهر وضربات الايام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً ، فوالله لان تقع السماء على الارض أحب اليّ من ان يتهم البريء او يجازي المحسن سوءاً

---

(١) أطواء الثوب : طرائقه ومكاسر طيه .

على إحسانه ، سمعت ما لم املك نفسي معـه ، فقلت يا قوم ، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً [١] ثم لا تزالون عبيد الاوهام ، أسرى الخيالات ، سراعاً الى كل داع ، سعادة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم ، إنكم بعملكم هـذا تزهدون المحسن في إحسانه ؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم ؛ وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم ، ان نراكم طعمة كل آكل ؛ ولعبة كل لاعب ، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات اطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم واخلاصكم ، والثاني بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فارادوا شراً بي ! فما خلصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم اين مكانها من عنقي !

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً [٢] كبيراً كنت ذاهباً الى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض عليّ ان يسمعني قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد ان كاشفته بعذري فابى ، فانتحيت به ناحية من الطريق فانشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً ، وأنا اشعر كانما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت

(١) يريد ان تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف .
(٢) الطومار : الصحيفة .

منها أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظر في وجهي وحدق في عيني ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكاس فيستمر في شانه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً ، ثم وقف وقال : هذا هو القسم الاول من اقسام القصيدة ، فقلت ؛ وكم عدد أقسامها يرحمك الله ؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها ،قلت: أتأذن لي ان اقول لك يا سيدي ان شعرك قبيح ، واقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الاجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي الا لأجله ..فتلقاني بضربة بجمع يده [1] في صدري ، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها ـ يعلم الله ـ الا ان اصيب مركز الشعر من مخه فافسده عليه فسقط مغشياً عليه . وسقطت القصيدة من يده فاسرعت اليها ومزقتها ، وأرحت نفسي منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها ، وكان الشرطي قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المخفر ثم الى السجن حيث اكتب اليك كتابي هذا .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري ، وأنر ظلمة نفسي ، فقد اشكل عليّ الأمر ، واصبت أسوأ الناس بالصدق ظناً ، بعد ما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي الا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي ، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة اخرى ؛ ذلك الى ما اقاسيه اليوم في هذا السجن من انواع الآلام ، وصنوف الاقسام .

* * *

(١) جمع اليد : هيئتها حين تقبضها .

أيها السجين :

كتبت إليّ ـ مسح الله ما بك ، والهمت صواب الرأي في حاليك ـ تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك ان تجعل للياس هذا السبيل الى نفسك ، وان يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ؛ فما انت باول صادق في الارض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شراً ، وكابد ضراً .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال .

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش او كسب المال ، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال .

ان الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، او يرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها ؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأي ان يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به اخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها ، وان ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين اشقياء ،وبين الأرذلين كثيراً من ذوى النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل ان يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع ان ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك

الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شانها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء او أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده اسباب العيش ويملك ينابيعه : سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش ، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حفت بالمكاره ، فان كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما ان الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما ان لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد منالها الا على أيدي الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون .

أتريد أيها الرجل ان تسمى صادقاً ، وان تنال أشرف لقب يستطيع ان يناله بشر ، وان يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون ان تبذل في سبيله شيئاً من مالك او راحتك ؟

إنك ان أردت ذلك او قدرته في نفسك ، تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطىء النعال .

أيحزنك انصراف الاغنياء عن حانوتك او اتهامك بالزندقة والإلحاد او المروق والخيانة ، وترى ان ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وانت تعلم ان الفاضلين قد بذلوا من قبلك اكثر مما بذلت ، في سبيل إحراز ما احرزت ، فما ندموا ولا حزنوا ؟

أيها السجين الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لـك البغض الذي تحتمـله ، وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من اولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء .

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن بـه ، وكن احرص الناس عـلى ولائه ومودته ، وإياك ان يخدعك عنـه خادع ، واصبر قليـلا يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجـد في نفسك من اللذة والغبطة مـا لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وارباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا اليه سبيلا .

●

النظامون

مـا لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعـة واحـدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهـذه الصواعق الـتي يمطرونها علينـا كل يوم من سمـاء الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولا ابيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ، ففزعنا والقينا الصحيفة كما ألقاهـا الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويـل والتفخـيم ، فـاكتب بـه الى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : ان علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى ، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر اكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من ان يقفوا في تعريف الشعر عند هذا

القـدر مـا دام لا يتعلق لهم غرض منـه بغـير اوزانـه وقوافيه وعلله وزحافاته .

لا تظنوا ان الشعر كما تظنون ، والا لاستطاع كل قارىء بـل كل ناطق ان يكون شاعراً ؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيـع عليها من اخصر طريق .

أيها القوم : مـا الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبـدإ نشأته ولا تزال كامنة فيـه كمون النـار في الزند حتى اذا شدا [1] فاضت على اسلات أقلامه [2] كما تفيض الكهرباء على اسلاكها ، فمن احس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم انه شاعر ، او لا فليكفف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير ، وليصرفها الى معـاناة مـا يلائم طبعه ويناسب فطرتـه من اعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يـد الفلاح ، والقدوم في يـد النجار ، والمسبر في يد الحداد : اشرف وانفع من القلم في يد النظام .

فان غم عليكم الأمر ، واعجزكم ان تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم ، فاعرضوا انفسكم على من يرشدكم اليكم ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .

---

(١) شدا : أخذ طرفا من الأدب والعلم .
(٢) الأسلات جمع أسلة : وهي نبات رقيق الغصن .

الحرية

استيقظت فجر يوم من الايام على صوت هرة تموء[1] بجانب فراشي وتتمسح بي ، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرابني أمرها ، وأهمني همها وقلت : لعلها جائعة ، فنهضت، واحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه . فقلت : لعلها ظمآنة ، فارشدتها الى الماء فلم تحفل به وأنشات تنظر اليّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والاحزان ، فاثر في نفسي منظرها تاثيراً شديداً ، حتى تمنيت ان لو كنت سليمان افهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وافرج كربتها ، وكان باب الغرفة مرتجاً ، فرأيت انها تطيل النظر اليه وتلتصق بي كلما رأتني اتجه نحوه ، فادركت غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب ، فاسرعت بفتحه فما وتسع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم الى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها ، فعدت الى

(١) المواء : صوت الهرة .

فراشي واسلمت رأسي الى يدي ، وانشأت افكر في أمر هذه الهرة ، واعجب لشأنها واقول : ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها ؟ اجل . انها تفهم معنى الحرية حق الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الا من اجلها ، وما كان تضرّعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعياً وراء بلوغها .

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص او يتلمس السبيل الى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه واسقامه .

من اصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها : ان يكون الحيوان الاعجم اوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ؟ وهل يجمل به ان يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل ان يصبح ناطقاً مدركاً ؟

يحلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، ويهيم الوحش في الاودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد الى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل واغلالا ، وسماها تارة

ناموساً وأخرى قانوناً ، ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلة المخيفة ، وتركه قلقاً حذراً ، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله ، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما اكثر جهله ! وويح له ما اشد حمقه ؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب اكبر من العذاب الذي يعالجه ؟ او سجن اضيق من السجن الذي هو فيه ؟

ليست جناية المستبد على اسيره انه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه انه افسد عليه وجدانه ، فاصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وادرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً لهمن حياة لا يرى فيها شعاعاً من اشعة الحرية، ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدإ خلقه يمشي عرياناً ، او يلبس لباساً واسعاً يشبه ان يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، او هبة النكباء ، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل ، وكفنوه كما يكفنون الموتى ، وقالوا له : هكذا نظام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا

بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفاً من المرض او الموت ، وأبوا ان يأكل او يشرب الا كما يريد الطبيب ، وان يتكلم او يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني او الحاكم السياسي ، وان يقوم او يقعد او يمشي او يقف او يتحرك او يسكن ، الا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات .

لا سبيل الى السعادة في الحياة ، الا اذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر الا ادب النفس .

الحرية شمس يجب ان تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل اولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان اشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في ايدي الاطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، او طارئاً غريباً ؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق باغصان الاشجار .

ان الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لاحد عنده .

عبرة الهجرة

ان في اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض او السماء ، او الماء او الهواء .

ان ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وايثاره ، وصدقه واخلاصه ،اكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشي الشجر ،ولين الحجر ؛وذلك لانه ما كان يريبهم في الاولى ما كان يريبهم في الاخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة ، وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده ، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الاثر الذي تركته ، ذلك هو معنى قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهب ان يدعو الى التوحيد

قوماً مشركين يعلم انهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لاعراضهم ، ويحبون آلهتهم حبهم لابنائهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش ـ اشد ما كانوا هزءاً به وسخرية ـ : « يا معشر قريش ، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما انتم له كارهون » .

كان حليما سمح الاخلاق فلم يزعجه ان كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون[١] منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى[٢] الجزور ، وهو في صلاته ، بل كان يقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبي دعوته الا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس الى قلبه ، فكان يقول « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله الله او أهلك فيه ما تركته » .

وما زال هذا شانه حتى علم ان مكة لن تكون مبعث الدعوة ، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر الى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون الى الحركة ، ومن طور الخفاء الى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها اكبر مظهر من مظاهره،

(١) يقال شعث فلان من فلان : تنقصه ،

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان .

وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها اجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناء كثيراً ومشقة عظمى ، فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به ، بل مخافة ان يجد في دار هجرته من الاعوان والانصار ما لم يجد بينهم ، كأنما يشعرون بأنه طالب حق ، وان طالب الحق لا بد ان يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، عبثاً بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ، ويتسربان في الاغوار والكهوف ، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما ، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق .

ان حياة النبي صلى الله عليه وسلم اعظم مثال يجب ان يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلي بأكرم الخصال ، واحسن مدرسة يجب ان يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل .

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الافرنج ،فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجدّ والعمل ،والبر والثبات والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقي ، والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحسبنا بها وكفى .

الانصاف

اذا كان لك صديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت منه على مـا لم يحـل في نظرك ، ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ، أو كان لك عدو تذم طباعه ، وتنقم منه شئونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك عـلى الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها ، عدك الناس متلوناً او مخادعاً او ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالأمس ، وتـذم في ساعة من تمـدح في أخرى ، وقالوا : إنـك تظهر ما لا تضمر ، وتخفي غـير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لأعجبوا بـك وبصدقك ، ولأكبروا سلامـة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسموا مـا بـدا لهم منك اعتدالا لا نفاقـاً ، وإنصافاً لا خداعاً ، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤيـة عيوبـه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف ، فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لاصلاح ما فسد من الاولى ، واعوج من الاخرى .

إن صديقك الذي يبسم لـك في حـالي رضـاك وغضبك ، وحلمـك وجهلـك ، وصوابك وسقطـك ، ليس ممن يغتبط بمودتـه ، او يوثـق بصداقته ، لانه لا يصلح ان يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك ، وتصدقك عن زينـك وشينك وحـلوك ومرك ، وهو إمـا جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد ان ترى نفسه ، لا ما لا يجب ان تراه ؛ وإما منافق مخادع قـد عـلم ان هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول ، فجاراك فيما تريد ، ليبلغ منك ما يريد .

فها انت ذا ترى ان الناس يعكسون القضايا ، ويقبلون الحقائق ، فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ؛ ولكن الناس لا يعلمون .

المدنية الغربية

ساودّع في هذه النظرة الخيال والشعر ، وداع من يعلم ان الامر أعظم شاناً وأجل خطراً من ان يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله .

ان في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها الى أخلافنا من بعدنا ، كما أداها الينا أسلافنا سالمة غير ماروضة [1] ولا متآكلة ، فان فعلنا فذاك ، أولا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء .

الامة المصرية أمة مسلمة شرقية ،فيجب ان يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها ، وذهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبدل الارض غير الارض والسموات .

---

(١) الخشب المأروض : الذي أكلته الأرضة

ان خطوة واحدة يخطوها المصري الى الغرب تدني اليه أجله ، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم ان يكون من المدنية الغربية ان داناها الا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسك خشاره ويفلت لبابه ، او الراووق[1] من الخمر ، يحتفظ بعقاره ، ويستهين برحيقه ؛ فخير له ان يتجنبها جهده ، وان يفر منها فرار السليم من الاجرب .

يريد المصري ان يقلد الغربي في نشاطه وخفته ، فلا ينشط الا في غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فاذا جد الجد وأراد نفسه على ان يعمل عملاً من الاعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد ، دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء والكرى بين أهداب الجفون .

يريد ان يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما الا ان الاولى التأنث في الحركات ، الثانية الاختلاف الى مواطن الفسق ومخابىء الفجور .

يريد ان يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها ، وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيل له : هذه المقدمات ، فاين النتائج ؟ أسلم رجليه الى الرياح الاربع واستن في فراره استنان المهر الأرن[2] فاذا سمع صفير الصافر مات وجلاً ، واذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد ان يقلده في السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب

(١) الراووق : المصفاة .   (٢) الأرن : النشيط .

الارض الميتة فصل الربيع ، حتى اذا حان حينه طار الى مدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور ، وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الاول ما يقوده الى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني اكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ،حادثة عودته موشاة بجمل الاجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والاعظام .

يريد ان يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد ان يقلده في الاحسان والبر ، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب .

يريد ان يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من عملها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ؛ ومن تربيتها التفنن في الازياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة

لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحى بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ، ويجارونهم في أداء صور العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ،فينتحر كما ينتحر الغربي ، ويلحد كما يلحد ، ويستهتر في الفسوق استهتاره ، ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة في اخلاقهم وطباعهم،ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها ، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك ،وان دعوناهم الى مكرمة ، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة ؛ وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ؛ وان دعوناهم الى حرب ، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعيد بن أبي وقاص وموسى بن نصير ، وصلاح الدين ؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ؛ وفي وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية ، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز

والسبعين .

ان عاراً على التاريخ المصري ان يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث داروين ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من ان يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم ، على ان ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً ، ولا مانع من ان ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم ، على ان ننظر اليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على ان نقلدها ونتقلدها وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد . فليعلم كتاب هذه الامة وقادتها :أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً . فلا يخدعون أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي .

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأدنيه فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل اليّ أني قد انتقلت من العالم الاول الى العالم الثاني ، ورأيت كأني بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على اعمالهم ، فالهمت أنه موقف الحشر ؛ وأنه يوم الحساب .

وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه ، فلا يجد اليها سبيلا ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ؛ علني أجد صديقاً أستأنس به في وحدتي ، وأستعين برافقته على وحشتي ، فلا أرى الا خلقاً غريباً ،

ومنظراً عجيباً ، ووجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً ، ولو لا أني أعلم ان الحساب خاص بالانسان لظننت ان الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان .

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد وجهاً يبتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ، فارقلت نحوه حتى بلغته فاذا صديقي « فلان » واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء ؛ فسألته ما فعل الله به ؟ فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي ، وها أنذا ذاهب الى ما أعدّ الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي : لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه : لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكراً ؛ ولا يخرج من حان الا الى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق الا على موعد من اللقاء ، فنظر اليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها ان الرجل قد ألم بما ضمرته في نفسي ، فذكرت ان قد كشف الغطاء في هذه الدار ، وان قد رفع الحجاب بين الناس : فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان ، نظر اليّ تلك النظرة وقال : لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب ، واعلم ان الله حاسبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى ، الا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات : ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر ، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فاهمني أمره وأزعجني ان أراه في مستقبل

أيامه بائساً معدماً ، يريق مـاء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي اليهم نعمته ، فاحتلت على ان ادخل في بيته خادماً كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً عـلى ان تدس في كيس دراهمه كل ليـلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها ، ولا يقف على سرّها ؛ وما زال هذا شاني وشانه ، لا يعـلم من اين ياتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرّق الموت بيني وبينه ، فما نفعني عمل من اعمالي مـا نفعني هذا العمل ، وما كان الاحسان وحده سبب سعادتي ؛ بل كان سببها أنه اصـاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت اليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة . فقـال : امـا الوحشة فلن أفارقك حتى ياتي دورك ، اما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شانك ، فقلت : انت من السعداء ؛ فهل تستطيـع ان تشفـع لي او تطلب لي شفاعة من ولي من الأولياء او نـبي من الأنبياء ؟ قال : لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين في الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا ؛ وما الشفاعة الا مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقرّبين ؛ فلا يشفع عنده احد الا بإذنه ، ولا ياذن بالشفاعة لأحد الا اذا كان بـين اعمـال المشفوع له او في اعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى اجل من العبث وأرفع من المحاباة .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة

العذاب تحيط برجل يساق الى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه،وهو يصرخ ويقول: « أهلكتني يا أبا حنيفة » فسالت صاحبي : ما ذنب الرجل ؟ فقال : انه كان في حياته يتخذ في اعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل ان يحول عليه الحول ، ليتخلص من فريضة الزكاة ،ويطلق زوجته ثلاثا ، ثم ياتي بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ؛ وكان يرابى باسم الرهن ، فاذا جاءه من يريد ان يقترض منه مالاً أبى ان يقرضه الا اذا وضع في يده رهناً ، فاذا وضع يده على ضيعته ألزمه ان يستاجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح واصل المال ؛ وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، او لا يا كل رغيفاً أكله الا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد الى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها واسرارها ، ثم يرفعها الى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبله ، مستنداً على تقليد أبي حنيفة او غيره من كبار الأئمة ، وابو حنيفة ارفع قدراً وأهدى بصيرة ، من ان يتخذ هزؤاً وسخرية ، وان يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين .

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي ، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة ، قد احاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد اخذ كل منهما بطرف منها ، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه احدهما على رأسه ويقول له :« أمكر وانت في الحديد ؟» فدنوت منه وانعمت النظر في وجهه فعرفته ، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت.

ايكون هذا من اشقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الاولى ! فقال لي صاحبي : ان هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الاقطاب كان اكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة الا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس واموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون .

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا : هذا الى جنته ، وذاك الى ناره، وانا اسال عن شان كل منهم واحداً فواحداً فارى سعيداً من كنت احسبه شقياً ، وشقياً من كنت احسبه سعيداً ، فسجلت ان الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ، ويسالهم عن نياتهم ، لا عن افعالهم ، وان لا سعادة الا الصدق ، ولا شقاء الا الكذب ، وعلمت ان الله لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من الهفوات ، يلم بها صاحبها إلماماً ،ثم يندم عليها ،ورأيت ان اكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على اخيه بسفك دمه او هتك عرضه او سلب ماله، وان اضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، فلو ان امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ظلم طفلاً صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى سيئات، وما اغنى عنه نسكه من الله شيئاً .

وبينما انا احدّث نفسي بهذا الحديث ، واقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر ، اذ قال لي صاحبي : اتعرف هذين ؟ واشار الى رجلين واقفين ناحية يتناجيان : احدهما شيخ جليل ابيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ؛ فما هي الا النظرة الاولى حتى

عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم امين » فقلت لصاحبي : هل لك في ان ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران ؟ ففعلنا ، فسمعنا الاول يقول للثاني : ليتك يا قاسم اخذت برأيي واحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك ان تفاجىء المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل ان تاخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها واراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ؛ فقال له صاحبه : اني اشرت عليها ان تتعلم قبل ان تسفر ، وان لا ترفع برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء ؛ قال له : ولكن فاتك ما كنت تنبات به من انها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل ، وضعيفة لا تعبا بهذا الاستثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال : اتاذن لي يا مولاي ان اقول لك : انك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ ، وانك نصحتني بما لم تنتصح به ، انا اردت ان انصح المرأة فافسدتها كما تقول . وانت اردت ان تحيي الإسلام فقتلته ؛ انك فاجات جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما اردت ؛ وفهموا غير ما فهمت . فاصبحوا ملحدين ، بعد ان كانوا مخرفين ، وانت تعلم ان ديناً خرافياً خير من لا دين . اولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التاويل قاعدة حتى اولوا الملك والشيطان والجنة والنار ! وبينت لهم حكم العبادات واسرارها وسفهت لهم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها

جملة واحدة وقلت لهم : ان الولي اله باطل ، والله اله حق ؛ فانكروا الالوهية حقها وباطلها ؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له : ما زلت يا قاسم في اخراك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن ثار ، لا تحمل هماً ، ولا تخش شراً ، وثق ان الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، انا ما اردنا الا الخير لامتنا ، وما اردنا لها الا ما تحتمله عقولها ، فان كذبت فراستنا او اخطأ تقديرنا فذلك لان المستقبل بيد الله .

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبي : هل لك ان تريني الميزان والصراط والجنة والنار ، فاني ما زلت في شوق الى رؤية تلك الاشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في « خريطة الآخرة » التي رسمها الشعراني في بعض كتبه ، قال : اما الميزان فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، واما الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته او شقائه ، واما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما .

وبينا انا كذلك اذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت ان قد جاء دوري ، فادركني من الهول والرعب ما ايقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت انها خيالات واوهام ، او اضغاث احلام ، وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين .

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم امام المرآة،فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي [1] فارتعت لمرآها كانما خيل اليّ انها سيف جرده القضاء على رأسي ، او علم ابيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الاجل ، او يأس قاتل عرض دون الامل ، او جذوة نار علقت باهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واتأدت في مسيرها من ان تبلغ مداها ، او من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

ايتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضاً اشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً اقرب الى الظلمة من نورك ، لقد ابغضت من اجلك كلَ بياض

---

(١) المفرق : موضع افتراق الشعر .

حتى بياض القمر ، وكل نور حتى نور البصر واحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعري ! من أي نافذة خلصت الى رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت الى فودي ؟

كيف طاب لك المقام في هذه الارض الموحشة التي لا تجدين فيها انيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم .

أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييت بأمرك ، وبعلت [1] بحملك ، واصبحت لا اعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك ، لا ينفعني معك ان انزعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين ان تعودي اليه ، ولا ينقذني منك ان اخضبك بالسواد ، لأنك لا تلبثين ان تنصلي [2] ولاني لا احب ان اجمع على نفسي بين مصيبتين : مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل اليّ وانا انظر اليك انك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث ، وانك تهمسين في آذان اخواتك السود اللواتي يجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردي بردائك ، وكاني بك .. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل [3] والدارع بالحاسر [4] ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم ..

---

(١) بعل الشيء : برم به واستثقله .   (٢) نصل الشعر : خرج من الخضاب .

(٣) الرامح : حامل الرمح . والنابل : ذو النبل .

(٤) الدارع : لابس الدرع ، والحاسر خلافه .

ان كان هذا مصيرك فسيكون شانك شان ذلك السائح الابيض، الذي يـنزل بامـة الزنج مستكشفاً ، فيصبح مستعمراً ، ويدخل ارضها سلمـاً ويفارقها حرباً ، فاسال الله لرأسي العافية منك ، ولأمـة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاهما مشؤوم الطلعـة في مقامـه وارتحاله ، وكـوكب النحس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما انت وما شانك ؟ وما وفودك اليّ ؟ ومـا مكانك مني ؟ وما مقامك عندي ؟ ان كنت ضيفاً ، فاين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمله وتودده ، وان كنت نذيراً ، فانا اعلم من الموت وشأنه ما لا احتاج معـه الى نذير ، فـلم يبـق الا تكوني اوقح الخلائق وجهـاً ؛ واصلبها خداً ، وانك قـد نزلت من السماجة والفضول مـنزلة لا أرى لك فيها شبيهاً الا تلك الحية التي تلج كل جحر من اجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها .

أيبلـغ بـك الشان وانت الـتي يضربون الامثال بدقتها وخفائها ، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها ، فلا يكادون يعرفون السبيـل الى مدارجها ومكانها ان تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد ؟

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك ان تتجاوزي عما اسات به اليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلـك ؟ فلقـد رجعت الى نفسي فعلمت انـك اكرم الخلائق عندي ، واعظمها شأناً في عيني .

هنيئاً لك رأسي مصيفاً ومرتعاً ،وهنيئاً لك فودي مراداً ومسرحاً،

فأنت رسول الموت الذي ما زلت اطلبه منذ عرفته فلا اجد له سبيلاً ، ولا اعرف له رسولاً .

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه ، ولم يـذق حلاوة الحيـاة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً ، فياسى عليها عوداً يابساً .

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم انك وحي الأمل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة .. الا لحظات قليلة يكدرهـا مـا يحيط بهـا من الهموم والأحزان .. كما تكـدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة .

أليس كل مـا أعدّه عليك من الذنوب انـك طليعة الموت ، والموت هو الذي يخلصني من منظر هـذا العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا اغمض عيـني فيـه الا لأفتحها عـلى صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون اخـاه ، وعشير يحـدد أنيابه لمضـغ عشيره ، وغـني يضن على الفقير بفتات مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بـين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقـداً عـلى غـير طائـل ، ونفوس تتفانى قتلا على لون حـائل ، وظـل زائـل ، وغرض باطـل ، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها وانياب تمزقها ، وعيون حائرة في رؤوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً ممـا حولها ، وتلمع ولا تـكاد تبصر مـا امامها ، ان كان هـذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك ،

فاني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ! مرحباً بك اليوم ، ومرحباً باخواتك غداً .. ومرحباً بهـذا القضـاء المختبىء وراءك او الكامن في اطوائك ، ومرحباً بتلك الغرفة الـتي اخـلو فيهـا بربي ، وآنس بنفسي ، من حيث لا اسمع حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلا بوافدة للشيب واحدة وان تراءت بشكل غير مودود

* * *

الصياد

حدّث احد الاصدقاء قال : بينـا انا في منزلي صبيحة يوم إذ دخـل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم اساومه فيها بـل نقدته الثمن الذي أراده ، فـاخذه شاكراً متهللاً وقال : هذه هي المرة الأولى الـتي اخذت فيهـا الثمن الذي اقترحته ، احسن الله اليك كما احسنت اليّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك ؛ فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في ان تتفتح لها ابواب السماء المغلقة دوني ، وعجبت ان يهتـدي شيـخ عامي الى معرفة حقيقـة لا يعرفها الا القليـل من الخاصة ، وهي ان للسعادة النفسية شانـاً غير شان السعادة المالية ، فقلت له : يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال ؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السعادة سعادة المال لكنت انا اشقى الناس ، لأنني افقر الناس ، قلت : هل تعد نفسك سعيداً ؟ قال : نعم ، لأنني قانـع برزقي مغتبط بعيشي ، لا احزن عـلى فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع ، فمن أي باب يخلص الشقاء

الى قلبي ؟ قلت : أيها الرجل ، اين يذهب بك ؟ ما أرى الا انك شيخ قد اختلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيداً وانت حاف غير منتعل ، وعار الا قليلا من الأسمال البالية ، والاطمار السحيقة ؟ قال : ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فانا سعيد ، لأني لا اجد في رثاثة ملبسي ، ولا في خشونة عيشي ، ما يولد لي ألماً ، او يسبب لي هماً ، وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فانا لا افهمها الا كذلك ؛ قلت : ألا يحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخيولهم ، ومطعمهم ومشربهم ؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ؟ قال : إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أني لا اجد اصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها اكثر مما نلته بفقدانها .

هذه المطاعم التي تذكرها ان كان الغرض منها الامتلاء فانا لا اذكر أني بت ليلة في حياتي جائعاً ، وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فانا لا آكل الا اذا جعت ، فاجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب ان في شهوات الطعام ما يفضلها ، أما القصور فإن لدي كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فاقرع السن على ان لم يكن قصراً كبيراً ، وان كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي ان أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر واذهب بها الى شاطىء النهر فارى منظر السماء والماء ، والاشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هي الا لفتة الجيد ان يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كانه مجن من ذهب او

قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الافق ميلا او ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، او درّه المتحدر ، فاذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ، ملك عليّ شعوري ووجداني ، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة ، حتى أحب ان اعود الى نفسي الى يوم النشور ، ولا ازال هكذا هائماً في أحلامي حتى اشعر بجذبة قوية في يدي ، فانتبه فاذا السمك في الشبكة يضطرب ، وما اضطرابه الا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح ، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً ، فلا اجد له شبيهاً في حالتيه الا الفقراء والاغنياء . يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا ان تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق ، ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا اذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ، ثم يطيل التفكير : هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ؟ حتى اذا استوثق لنفسه بذلك خرج الى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات ، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ، ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته ، مخافة ان يغفل عن اشارات السلام ، ومظاهر الإكرام .

فاذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الاسواق او على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهار عدت الى منزلي ، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي ، فاذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة ، لا أحتاج معها الى ديباج وحرير او مهد وثير ، فهل أستطيع ان أعد نفسي شقياً ، وأنا أروح الناس بالاً ، وان كنت أقلهم مالاً ؟

لا فرق بيني وبين الغني ، إلا ان الناس لا ينهضون إجلالاً لي اذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي اذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم ان قاموا او قعدوا ، او طاروا في الهواء ، او غاصوا في أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر اليهم الا بالعين التي ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة .

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم الا تلك العلاقة بيني وبين ربي فانا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده ، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لاحد من الناس ، ولقد اخذ هذا اليقين مكانه من قلبي ، حتى لو طلع على الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسي مكاناً اكثر مما يشغله ملك التمثيل .

ولقد كان هذا اليقين اكبر سبب في عزائي ، وراحة نفسي من

الهموم والاحزان ، فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون الا انتزعني من بين مخالبها وهوّنها عليّ ، حتى لا أكاد اشعر بوقعها ، وكيف أتألم لمصاب أنا اعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه ، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسكوني اليه ؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ، فصغرت الدنيا في عيني ، وصغر شانها عندي حتى ما افرح بخيرها ، ولا احزن لشرها ، ولا أعول على شان من شئونها حتى شان الحياة فيها ، وأقسم ما خرجت مرة الى ضفة النهر حاملا شبكتي فوق عاتقي الا وقع الشك في نفسي : هل اعود الى منزلي حاملا او محمولاً ؟

ما العالم الا بحر زاخر ، وما الناس الا اسماكه المائجة فيه . وما ريب المنون الا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ، فكيف اغتبط بما لا املك ، او اعتمد على غير معتمد ، إذن أنا اضل الناس عقلا واضعفهم إيماناً !

قال المحدّث : فاكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار ، واعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه . وقلت له : يا شيخ ان الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها . فاستقر رأيهم على ان الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء ؟ قال : لا يا سيدي ، ان الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه ، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه ، فيطول بكاؤه وعناؤه ،

ويعتقد ان بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه ، انّ وشكا شكاة المظلوم من الظالم ؛ ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فاذا غدرت به في محبوب لديه من مال او ولد ، فاجاه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الايام علماً وتجربة وعرف ان جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وان هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها .. ان اكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما ياتي من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتالم كلما وقع نظره على محسود ؛ والحقود يتالم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتالم كلما ناجته بالإثم سريرته ؛ والظالم يتالم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه ، او حاقت به عاقبة ظلمه ؛ وكذلك شان الكاذب والنمام والمغتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل .

ومن أراد ان يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، والا فهو أشقى العالمين ؛ وان احرز ذخائر الارض وخزائن السماء .

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه الى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال : استودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك واحببتها لك ، وهي : ان يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك ..

والسلام عليك ورحمة الله .

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه ان يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيناً أسفاً على ان لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لانها لم تقدم اليه في لفافة الشهادة المدرسية ، ولو ان أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه : ان جناية المرء على نفسه اكبر إثماً عند الله واعظم جرماً من جنايته على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته ، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي الى ربه ، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه . ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الاخلاق والآداب ان العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب ان ينظر اليه طالبه من حيث ذاته ، لامن حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على القاعدة الفاسدة « والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه

على الاستقلال الذاتي وعلمه ان الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الامة او المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما اكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه ان عذاب النزع أهون من عذاب الهم .

لا يجني الطالب على نفسه ، وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه .

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة : ستكون غداً يا بني مديراً كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ، وكلما أراد ان يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صوّر له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له : اذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، أما الاستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرّع مرارة الذل ، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه . فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه « ان من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة » ،

أما المجتمع فانه يحترم الموظف الصغير ، اكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير الى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه ، كأن الكوكب لا يدور الا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ؛ فاذا رأى الناشيء ذلك اكبر الوظيفة أيما إكبار ، ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه ، او بعدها عنه ؛ فاذا وفق اليها لطم بأنفه قبة السماء . وداس بنعله هام الجوزاء ، وان يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الاحمق :

* فإما الثريا وإما الثرى *

أيها الناشيء : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمع الفاسد ، فكن احسن حالاً منهم ، واعلم ان شرف العلم اكبر من شرف المنصب . وان المنصب ما كان شريفاً الا لانه حسنة من حسنات العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر من ان تشتد في أثره ، او تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسد ارباب المناصب على مناصبهم ، فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول ، وظاهر من النعمة ، وبهرج من الابتسام ؛ ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً ، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العلم والادب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء .

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة ، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم في الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلاً الا للتناسب بين اجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلاً الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسق في ازهار الروض ما هام به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يستطيع الكاتب ان يبينها ،فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات ، وفي الرسوم غيره في الخطوط ، وفي الشئون العلمية غيره في القصائد الشعرية ، على أنه لا حاجة الى بيانه ما دامت الاذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه ، وما لا يلائمها فتنفر منه .

ان كثيراً من الناس يستحسنون الانف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرص في الجسم

الاسود ، والخال في الخد الابيض ، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه ، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان ، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي اكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري، ويضحكون لما يبكي، ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضى !

اولئك هم اصحاب الاذواق المريضة ، واولئك هم الذين تصدر عنهم افعالهم واقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة ، لانهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تالفه نفوسهم ، فيصبح غريزة من غرائزهم .

ان رأيت شاعراً يبتديء قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال ،ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه ؛ او متكلما يقتضب الاحاديث اقتضاباً ، ويهزل في موضع الجد ، ويجدّ في موضع الهزل ؛ او صحفياً يضع العنوان الضخم للخبر التافه ، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الارض ، او حاكما يضع الندى في موضع السيف ، والسيف في موضع الندى ، او ماشياً يتلوى في طريقه من رصيف الى رصيف ، كانما يرسم خطاً متعرجاً ، او لابساً في الشتاء غلالة الصيف ، وفي الصيف فروة الشتاء ، فاعلم ان ذوقه مريض ، وأنه في حاجة الى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريض الى علاج جسمه .

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى ابلاله ،

كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان رأيت من تؤمل في اصلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه ، فعلاجه ان تحفه بأنواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه الى متناسباته ومؤتلفاته ، وان استطعت ان تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل ، فانها المقومات للأذواق ، والغارسات في النفوس ملكات الجمال .

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تامن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد ، وأهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك : الرجل الكاذب .

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا الى كذب الاقوال كذب الافعال .

لا فرق بين كذب الاقوال وكذب الافعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين ان يكذب الرجل فيقول : إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فاقرضني مالا أرده إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وبين ان يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الافعال ان يخدعك

ألف مرة قبل ان يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان بـه ، فهو أس الشرور ورذيـلة الرذائل فكأنه أصـل والرذائل فروع له ، بـل هو الرذائل نفسها . وإنمـا ياتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة .

المنافق كاذب لان لسانه ينطق بغير ما في قلبه ، والمتكبر كاذب لانه يدعي لنفسه مـنزلة غـير منزلته . والفاسق كاذب لانه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه ، والنمام كاذب لانه لم يتق الله في فتنته ، فيتحرى الصدق في نميمته ، والمتملق كاذب لان ظاهره ينفعك ؛ وباطنه يلذعك .

لقد هـان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض عـلى النـاس أمره وتطرفهم بحديثه كأنـك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات .

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهـد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غـير أمـين ، وجاهـل يفشي السر ، وعالم يحرف الكـلم عن مواضعه ، وشيـخ يدعي الولاية كذباً ، وتاجر يغشُّ في سلعته ، ويحنث في إيمانه، وصحفي يتجر بعقول الاحرار ، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

غرفة الاحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، او فسقه واستهتاره ، لانني ما فكرت قط ان أتلقى عنه علوم الشريعة او دروس الاخلاق .

قضيت في صحبته عهداً طويلا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلا فتراسلنا حيناً ، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همي ان أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت الى منزله ، فحدّثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنت أني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلا .

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قلّ نصيبه من الاصدقاء ، وأقفر ربعه من الاوفياء ، وأصبح غرضاً من اغراض الايام ، لا تخطئه سهاما ولا تغبه آلامها [1] .

بينا أنا عائد الى منزلي في ليلة من ليالي السرار [2] إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم الى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، او ماوى الغيلان ، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود ، يزخر بين جبلين شامخين ، وكان أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد في جوف الليل ، ثم تلتها أختها ثم أخواتها ، فاثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين .. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى اقف أمامه وقفة المساعد ان استطعت ، او الباكي ان عجزت ، فتلمست الطريق الى ذلك المنزل حتى بلغته ، فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يفتح ، فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ، فتاملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فاذا هي في ثيابها المزقة ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : هل عندكم مريض ؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت : أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامي فتبعتها حتى

(١) أغبه الألم : جاءه حيناً بعد حين .   (٢) ليالي السرار : الليالي الأخيرة من الشهر .

وصلت الى غرفة ذات باب قصير مسنم ، فدخلتها ، فخيل اليّ أني قد انتقلت من عالم الاحياء الى عالم الاموات ، وان الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي . فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه واطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفتيه قليلا قليلا ، وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت صديقي » فشعرت كان قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً ، وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها ، وكنت أتمنى ألا أعثر بها ، وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين اضالعي دفيناً ، فسألته ما باله ؟ وما هذه الحال التي صار إليها ؟ وكان أنسه بي أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور ، فاشار اليّ أنه يحب النهوض ، فمددت يدي إليه ، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية :

منذ عشر سنين كنت اسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من ارباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور اجنحتها على مثلها حسناً وبهاء ، ورونقاً وجمالاً ، فالم بنفسي من الوجد بها ما لم استطع معه صبراً ، فما زلت بها أعالجها فتمتنع . واستنزلها فتعتذر ، وأتاتى الى قلبها بكل الوسائل فلا اصل اليه . حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها ، فسكن جماحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، وما هي الا أيام قلائل

حتى عرفت ان جنيناً يضطرب في احشائها ، فاسقط في يدي ، وطفقت أرتئي بين ان أفي لها بوعدها او اقطع حبل ودّها ، فآثرت أخراهما على أولاهما ، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً .

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ، ومد يده تحت وسادته واخرج كتاباً بالياً مصفراً ، فقرأت فيه ما ياتي :

« لو كان بي ان اكتب إليك لأجدد عهداً دارساً ، او وداً قديماً ، ما كتبت سطراً ، ولا خططت حرفاً ، لأني اعتقد ان عهداً مثل عهدك الغادر ، ووداً مثل ودك الكاذب ، يستحق ان احفل به فاذكره ، او آسف عليه فاطلب تجديده .

انك عرفت حين تركتني ان بين جنبي ناراً تضطرم ، وجنيناً يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تبال بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر الى شقاء انت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع انت مرسلها ، فهل استطيع بعد ذلك ان اتصور أنك رجل شريف ؟ لا ... بل لا استطيع ان اتصور انك إنسان، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش الا جمعتها في نفسك ، وكل ما في الامر أنك رأيتني السبيل الى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً ، ولا رأيت لي وجهاً .

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك ان تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة الا صنعة يدك وجريرة نفسك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك ، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

سرقت عفتي ، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، استثقل الحياة واستبطىء الاجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع ان تكون زوجة لرجل ولا أماً لولد ، بل لا تستطيع ان تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهي خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد اوصالها وتذوب احشاؤها ، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتني راحتي لأني اصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة ابي وامي ، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه احد ، ولا يطرق بابه ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من ايام حياتي .

قتلت امي وابي ، فقد علمت انهما ماتا ، وما احسب موتهما الا حزناً لفقدي ، ويأساً من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك ، والهم الطويل

الذي عالجته بسببك . قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي ، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس ، واحسب ان الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، واراد ان ينقلني من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء .

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا احسب ان الله تاركك دون ان يأخذ لي بحقي منك .

ما كتبت اليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً ، او اخطب إليك وداً ، فأنت اهون عليّ من ذلك ، إنني قد اصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها ، سعادتها وشقائها ، فلا امل لي في ود ، ولا متسع لعهد ، وإنما كتبت إليك لان لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فان كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الابوة ، فأقبل اليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما ادرك امها من قبلها » .

فما اتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدّر على خدّيه فسألته : وماذا تم بعد ذلك ؟ قال : إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع اعضائي ، وخيل اليّ ان صدري يحاول ان ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكي بكاءً مراً ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، واساود ملتفة ، هذا ينشب اظافره ، وذاك يحدّد انيابه ، فما افقت حتى

عـاهدت الله ألا ابرح هـذه الغرفة الـتي سميتها « غرفة الاحزان » حتى اعيش فيها عيشها ، واموت موتها .

وها أنذا اموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدثني قلبي ان الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط عـلى فراشه فأسلم الروح وهو يقول : ابنـتي يا صديقي ؛ فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت الى اصدقائه ومعارفه فحضروا تشييـع جنازته ؛ ومارئى مثل يومه يوم كان اكثر باكية وباكياً .

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني اكتب قصته ، ولا املك نفسي من البكاء والنشيج ؛ ولا أنسى مـا حييت نداءه لي وهو يودع نسمات الحيـاة ، وقوله : « ابنتي يا صديقي » .

فيا اقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء . انـكم لا تعلمـون حـين تخـدعونهن عن شرفهن ، وعفتهن .. أي قلب تفجعون ، وأي دم تسفكون !!

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عامل يعمل في هذه الحياة الا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوّره ، يقتل القاتل وفي اعتقاده ان الشرف في ان ينتقم لنفسه او عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالي ان يسميه القانون بعد ذلك مجرماً ؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهي في نظره اعدل من القانون حكماً ، واصدق قولا .

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هـذا غبار الخمول البله الذي يظل الاعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع ان يعمل عملاً لا يقدم عليه الا كل ذى حذق وبراعة ، وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم ان الشرف كل الشرف في إحراز المال وان كان السبيل اليه دنيئاً وسافلاً ، وان للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته اصوات المعترضين والناقدين شيئاً

فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه .

هكـذا يتصوَّر الأدنيـاء انهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانـه ، ومـا افسد عليهم تصورهم الا الذين احاطوا بهم من سجرائهم وخاطائهم وذوي جـامعتهم ؛ اولئـك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه ، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخوله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه ، ويكرمون صاحب الذهب ، ولو ان كل دينار من دنانيره محجم من الدم ، واولئك الذين يسمون الفقير سافـلا ، وطيب القلب مغفـلاً ، وطاهر السرير بليداً ، والحليم عاجزاً .

لا تعجب ان سمعت ان جماعة الاغنياء الجهلاء تنعكس في ادمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتتراءى في لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح افهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الاخرى .

لولا فساد التصوَّر ما افتخر قائد الجيش بـأنه قتـل مائـة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية او الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب اسماء العلماء والحكماء والاطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها واصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصوَّر ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي

القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب له عنده الا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهماً،وهو يسرق الدنانير في جميع أنائه واوقاته . ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه اشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً في موقف واحد امام قاض عادل يحكم بإدانة الاول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءة الثاني ، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء ان يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوّم افهامهم ، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس الرأي من ان يشير المعلم على المتعلم ان يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به اعماله او مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقه بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي ان يرشد المعلم المتعلم الى ان يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك .

ألا تراهم يعدون اشرف الشرف ان يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة او الذهب او يحلي بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها ؟

لا شرف الا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته

او مـاله او راحته في خدمـة المجتمـع البشري جميعه او خدمـة نوع من انواعه .

فالعالم شريف ، لأنـه يجلو صـدأ العقل الإنساني ويصقل مرآتـه ؛ والمجاهد في سبيل الذود عن وطنـه شريف ، لأنـه يحمي مواطنيه غائـلة الاعداء ويقيهم عادية الفنـاء ؛ والمحسن الذي يضـع الإحسان في موضعـه شريف لأنه ياخذ بايدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين ؛ والحاكم العادل شريف ، لأنه رسول العناية الإلهية الى المظلومين يمنعهم ان يبغي عليهم الظالمون ؛ وصاحب الاخلاق الكريمـة شريف لأنـه يؤثر بكرم أخلاقـه وجمال صفاته في عشراته وخلطائه ، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة افضل درس في الاخلاق والآداب ؛ والصانـع والزارع والتـاجر اشراف مـتى كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هـذا المجتمـع البشري ويحتملون في سبيـل ذلك مـا يحتملون من المؤنة والمشقة حـذراً عليه من التهافت والسقوط .

فان رأيت في نفسك أيها القارىء أنك واحد من هؤلاء ، فاعلم أنك شريف والا فاسلك طريقهم جهدك ، فان لم تبلغ غايته فاخذ القليل خير من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها ان كاتبها غاب عن بلده بضعة اعوام ، ثم عاد اليها بعد ذلك فزار صديقاً له من اسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الاخلاق الكريمة والانفس العالية ، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده ، وانها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب ان يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت اليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الاربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين ، وقالت : انها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وان خالفت الشرائع الدينية ؛ لان الاولى عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت : ان ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا ان تاذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها

إلمام الازواج بنسائهم مـا دامت لا تحبـه ولا تالف عشرته ، وقالت : لو ادرك الناس اسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسالة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعدّ المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، اذا كانت تكره الاول .

هذا ملخص القصة على طولها ، واحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء او تاييـد مذهب من المذاهب ، لان الكاتب قد أعذر [1] تلك الفتاة فيما فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها [2] وقضى لها فيما كان بينهما .

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول : ان الكاتب أخطا في وضعها ومـا كنت احسب الا ان مذهب الإباحية [3] قـد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الامة العربية ، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا مـا كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع او سائق حاجة ثم ثاب اليهـا رشدها وهداهـا ، فقلنـا : لا بـاس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة ، وألبسته ثوباً اوسع من ثوبه، ولا باس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبهـا ، ويـابى المجتمع البشري الا ان يسد عليهـا

(١) أعذرها : قبل عذرها .
(٢) أعداها عليه : ألصف لها منه .
(٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً .

ابواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين .

أما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله ؛ ان فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها ، ولم يسقها الى ذلك سائق شهوة بشرية ان صح ان تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت ؛ لانها فرّت من فراش زوجها ، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع ؛ لانها كانت أهنأ النساء عيشاً ، واروحهن بالاً ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في اعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

ان كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم ، لانها لا مسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن ان يكون المراد منها فتاة المواخير لانها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة .

كل الازواج ذلك الزوج الا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجة ان تفر من

زوجها الى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم الف سلام .

أيها الكاتب ! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة احد من الناس ان يقف دورة الفلك ويصدّ كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره مخافة ان تراه زوجته غير اهل لعشرتها اذا علمت ان في الناس من هو اصغر منه سناً وأكثر منه رونقاً وانضر شباباً .

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه ، وعلم ان نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتها ، ويطول ائتلافها ،فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب ، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما الى طبيعتهما ، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب ، من حيث الميل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج ، فقد خالف إرادة الله وحاول ان يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية .

أي امرأة متزوجة باجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله باجمل

منه ؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى ان يكون في منزله اجمل منها ، لولا هذا الرباط المقدس : رباط الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد الى النفوس الثائرة سكونها وقرارها .

لا بأس ان يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس ان تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى ان يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ويموت بموته . فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى ان يكون كل منهما لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل ينتقل ، وحال تتحول .

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله ان يؤمن بالوحدانية، ويصدق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلاً!

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته ان الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدنية الرومان، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران.

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من ان يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه ان ينظر اليه بالعين التي ينظر بها المسلم اليه من

حيث كونه نبياً مرسلاً موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ أما ما نقرؤه احياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته ، فهو مكتوب باقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في اقلامهم ولا ريب في ان اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل اليه انه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب اذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين ان حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بانه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب ، وليست مسالة الإعراب واللحن مسالة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وانما الاعراب ما نطق به العرب ، واللحن ما لم ينطقوا به ؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الاول ونصب الثاني لحناً ، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دوّنها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا

تراكيبه وأساليبه ، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على انهم قصروا في شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن بملحون ، ولا النحاة مقصرون ، ولكن المبشرين جاهلون ، فإذا كان التعصب الديني انطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب ان نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكنا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الاسلامية ، ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي ، ويستدل على الاسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أي عصر من عصور التاريخ ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الارثوذكس والكاثوليكية تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس

الانسانية ، وبكت الارض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت ارادة المسيحي فيه صورة من ارادة الكاهن الجاهل ؛ فلا يعلم الا ما يعلمه اياه ، ولا يفهم الا ما يلقيه اليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر او ايمان ، وبهيمية او انسانية ، فيكاد يتخيل ان له ذنباً متحركاً وخيشوماً طويلا ، وانه يمشي على اربع اذا قال له الكاهن : انت كلب: او قال له : انك لست بإنسان ؟ ام في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي ان دخول الجمل في سم الخياط اقرب من دخول الغني في ملكوت السموات ؟ ام في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي ان ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس . وان يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة ؟ ام في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الادبار ؟! أما في العصر الذي اهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فرّ من وجهها ظناً منه انها تشتمل على الجن والشياطين ؟! ام في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة واربعين ألفاً بالقتل حرقاً او صلباً ؟ ام في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة ؟

هذا الذي نعرفه ايها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية

التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك ام باطلة ، وانما نريد ان نستدل بالمسيحيين على المسيحية ، وان لم تقف على حقيقتها كما فعلت انت في استدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعرف حقيقته وجوهره ، على ان استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فان المدنية الحديثة ما دخلت اوربا الا بعد ان زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها كالماء الذي لا يدخل الكاس الا بعد ان يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما ، فان كان قد بقي اثر من آثار المسيحية اليوم في اكواخ بعض العامة في اوربا فما بقي الا بعد ان عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا باعتبار انه دين يجب أجلاله واعظامه ، بل باعتبار انه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها ، او باعتبار انه أثر من آثارها ،ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها اوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ولا اغنى عنها كهنوتها ».

اما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من امرها ولا تنكر من امره شيئاً ، فالمتعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيمائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي امام اسطرلابه ،

والكاتب بين محابره وأوراقه ، اخوة متصافون واصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي احد منهم على احد .

ايها الفيلسوف التاريخي : ان كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم اثر من آثار الاسلام بالامس، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى . واليك البيان :

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفرداً ، وما ينفعه مجتمعاً .

هذب عقيدته بعد ما افسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل والاوثان ، واحناء الرؤوس بين ايدي رؤساء الاديان ، وارشده الى الايمان بالوهية اله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم ارشده الى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد ايماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكون آلة صماء ، في يد الاهواء تفعل به ماتشاء، ثم ارشده الى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلا ، وهي مواقف العبادات ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ، ولم يمنعه من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها ، وعلمه أن الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وأن الملك والسوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي : امام الله والحق سواء ،

وأن الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران : بيد الله وحده لاينازعه منازع ، ولا يملكها عليه احد من الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم نظر في اخلاقه فأرشده الى محاسنها ، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب ،والنوم والمشي ، والجلوس والكلام ، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده . ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الاقوياء للضعفاء ، وعطف الاغنياء على الفقراء . ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية . ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه ، فلا يغبن أحداً أحداً،ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه ان يبغي بعضه على بعض بشتم او سب او قتل او سرقة او انتهاك حرمة او مجاهرة بمعصية اوشروع في فتنة او خروج على امير اوسلطان ، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها ، والقضاء وصفاته، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول : ان الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده ، الا مدّ يده اليه وأنار له مواقع أقدامه ، وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نوراً واشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت اشعتها البيضاء الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا ، فابصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين ، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا : أيمكن أن يعيش الانسان حراً على ظهر المسكونة لايستعبده ملك ولايسرقه كاهن؟ أيمكن ان يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده ، لا يروعه دولاب العذاب ، ولا سيف الجلاد ؟ أيمكن ان تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ؟ أيمكن ان يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت ابصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً ؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم اخذوا يعلمونها للناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ، ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى امره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي : انك لا بدّ تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ ان يعلمه ، كما تعلم ان المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحر بها ان تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك ان انكرت فضل صاحب الفضل عليك ، حتى انكرت عليه فضله في نفسه !

لا حاجة بي ان اشرح لك المدنية الاسلامية او اسرد لك اسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران ، أو أعدّد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، او اصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءتها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول .

غير اني لا انكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الاخيرة من الضعف

والفتور ، وما اصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب ذلك الاسلام كما نتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على ايـدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بـلاده وتمكنوا من نفوس ملوكـه الضعفاء ، وامرائه الجهـلاء ، فأمـدوهم بشيء من السطوة والقـوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السبقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، واوقعوا الفتنة فيهم ، وحـالوا بينهم وبـين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من امرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين : من الخلط في عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة التوكل ، وتشييد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على اعتابها ، والاهتمام بصور العبادات واشكالها دون حكمها واسرارها ، واسنـاد النفـع والضرر الى رؤساء الدين ، وأمثـال ذلـك أثر من آثـار المسيحية الأولى ، وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل اننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد اسأت الينا والى ديننا ، فلم نر بدأ من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الديني الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم ؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمـد فليشهـد الثقلان أني رافض

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية .. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينا فنسيء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب انهم قوم من شذّاذ الآفاق او نفايات الأمم جاءوا الينا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم وعرفنا ان اكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شان كل حكومة مستبدّة مع احرار النفوس وأباة الضيم،

فاحرجت صدورهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما احسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد : فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم انشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم، وردهم الى اوطانهم أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم ، بعد أنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟ .

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ‏ رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم ‏ شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدّثني احد الاصدقاء قال : ساقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين .

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب فما استقبلت اول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فاذا الخادم تقول : ان امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول : ان لها عندك شانا ، فقلت في نفسي : لا شان لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها اليّ اكثر من حاجتي الى النوم ، على ان النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء اطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائي ونزلت ، فاذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفىء هذه الجذوة التي تتاجج بين اضالعي بقطرة

واحدة من الرحمة ؟ فقلت : من انت يرحمك الله ؟ قالت : انا فلانة زوج فلان ، فدهشت وغصصت بريقي حتى ما اجد بلة احرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت ، وقلت : يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة ! وسألتها : ما شانك يا سيدتي ومم تبكين ؟ قالت : لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت اليك تحت ستر الليل الا وانت اوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ،ولولا شدة اقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت اليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولأ احتملت في سبيل ذلك ما احتملت ، قلت : عهدي بسيدتي رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الاخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك ، ولا يعدل بك أحداً ، قالت : انك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :

اظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة اعوام ، وان أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم ، وانا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد ان يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلا طيب السريرة طاهر القلب ، فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب الغالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها

حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة اجمع في نفسي جميع ما يمت بـه النساء الى الرجال ، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به ، ولا قطبت في وجهه مرة ولا اتلفت له مالاً ، ولا نقضت له عهداً ، فجازاني بالإحسان سوءاً ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب جنيته ، او وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول متبرم ، ولا تغضب يا سيدي ان قلت لك : ان قلب الرجل متقلب متلون يسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وان هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها اوثق منه عقداً ، وامتن وداً ، وأوفى عهداً ، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع ان يفرق بين قلبيهما الا ريب المنون . قلت : انا لا اغضب لشيء الا للإنسانية ان يخفر ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت : مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً امكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أغضي على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده ، حتى اذا صفرت يدي واقفر ربعي احسست منه مللاً كان يدعوه الى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول : انني لا احب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا افهمها ، وآونة كان يعرض بي قائلا :ان الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة ، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض احياناً الى التصريح ، فيقول كلما دخل عليّ متأففاً متذمراً : ليت لي زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية ، فكنت أشك

في سلامة عقله ، واقول في نفسي : كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة ان اكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت ابذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد ، فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء حتى تحوّل الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني الا شزراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض او قضاء حاجة ، ثم يخرج لشانه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له بعد ذلك ان تقل الى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الاقاليم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلتي ، فلبثت اترقب كتاباً منه يدعوني فيه الى اللحاق به ، فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة ، فاستكتبت اليه الكتاب فما اسلس قياده ، ولا طاوع عناده ، فسافرت اليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شانه معي ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع ، ولا أظن الا ان العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير .

وكانه شعر بمكاني ، فجاء اليّ يتهددني ويتوعدني فتوسلّت اليه

بيكاء طفلته التي كنت احملها على يدي ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها ، وذهبت في استعطافه واستدنائه كل مذهب ، فكنت كانني اخاطب ركوداً صماء [1] او استنزل أبوداً عصماء [2] ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة ، فعدت من حيث اتيت .

فما وصلت الى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل ، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى ان تري لي رأياً في التفريق بيني وبينه ، علني أجد في فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به وأنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله .

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما احزنني ، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد ان هونت عليها بعض احزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة ، وقد اكتنفني همان : هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ولا نجماً انحس من نجمها ، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسي عليها فاصبحت أعزيها عنه ، وكنت أحسبه إنساناً فاذا هو ذئب عملس [3] تستره الصورة البشرية

(١) الركود — من الركود — وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء : الصلبة المصمتة .
(٢) أبدت البهيمة : توحشت . والعصماء من الظباء : التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود .
(٣) العملس : السريع .

وتواريه البشاشة والابتسامة .

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه امس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

سيدي :

يهمني كثيراً ان أرى بين كتب التهنئة التي ترد اليّ كتاباً منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي .

انك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها الى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها اليّ ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم انها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاق بامرها ذرعا فطلقها ، وكنت افكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة اجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا اكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فامتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها ، وابشرك ان الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاما شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر ،

والشقاء الاكبر ، وانها امرأة قد اخذت التربية الحديثة من نفسها ماخذاً عظيما فحولتها الى فتاة غربية في جميع شؤونها واطوارها ، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان ، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، اضعاف ما كانت تقاسيه منه اشرف النساء ، والسلام ؟

*

في سبيل الاحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجمل منه ان يحل محله ،ويصيب موضعه .

الاحسان في مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل ؛ فلو أضاف المحسن الى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ، وأنة محزون .

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ؛ فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء ، وقد يكون احبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الاعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبذل قليلا ويربح كثيراً .

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء : فلو ان جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً ــ صادر عن تلك العاطفة الشريفة ــ لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه .

فوضى الاحسان :

الاحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ، ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤساً يرفع ، ولا فقراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه ابو العلاء :

ولو ان السحاب همي بعقل   لما أروي مع النخل القتادا [(١)]

الاحسان في مصر ان يدخل صاحب المال ضريحاً من اضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة او الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالاً ، او يهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء الى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته — لو يعلم — الا الى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له ان يهديها الى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاوياً يتشهى ظلفاً [(٢)] يمسك رمقه ، او عرقوباً يطفىء لوعته .

واعظم ما يتقرّب به محسن الى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيها : ان ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، ينشدون مواطن الصلات ، لا اماكن الصلوات ، او يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب

---

(١) القتاد : شجر صلب له شوك لا فائدة منه .
(٢) ظلف البقرة : ظفرها

والأركان ، مذهبة السقوف والجدران يسميها « سبيلا » ولا يهولنك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر ان السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات ، على ان الماء كالهواء ملء الارض والسماء ، ويقف الضياع الواسعة من الارض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه احسن اليهم ،ولو عرف موضع الاحسان لأحسن اليهم بقطع ذلك الاحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة او مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، فان كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه الى الله تعالى اجل من ان يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً الى طعام يطعمونه ، او درهم يتناولونه ، او يفتح ابواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو انصفوهم لسموهم قطاع الطرق ،ولا فرق بين الفريقين : الا ان هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى ، واولئك يتسلحون بالسبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع ، فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ولا خفاً ولا حافراً ، ولا شيئاً مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .. الا أتوا عليه .

أسوأ الاحسان :

لم أر مالا أضيع ولا عملاً اخيب ولا إحساناً أسوأ من الاحسان الى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويقلبونها ظهراً لبطن،ويجتمعون في مفارق الطرق ، وزوايا الدروب ، وعلى ابواب الاضرحة والمزارات

يصمون الاسماع باصواتهم المزعجة ، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ، فلو ان نجماً هوى الى الارض لهووا على أثره ، او طائراً طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه[1] .

وان شئت ان تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك ، وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب حاجة ، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا مسكن له يحتاج الى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم او مشرب او ملبس . حتى لو علم ان الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب ، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه ، وهو لو شاء ان يتزوج او يتخذ له ماوى ياوي اليه لفعل ، ولو جد في حرفته متسعاً لذلك ؛ ولكنه الحرص قد افسد قلبه وامات نفسه ، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ، ليجمع مالاً لا فائدة من جمعه ، ولا نية له في اصلاح شانه به اذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الارض حتى يدفن معه ، او لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدنىء والشره السافل ، ان يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد ان يحمل في سبيل الله ، فيتعمد قطع يده او ساقه او إتلاف عينيه او إحداهما ، ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه اذا رآه اكثر منه دمامة ، واعظم تشويهاً .

(١) القوادم : الريشات التي في مقدم الجناح ، والخوافي : التي اذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

كما يحكى ان شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر ، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين ، واقتل للنفوس ، واجلب للرحمة والشفقة ، فقال الأول للثاني : لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك افضل حبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه : واين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ؟

ان اكبر جريمة يجرمها الإنسان الى الإنسانية ان يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر في نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم ؛ فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضواً كاملا ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا ، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الانساني ،وتهذيب اخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول ؛ فهل رأيت معروفاً اقبح من هذا وإحساناً أسوأ من هذا الاحسان ؟ !

تنظيم الاحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الاحسان مما يستهان به ، فلو قال قائل : انها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما اخطأ التقدير .

سالت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والاحسان عن كمية

ما ينفقه كل عام في هذا السبيل ، فاطلعني عـلى جريـدة حسابه فرأيتها هكذا :

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق .
٦٠	ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي .
٧٢	مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله .
٣٠	هبات لجماعـة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجـد القديم والشرف الدائر .
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً .
١٠	توضع في صناديق الأضرحة .
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية .
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة في ان يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو ان هـذا المقدار حـل من الاحسان محـله ، واصاب منـه موضعه ، وأنفـق في سبل الخير النافعة ، ووجوه البر الحقيقية ، لأرتقى بالأمة المصرية الى ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الاحسان اقتراحاً نافعاً وأدعوا الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهييج النفوس ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، ان يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد .

أقترح ان يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها واصحاب الرأي فيها بتاليف مجتمع في القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له .

أما أعماله التي احب ان يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة :

ا ـ استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الاحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه اجمع لخيري الدنيا والآخرة .

ب ـ بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم او وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها ان تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الاحسان امام ربه ، وامام أمته اكثر مما قدمه لهذا المجتمع .

ج ـ إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر

وتنكر لهم بعد العزة والنعمة ، وصيانة ماء وجوههم ان تراق على تراب الاعتـاب ، والانفاق عـلى تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى ان تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى امثال هذه الاعمال الخيريـة الشريفة الـتي لا يتحقق الاحسان بدونها ، ولا ينصرف معنـاه الا اليها .

أنا اعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الانسان ، هو افضل عامل في الوجود واشرف إنسان .

*

أدب المناظرة

أنا لا اقول الا مـا اعتقد ، ولا اعتقد الاّ مـا اسمع صداه من جوانب نفسي ، فربما خالفت الناس في اشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتي اليهم في ذلك ان الحق أولى بالمجاملة منهم ، وان في رأسي عقلاً اجـله عن ان انزل به الى ان يكون سيقة [1] للعقول ، وريشة في مهاب الاغراض والأهواء .

فهل يجمل بعد ذلك بـأحد من الناس ان يرميني بجارحة من القول او صاعقة من الغضب لأني خالفت رأيه او ذهبت غير مذهبه ، او ان يرى ان له من الحق في حملي على مذهبه ، اكثر مما يكون لي من الحـق في حمله على مذهبي .

لا بأس ان يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس ان ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في ان

(١) السيقة : ما يساق سوقاً ؛ ومنه « إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله » .

يتذرع بكل مـا يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة الـتي يعتقـدها الا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا اعتقد انها تنفعه او تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

ان لاخلاص المتكلم تاثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الاعظم في القلوب والأفهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيا يقول ، فعبثاً يحاول ان يحمل الناس على رأيه ، او يقنعهم بصدقه ، وان كان اصدق الصادقين .

أتدري لم يسب الانسان مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المنـاظرة الى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفانـه وطبائعه ، كان كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » ؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلا غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقاً كان أم مبطلا .

لا يجوز بحال من الأحوال ان يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خـدمة الحقيقة وتاييدها ، واحسب ان لو سلك الكتاب هـذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيهـا الا لأنهم فـيا بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من اجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وان كان هو

قوياً في ذاته ؛ لأن القلم لا يقوى إلا اذا استمدّ قوتـه من القلب ، فـاذا جيء بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا : إنك جاهل لا يعتد برأيك او إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ؛ وهنالك يقول له الناس : رويداً ، لا تخلط في كلامـك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شأن لـك بعـلم صاحبك او جهله ، فانه يقول شيئاً ، فان كان صحيحاً فسلم به ، او باطلا فبين لنـا وجه بطلانه ، وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطىء مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرّ الى اضعف الوسائل وأوهنهـا ، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيـل بـه كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان .

على ان اكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتين : جهة مدح ، وجهة ذم ، فإما ان تتساويا ، او تكبر إحداهما الأخرى ، فإن كان الاول فلا معنى للاختلاف ، وان كان الثاني وجب على المختلفين ان يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا ان يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الاخير .

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد الـنزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف ممـا يخالفه فيـه ؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحـدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير الى منزلة

الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أثوابه لوح على احد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن انه يذم الصورة التي رآها هو . فلما عادا الى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكاً كثيراً ، ثم قال لهما : هذا ما انتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت اليكما هذا اللوح إلا لأضرب به لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو انكما تنظران الى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

الاحسان في الزواج

ورد اليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فاخذته الرأفة بها فتزوجها ، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ، ولم يستطع احد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة ، والسلام .

ف.س

أيها السائل الكريم :

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلا الى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها

إلا هذا السبيل ، كما هو شان الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأ جماً ، لأن من كان هذا شانه لا يعنيه إلا أمر نفسه ،ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ، ويتعلق بلذته ، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مؤونة العيش،ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الشغف بها ، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم ان فراقها لا يهيج له وجداً ، ورجوعها الى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المسكينة الى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإيثاراً للذته ، لا ينفعها ولا يحسن اليها ، لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسيء اليها بسوء تصرفه معها فيبغض اليها الصلاح ويحبب اليها الفساد ، وعندي انه في عمله هذا فاسق لا متزوج ، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهراً ولا عقد عقداً .

فإن كان حقاً ما تقول من ان باعثه الى ذلك الرحمة والرأفة والحنان

والشفقة فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب ان بين أعماله الصالحة عملاً هو افضل عند الله ذخراً واعظم أجراً ، من هذا العمل الصالح .

العرض أثمن من الحياة ، فان كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً ، فاشرف منه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها الى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل ان تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لمَ لا يكون باباً من ابواب الاحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من اولادهم واقربائهم، وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب ؛ لأنه إحسان ، والاحسان لا يجمل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء التكايا والزوايا ، وتوزيعه على المتسوّلين والمتكففين ، ووقفه على القارئين والذاكرين ، لا يدّخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الاحسان الى النساء بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل ، فجدير به ان يغرم ما أتلف ، ويصلح ما أفسد .

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله ان يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ،

وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين ، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها ، تفلي أناملها التراب ، لا تدري اين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش !

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ؛ لأن الرجل يسميها ساقطة ؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ؛ لأن الرجل اهمل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ؛ لأن الرجل يؤثر ان يمنحها القنطار حراماً ؛ على ان يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بداً من ان تطلبه من طريق البغاء .

فها انت ذا ترى ان شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وان الرجل هو الذي يمثل جميع ادوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإننا لا نزال نعتقد ان الرجل غريم المرأة ، وان حقاً عليه ان يؤدي دينه ، ويغرم أرش [1] جنايته .

ان أبى الرجل ان يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له الى ذلك الا اذا اعتبر الزواج باباً من ابواب الإحسان ، أي أنه

(١) الأرش : دية الجراحات .

يتزوجها لها اكثر مما يتزوجها لنفسه ، واحق النساء بالإحسان اولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ، فان أبى الا ان يتزوج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذي اخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى مواطن الشقاء ، ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء .

*

لا همجية في الاسلام [1]

أيها المسلمون : ان كنتم تعتقدون ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين لا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد اسأتم بربكم ظناً ، وانكرتم عليه حكمته في افعاله وتدبيره في شؤونه واعماله ، وانزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدّده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه . ويمد برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها : نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فجنيناً ، فبشراً سوياً .

ان إلهاً هذا شانه مع عبده ، وهذه رحمته به وإحسانه اليه ، محال عليه ان يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها ، او يرضى بسفك دمه الذي

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إيام وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩ .

أمده بـه ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بـين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال .

في أي كتاب من كتب الله ، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله ، قرأتم جواز ان يعمـد الرجل الى الرجـل الآمن في سربـه ، والقابع في كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه اهله وقومه ، لأنـه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه في عقائده .

لو جاز لكل إنسان ان يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها واصبح ظهر الارض أعرى من سراة أديم .

ان وجود الاختـلاف بـين النـاس في المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون ، لا يمكن تحويلها وتبديلها ؛ حتى لو لم يبق على ظهر الارض الا رجل واحـد ، لجرد من نفسه رجـلا آخر يخاصمه وينازعه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ان الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج الا من التحاك بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم ، او القضاء عليهم ، وإنما كان لحمايـة الدعوة الإسلامية ان يعترضها في طريقهـا معترض او يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الارض ومغاربها حائل ، أي ان القتال كان ذوداً ودفاعا ، لا تشفياً وانتقاما .

وآيـة ذلك ان السرية من الجيش مـا كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيـه حتى يصل اليهـا أمر الخليفة القائم ان لا تزعج الرهبـان في أديرتهم ، والقساوسة في صوامعهم ، وان لا تحـارب الا من يقاومها ولا تقاتل الا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أحرى ان تسفك دمـاء رؤساء الدين المسيحي وتسلب ارواحهم لو ان غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم .

لو انكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى اصبحت رقعة الارض خالصة لكم ، لانقسمتم على انفسكم مذاهب وشيعاً ، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل ارباب الأديان على أديانهم ،حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب .

أيها المسلمون : مـا جاء الإسلام الا ليقضي عـلى مثـل هـذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جـاء الإسلام الا ليستل من القلوب أضغانها واحقادها ، ثم يملأهـا بعـد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس في سعادة وهنـاء ، ومـا هـذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض .

عذرتكم لو ان هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شان من شؤون حياتـكم ، أو ذاهبـين في معاشرتـكم والكون معـكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالـكم والكون تحت اجنحتـكم أضعف من ان يمدوا اليـكم يد سوء ، أو يبتدرونـكم ببـادرة شر ، فلا عذر لـكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسالمم الله عن دين ولا مذهب قبل ان يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخ المالكين الزاحفين وحدهم الى القبور قبل ان تزحفوا اليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم .

أما وقد أخذتم البرىء بجريرة المذنب فانتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور ، أو هضبة من المضبات ، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم ، والتي لا تروعها أنات الثكالى ، ولا تحركها رنات الأيامى ؟

من أي نوع من أنواع الاحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون ان تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تاكل أطرافه وتتمشى فيأحشائه على مرأى ومسمع من أمه ، وأمه عاجزة عن معونته ، لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولا قدماً تمشي عليها ؟

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار ؛ لأني اعتقد ان قتل الضعفاء جبن ومعجزة ، وان سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى ان يعزى فيها صاحبها ، لا ان يهنأ بها .

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذار ان تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فاللهسبحانه وتعالى أجلمن ان يامر بقتلالابرياء ، أو يرضى باستعطاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وارحم الراحمين .

البخيل

سألني سائل : ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه ؟ وأي غرض يرمي اليه من ذلك ؟ فأجبته بهذا الجواب :

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسأل المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم الى الرغبة عن التخلي عنها حيناً ، فلا يجدون الى ذلك سبيلاً ، لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الارادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله ، فاذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، احس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه الى يده فتشنجت اعصابها وتصلبت أناملها واعيت على

الالتواء والانثناء ، فاخرجها صفراً كما ادخلها ، وبودّه ان لا يفعل لولا ان للغريزة قوة فوق قوة الإرادة ، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول ، الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعها ؛ فانه يكسر شرتها احياناً ، وان لم ينتزعها انتزاعاً .

ويحكى ان شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فاراد نفسه على ان يبذل لها شيئاً من ماله فتابت عليه ، فاذن لوكيله ان يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه ، علماً بانه لا يستطيع ان يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال ان يقال : ما هي الاسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل ؟ فيكون الجواب عن ذلك : ان الاسباب تختلف باختلاف الاشخاص واطوارهم واخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع .

الأول ــ الوراثة : وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة احياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتأثر بمخالطتهم ، الا انها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا اغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها .

الثاني ــ التربية : اذا نشأ الطفل بين اهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، اخذ اخذهم في الحرص ، وتخلق فيه باخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في

استحسان او استهجان، كانما هي عدوى الامراض التي تسري الى الانسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها ..ويحكى ان رجلا دخل منزلاً يعرف اهله بالشح والحرص ، فرأى طفلا صغيراً في يده ليمونة ، فطلب اليه ان يعطيه إياها ، فأجابه الطفل « ان يدك لا تسعها » !

الثالث ــ سوء الظن بالله : ذلك ان المتدين اذا اخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء ، فهو ارحم من ان يغفل شأنهم ويكلهم الى انفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الايام ، فلا يلج به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان ، ضعيف الثقة بواهب الارزاق ومقسم الحظوظ والحدود ، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع ــ النكبات : كثيراً ما تحل بالانسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها ؛ ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال ، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها ، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص واغرق في المنع ، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له ؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والاوجاع ، فانه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ، ولا تضيع من ذاكرته آلامها . فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليه ما لا يتخيل ، ويريه ما لا يرى ،

كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في ابشع صورة وافظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الامن والخوف ، والوحشة والانس .

الخامس ـ اللؤم : فان النفس اذا خبثت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه ، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع ان يمنع عنهم سارية السماء ، ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل .

السادس ـ سقوط الهمة : اذا نشأ الانسان عالي الهمة طموحاً الى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل ، سهل عليه ان يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده او ذات نفسه ، وحب المجد ، اسال الذهب من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسما بين شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، طلباً لسعادة الحياة بالذكر ، وسعادة الممات بالخلود . فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء ، وهو لا يشعر بلذته ؟ او خوف المذمة ، وهو لا يتالم منها ، ولا يحس بمرارتها ؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات ؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يضغها ، وحلة يلبسها .

السابع ـ فساد المجتمع الانساني : ذلك ان كثيراً من الناس قد بلغ

بهم حب المال والتعبد له ان صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ، خير يطمعون فيـه ، بـل لأنه ذو مـال وذو المال في نظرهم احـق الناس بالمحبة والاكرام والاجلال والاعظام ، وان لم يحصلوا منـه عـلى طائل ، فلو انهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهـذا النوع من العبـادة ساعة واحدة لاصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء ان ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرص على ما في يده ، وهو عمل يتكلفه ولا يتحمل له ، بـل هو أشهى الاشياء اليـه ، واكثرها ملاءمة لفطرته ؛ ليزداد شرفاً وعزاً ، كلما ازداد ثراء ووفراً ، ومن هنا قال احد البخلاء لاولاده : يا بني لان يعلم الناس ان عند احدكم مائة الف درهم اعظم له في اعينهما من ان يقسمها فيهم ،وقال رجل لآخر: يا بخيل ، فقال له : لا احرمني الله بركة هذا الإسم ؛ فاني لا اكون بخيلا الا اذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء .

هذه هي أهم الاسباب التي تالفت منها رذيلة البخل ؛ فـان اغفلنا النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عمـا يستفيده البخيل من بخلـه ، حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق الى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم اقرب من تطبق حاله هذه عـلى قاعدة من قواعد العقل ؛ لان الله تعالى خلـق الانسان وركب فيه رغبـات الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جسدي ؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومـة

نزوات نفسه ونزعاتها الى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز ، لأنه قادر ؛ ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع ؛ ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفني الاعمار ، فهيهات أن يفنيه عمر واحد ، ولا على رغبة في سعادة الذرية ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته ؛ فاما أن يشقى في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا الا أن نتوسل الى علماء النفس أن ياذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصورا على المعربدين والهاذين ، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما ياخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لانفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على انفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين ؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، اما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين .

*

البعوض والانسان

جلست ليلة امس الى منضدتي وعلقت قلمي بين اصابعي ، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن اكتب فيه .. وتلك عـادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي : أنني لا أميل الى الكتابة في بياض النهار ، ولا احب ان اخط حرفاً عـلى مـا أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه .

ولا يظن المولعون باكتناه الحقـائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني اريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، او انني اترقب طلوع النجم لاتسلق اشعته الى سماء الخيـال ، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو ادرى بدخيلة امري مني ، وكل ما في المسألة ان هذه عادتي وتلك طريقتي ، وكفى .

لم اكد افرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في اذني ، ثم احسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع

من همي مـا كان مفترقاً ، ولم ار بدأ من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طاردته بالمذبة فما اجدى ذلك نفعاً لانه على الطيران اقوى مني على المطاردة ، وفتحت النوافذ لاخرج ما كان داخلا ، فدخل ما كان خارجاً ، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً ؛ ولو كان مجتمعاً في دائرة واحـدة لهلك بضربة واحدة ، ولم ارى في حياتي امة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير امة البعوض ؛ فما اضعف هذا الانسان ، وما اضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه ، واعتقاده ان في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد ! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا ان يرسل اشعة عقله دفعة واحدة ، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزيمته ويقتدح فكرته .

يزعم ذلك ، وهو يعـلم انه اضعف من ان يحتـال لنفسه في مدافعة اصغر الحيوان جسماً وعقلا ، وادناها قيمة وشاناً ، بيد انـه يعـلم ذلك بلسانه ، وفي فلتات وهمه . ولو علمه علماً يتغلغل في نفسه ، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعلم علم اليقين ان الانسان العاقل ، والحيوان الملهم ، والنبات النامي ، والجماد الجـامد ، سواء بين يدي القوة الالهية الكبرى ، التي لا ينفـع نفعها حول ولا قوة .

علمت أني عييت بامر هذا الحيوان ، فلذت بجانب الصبر ، والصبر ــ كما يعـلم معشر الصابرين ــ حجـة العاجز ، وحيـلة الضعيف وأيسر مـا يستطيع انيدفع بهدافع عننفسه ملامةاللائمين،وفضول المتطفلين،وقلت

في نفسي : لو كان البعوض يفهم ما اقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له عذري ، وسألته ان يمنحني ساعة واحدة اقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منها حيث يشاء ، ويمتص منها ما يشاء ، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لا يسمع شكاتي ، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة ، لأنه ليس بإنسان .

احسب ان لذعات البعوض قد اخذت ماخذها من عقلي وفهمي ؛ وأني قد بدأت أهذى هذيان المحموم ؛ فمن اين لي ان لو كان البعوض إنساناً كان يسمع شكاتي ، ويكشف ظلامتي ، او أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الإنسان احسن حالاً من البعوض وارحم منه قلباً واشرف غاية ، فاتمنى لو كان مكانه ؟ بل ، ومن اين لي ان هذا الذي احسبه بعوضاً ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق ؟ وأي غرابة في ان أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل الى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والاجزاء المقومة للماهية ؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعاً في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً ؟

ان البعوض في امتصاصه الدم من الجسم اقل من القاتل ضرراً واشرف غاية ، واجمل مقصداً ؛لأنه ان أذى الجسم فقد أبقى على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف

له طريقا سواه ولا يستطيع ان يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه ان يكون كالانسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر .

إني وجدت بين الانسان والبعوض شبهاً قريباً في صفات كثيرة انا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي .

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلىء فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك ، وهو اشبه شيء بشارب الخمر : يتناول الكاس الأولى منها ، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويؤدي بها ، من حيث يظن أنه ينعشها ، ويجلب اليها سرورها وهناءتها .

البعوض سيء التصرف في شؤون حياته ؛ لأنه لا يسقط على الجسم الا بعد ان يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه ، او يفتك به قبل بلوغه اليه ، فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من اصحاب المطالب السياسية : يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير انهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة اليها الا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها ، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم ، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث

لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره ، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء ، والسحر الحلال جمالاً وبهاء ، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها سلسبيل الوفاء ، يقول لك : إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فان تم له ما أراد سلبك مالك ان كنت من ذوي المال ، وجاهك ان كنت من ذوي الجاه ؛ فان لم تكن هذا او ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك ، فان فاته ما يشفى به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفيء به نار حقده وموجدته .

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت ، والسلام .

●

الجزع

يا صاحب النظرات :

لي صديق سقط في امتحان « البكالوريا » هـذه السنة فاثر فيـه ذلك السقوط تاثـيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكيـاً متالماً حتى أصبحنا نخاف عليـه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي ؟ وكيف أستطيـع مقابلة والدي وأهلي ؟ فهل لك أيها السيد ان تعالج نفسه بنظرة من نظراتك ، التي طالما عالجت بهـا قلوب المحزونين ؟ ؟

حقوقي

ليست المسالة مسالة صديقك وحده ، بـل مسالة الساقطين أجمعين ، فان المرء لا يـكاد يتناول نظره منهم في هـذه الايام الا وجوهاً قـد نسج الحزن عليهـا غـبرة سوداء ، وجفوناً تحار فيهـا مدامعها حيرة الزئبـق الرجراج ، حتى ليخيـل اليك ان نازلة من نوازل القضاء قـد نزلت بهم

فزلزلت أقدامهم ، او فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فاثكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سداً لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .

خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن ، واصغر مما تقدر ، وأعلم وما احسبك الا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يهو بك القضاء الى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر .

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيات له أسبابه ، وأعددت له عدّته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقد أعذرت الى الله والى الناس والى نفسك ، فحري بك ان لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وان كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك ان تترقب فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك ان تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ، ومطاوعة الاقدار ؟ وهل تستطيع ان تبرز لنا صورة العهد الذي اخذته على الدهر ان يكون لك كما تحب وتشتهي ؟ وعلى الفلك ان لا يدور الا بسعدك ، ولا يجري الا بجدّك ؟ وعلى القلم ان لا يكتب في لوحة الا ما دللته عليه ، وأوحيت به اليه ؟

لا تجعل للياس سبيلا ألى نفسك ، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك ، وامض لشانك ولا تلتفت الى ما وراءك ، فان تم لك في عامك المقبل من طلبتك مـا أردت فذاك ، او لا ، فما فقدت إذ فقدت الا ورقة كان كل ما تستفيده منها ان تشتري بهـا قيـداً لرجلك ، وغلا لعنقك ، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بانفسهم ، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الاسراء في سجون الآسرين .

ان اعتدادكبهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد ان تجعلها منتهى املك ، وغاية همتك ، وانـك لا ترى بعدهـا مزيداً من الكمال لمستزيد ، فـان صدقت فراستي فيك ، فاعلم ان الله قد خار لك في هذا المصير ، وساق اليك من الخير ما لا تعرف السبيل اليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم الا لتطلب لنفسك كمالا معلوماً ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الاوراق ، الا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب

ان كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيـه ، ولا حاجب لها عليه ، وما هو الا ان تجـد في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال مـا ينقصك من الفضائل النفسية ، فـاذا انت شريف في نفسك ، وفي نفوس الخاصة من النـاس ، واذا انت في منزلة يحسدك عليها كثير من ارباب الشهادات والمناصب ، ولا حي الله شرفاً يحيى بورقة ويموت باخرى، ولا مجداً ياتي به سطر ويذهب به سطر،وان

كنت تبكي على العيش ، ففي أين كتاب من كتب الله المنزلة قرأت ان ارزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين ؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزانته الا اذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير ، او اشارة وزير ؟

أيها الطالب :

قل لأبيك واخيك واهلك واصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء : ان الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه ، وان الذي صوّر لي اعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيما خلقت له، وان الذي خلقني سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين .

●

النبوغ

من العجز ان يزدري المرء نفسه فلا يقيم لهـا وزناً ، وان ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق،وعندي ان من يخطىء في تقـدير قيمته مستعلياً ، خـير ممن يخطىء في تقديرها متدلياً ؛ فان الرجل اذا صغرت نفسه في عـين نفسه يابى لهـا من اعماله واطواره الا ما يشاكل منزلتها عنـده ؛ فتراه صغيراً في علمـه صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صغيراً في جميع شؤونه واعماله ؛ فان عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد سال احد الأئمة العظماء ولده ، وكان نجيباً : أي غاية تطلب في حياتك يا بـني وأي رجل من عظماء الرجال تحب ان تكون ؟ فاجابه : احب ان اكون مثلـك ، فقـال : ويحك يا بـني ! لقـد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكي ، لقد قدّرت لنفسي يا بني

في مبدإ نشاتي ان اكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت اجد واكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبيني وبين عليّ ما تعلم ، من الشاو البعيد والمدى الشاسع ؛ فهل يسرك ، وقد طلبت منزلتي ان يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين عليّ ؟

كثيراً ما يخطىء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس ؛ وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً ، ويسمون الرجل اذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً ؛ وما التواضع الا الأدب ، ولا الكبر الا سوء الأدب ؛ فالرجل الذي يلقاك متبسما متهللا ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصغي اليك اذا حدثته ويزورك مهنئاً ومعزياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع ، والأدب ارفع لشانه فتادب .

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا ان يقال به كبر

فاذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل ان ينكس رأسه للكبراء ، ويتهافت على ايديهم واقدامهم لثماً وتقبيلا ، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ، ويبصبص برأسه ،وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق ، وعلى افواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متادب .

ان علو الهمة اذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع وسوء العشرة - كان احسن ذريعة يتذرع بها الإنسان الى النبوغ في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو احوج الى علو الهمة من طالب العالم ، لأن حاجة الأمة الى نبوغة اكثر من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون الا حسنة من حسناته ، وأثر من آثاره ؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، او خرافة من خرافات الجان ، وحذار ان يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول : من لي بسلم اصعد فيها الى السماء حتى أصل الى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال ؟

يا طالب العلم ، انت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك الى خلق غير خلقك ، وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك في حاجة الى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رقعة الارض ، وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة او بالسماجة ، فنعم الخلق هي ان كانت السبيل الى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف : علو الهمة

والفهم في العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته . وأما الفهم في العلم ، فإليك الكلمة الآتية :

العلم علمان : علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين ان تسمع من الحافظ كلمة، او تقرأ في الكتاب صفحة ، فان أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظر ان نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل ؛ لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات : وانك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم ، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقاً حينما يسمع ابنته تخيف طفلها باسماء الجن والشياطين ، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء : ان فلاناً حفظ متن البخاري ، فقال : لقد زادت نسخة في البلد !

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ؛ لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان احدى غرائزه ، فلا يرى له بدأ من العمل به رضي أم أبى .

لولا ان العلم الديني قد اصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على ابواب الاحياء والاموات

في مزاراتهم وفي مقابرهم يسالهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » من يسند النفع والضر الى كل من سال لعابه وتعزق إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الانبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علماً ــ وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الاثر وقلة الجدوى ــ ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدّسه كاتب ، او ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وآية فهم المعلوم تاثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته ، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك . فربما مرّ بالمعلوم محرفاً فاخذه على علاته ، واقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والسمين ، والجيد والزائف ، فكان ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية الشافية ، بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر ان الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسال عن مذهب ، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدي به ، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتاويله .

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي اذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار الى المجد بجناحين . وكان له سبيل مختصر الى منزلة العظماء

ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور[1] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ الا اذا وضع في العلم الذي مارسه مسالة ، او كشف حقيقة ، او اصلح هفوة او اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً الا اذا أخلص المتعلم اليه ، وتعبد له وأنس بـه أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف لحرفته ؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ؛ والمحترف لا يهمه من حرفته الا لقمة الخبز وجرعة الماء ، احسن أم أساء .

لا يزور العلم قلبـاً مشغولا بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما يزور قلباً مقسما بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرّة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكاسين: كاس المدام ، وكاس الغرام .

(١) المراد ان العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر ، فالعـلم دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها .

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج ؛ فسألت: ما شأنها ؟ فعلمت ان اهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق . ثم زفوها اليه فحاول ان يفترشها ، وهي على حالة لا تستطيع معها ان تلم بفراش فامتنعت عليه ، فاراد اغتصابها فعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة ، وأعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرة أخرى ؛ وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعياها الامر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا

مستقراً ، حتى رفع امرها الى ذلك الحاكم ، فامر باستدعائها وآواهـا في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت اليه حادثة اخرى تشبه الحـادثة الاولى من جميع وجوهها ، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجـه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل .

إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها .

إنها لا تحسن عملا ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها الا قلب الرجل ، فإن استطاعت ان تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أو لا ، فلا مفر لها من الشقاء ، من المهد الى اللحد .

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام ، وعقبات جسام ، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير اولئك الجهلاء اولياء امر تينك الفتاتين : استثقل اهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة . والقومة والقعـدة ، ورأوا انها عالة عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً . وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب ، أي خاطب كان ، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها .

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة ، وهذه

منزلة فلذات اكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الاحوال آن يفاوضوها في اختيار الزوج، او يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شاناً من شئون أهله ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال او مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسي كلا صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع، آلاماً جثمانية تطفىء نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء ان بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازى، فما أنس لا انس ليلة زرت فيها صديقاً لي ، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكانما هي الخلال رقة وذبولا ، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها ، فتسبل فضل مئزرها على ماقيها المقرحة رأفة بهم ان يلموا ببعض شانها فيبكوا لبكائها ، فسألتها عن شانها فاخبرتني انها مطلقة من زوجها وان بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإرادة » تماطل في إنقاذه ، فجاءت الى هذا الصديق تستعين به على امرها ، ثم اخذت

تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدّة ومعالجة القوت ما أسال شئوننا ، وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدّعا .

فخففت أنا والصديق شيئاً من آلامها فانصرفت ، وفي صباح تلك الليلة سمعنا ان امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا انها صاحبتنا بالأمس ، وانها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .

أيها الرجل :

إن كنت تعتقد ان المرأة انسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة ، والا فاحسن اليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد ان تقضي ماربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وان كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها ، ثم يلقي اليك بعظامها ،

ويا أيها المحسنون : والله لا اعرف لكم باباً في الاحسان تنفذون منه الى عفو الله ورحمته اوسع من باب الاحسان الى المرأة .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها اولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

القسم الثاني

البيان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم : « إني لتأتيني أحياناً رقاع الشكوى فاكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، والكلمات الجارحة ، لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلك لكنت من الظالمين » .

ذلك ما يراه القارىء في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجد ، وجد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل لا يفرق ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتاديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن ادراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والامراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في في الفاجعة يفجع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة

مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجي أجيره بما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة ، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً ، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون ؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها ؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارىء أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فاغصوا بها صدور كتابتهم ، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها ، فإذا قدّر لك أن تقرأها ، وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحباً ، وفؤاداً جلداً ، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرّتها ، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها ، حتى تسف وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

يخيل إليّ أن الكتّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويانس بوحدته ، فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه ، وخوالج نفسه .

الكلام صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل باساليب اللغة ، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في اوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ويتغزلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأية لغة يحاول ان يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من انبوب يراعته على صفحات قرطاسه .

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابىء والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فاشعر بما يشعر به المتنقل دفعة

واحدة من غرفة مُحكمة النوافذ، مُسبلة الستور، الى جو يسيل قرا وضرا، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فاغتبط بها ، وهي بالعامية فألهو بأحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين : رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في روع قارىء كتابته أدون مما أخذها ، فيدلى آخذها كذلك الى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشيّ ، وطالب قصارى ما يأخذه من استاذه : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ، أما روحها وجوهرها فاكثر اساتذة البيان عنده علماء غير ادباء ، وحاجة طالب اللغة الى استاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحي اليه بسرّها ، ويفضي له بلبها وجوهرها اكثر من حاجته الى استاذ يعلمه وسائلها وآلاتها ، وعندي أن لا فرق بين استاذ الاخلاق واستاذ البيان ، فكما ان طالب الاخلاق لا يستفيدها إلا من استاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه . كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من استاذ مبين .

ولا يقنفن في روع القارىء أني أحاول استلاب فضل الفاضلين او

آني آريد ان انكر على شعراء الامة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا اردت ولا اليه ذهبت ، وإنما اقول إن عشرة من الكتاب الجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب .

وبعد : فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً اليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فإن رأيت انك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها ، وأن قد لذّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام ، فاعلم انك قد اخذت من البيان بنصيب ، فامض لشانك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثك نفسك اني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لاسلوب تسترقه او تركيب تختلسه ، فإني لا احب ان تكون سارقاً او مختلساً ، فإن فعلت لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدته[1] ان تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين اجزائها ، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما اريد ان تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، وإلا كان شانك شأن اولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها ، فقنعوا بها ، وظنوا انهم قد وصلوا من البيان الى صميمه . فإذا جد الجد وأرادوا انفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم،

(١) بمعنى : أفاد واستفاد .

رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فان وجدوا بينها قالباً لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم حشراً . وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة او هجروا تلك المعاني الى معان أخرى غيرها ، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين : إما فساد المعاني واضطرابها، او هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجاوا الى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها . فاللغة العربية ارحب صدراً من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله ؛ وقدرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس على ما عيّت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشان في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في ارجائها ، والتغلغل في أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تثلج صدراً ، ولا تشفي أواما .

وكل ما يعد عليها من الذنوب انها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه المئات المستحدثة، وهو في مذهبي أهوَن الذنوب واضعفها شاناً ، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، او التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالامر اهوَن من ان نحار فيه ،

واحقر من ان نقضي اعمـارنا في العراك بيـابه ، والمناظرة في اختيار اقرب الطرق اليه ، واجداها عليه .

واعلم انه لا بد لك من حسن الاختيار فيا تريد ان تزاوله من المنشآت العربية ، فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا احسبك إلا واقفاً بين يدي هـذا الامر موقف الحـيرة والاضطراب ، لان حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعنـاق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الادباء الذين تعرف ويعرف النـاس منهم ذوقاً سليماً ، وقريحة صافية ، وملكة في الادب كمصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي اليها من البذور الطيبة ، عـدت وبين جنبيك ملكة في البيـان زاهرة ، يتناثر منها منثور الادب ومنظومه ، تناثر الورود والانوار من حديقة الازهار .

***

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الانسان لرأى منها مـا يرى الاعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً .

تتراءى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء او صفحة الماء ، فإن بدا لك ان تكتنه باطنها فانك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت ان تخترق جلدة السماء ، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائـج وضاء يروح ويغدو رواح السانحـات وغـدو البارحات ، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلاً .

وقف آدم أمـام باب السريرة يوم الشجرة يعالـج فتحه فاستعصى عليه ، ثم وقـف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه ، فلجّ بهم الشوق إليها لجـاجاً طار بعقولهم وذهب بألبابهم ، فترامو ا على أقدام المنجمين والعرّافين لثماً وتقبيلا ، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيـام الابل العطاش بمنازل الماء ، يطلبونـ ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجـع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقي .

انك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب في جنح ليل مبرد ، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكام عن الأزهار ، فتحسده عـلى نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وان بـين جنبيه ـ لو علمت ـ هماً يعتلج ، وقلباً يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الاعمار ، وكبداً مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والاحزان ما وجـد من يبتاعها منه بأبخس الاثمان .

وانك لترى الصديق فيعجبك منـه حديثه الحلو ، وثغره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك واعظامه لك واعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك ، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتـاع أقدام السليك [(١)] بجميع مـا تملك يدك ففررت من وجهه فرارك من وجـه الاسود السالخ [(٢)] ووددت بجدع الانف ان لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم .

---

(١) السليك : رجل معروف بسرعة عدوه في العرب .
(٢) ذكر الحيات .

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الارض غير الارض ، والسموات غير السموات ، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يحاربون الا ليضعوا « نيشاناً » في صدر القائد ، او جوهرة في تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في مواقفهم باشراك الوطنية وحبائل الدين ، لما دالت الدول ، ولا انتقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين ان أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم واموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال ، لضعفت اصوات النواقيس ، وقصرت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوعاً وسغباً ، ولأصبحت حبات السبح اكسد في سوق الاديان من بعد الآرام في سوق الأنعام ، ولو علم الابن ان أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته ، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة ان زوجها يحب منها جسمها اكثر مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيراً منها ، لما وثقت بوده ولا اطمانت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد ،

زيد وعمرو

أراد داود باشا ـ أحد وزراء تركيا في العهد القديم ـ ان يتعلم اللغة العربية ، فاحضر احد علمائه ، وأخذ يتلقى عنه علمه عهداً طويلا ، فكانت نتيجة عمله ما ستراه .

سأل شيخه يوماً : ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق ان يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ،ويضرب الارض بقدميه ، فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي ، وإنما هي أمثلة ياتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، واكبر ان يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية . فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل الى نحوى آخر

فساله كما سال الاول ، فاجابه بمثل جوابه ، فسجنه كذلك ، ثم ما زال ياتي بهم واحداً بعد واحد . حتى امتلات السجون وأقفرت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشئومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له ان يستوفد علماء بغداد ،فامر باحضارهم ، فحضروا وقد علموا قبل الوصول اليه ماذا يرادبهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والبصر بموارد الامور ومصادرها،فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيس العلماء : ان الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق ان ينال لاجلها من العقوبة اكثر مما نال ، فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجه ، وأقبل على محدّثه يساله : ما هي جنايته ؟ فقال له : انه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله ـ يشير الى زيادة واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود ـ فاعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : انت أعلم من أقلته الغبراء ، وأظلته الخضراء ، فاقترح عليّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه سوى اطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فامر باطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات .

أحسن داود باشا في الاولى وأساء في الاخرى ، ولو كنت مكانه لما اطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقاً ان يتركوا هذه الامثلة البالية الى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه

الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ، وخالد وبكر .

لا ينال المتعلم حظه من العلم الا اذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها ، ولن يستطيع ذلك الا اذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتن له في إيرادها افتناناً يقرّب الى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل ، ويسهل له الوصول الى القدرة على تلك المطابقة ، وان اكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ! فلو أنك أردت أحدهم على ان يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية ، وفي النحو عن ضرب زيد عمراً ، وقتل خالد بكراً ، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر ، واستعارة الأظافر للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة ، وفي لسانه من العى والحصر ما يحزنك على اعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف ان عجز عن ان يقرأ صحيحاً كل كتاب وكل صحيفة ؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة ان عجز عن معرفة أسرار الكلام ، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب ؟ وعلام يتعلم المنطق ان عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل ما يعرض عليه منها ، وان لم يكن الموضوع الإنسان ، والمحمول

الحيوان الناطق ؟ !

عجيب جداً ان يفهم الصانع الأمي ان العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحداد الا ليصنع الاقفال والمفاتيح ، وان يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية ، فلا يهمه من العلم الا الاستكثار من المعلومات والقواعد ، وان عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها في مواطنها .

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من اسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام ان ينبغ منها العلماء الذين تستطيع ان تنتفع بهم الأمة انتفاع امثالها بامثالهم في مشارق الارض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء .

•

أبو الشمقمق[1]

ان كثـيراً من الفقراء لم تمتد يـد الفقر الى رؤوسهم ، كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون . وكما ان في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبـل ذلك ، فـأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية : مـا بـين تاجر يعجب بصفقته الرابحة ، وزارع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة مـا أخـذ . وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على ان السعادة التي أظلتهم أجنحتها في هذا العهد الأخير : عهد العدل والانصاف، عهـد الحرية والمساواة ، عهـد الرقي والعمران : هي أشبه شيء بسعادة

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر .

المتقين في جنات النعيم .

كل هـذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه ، ويهز رأسه ، ويصعد أنفاسه ، ويمضغ أضراسه ، ويئن من أعماق قلبه أنيناً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحراً لم أجد فيه مشربا على ان غيري واحد فيه مسبحا

فما هو الا ان قضوا لبانتهم من الكلام المملول ، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون الآمال وراء الأموال. فاشرت الى أبي الشمقمق ان يختلف ففعل . فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيـه ؟ فأجاب إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا اشترك في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمـة المصرية في عهدها الأخير وانت فرد من أفرادها ، وجزء من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك ، وسقوطها سقوطك ، والأمة ــ كما تعلم ــ هي الفرد المتكرر والواحد الدائر ، فانت الإمة والامة انت ، فقال والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية ؟ ولست بصوفي ، أم بلغـة الفلاسفة ؟ ولا أفهم للفلسفة معنى ، وكانك تقصدني بالفرد المتكرر ، فان كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد ، ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل ، فقد اصبت واحسنت ، وان كنت تريد معنى غير ذلك ، فانا لا أفهم الا كذلك ، فهل لك ان تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ فقلت : أنا لم اخرج

بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد الا أن الامة ليست في الخارج شيئا غير أفرادها ، فإذا سعدت او شقيت فالسعداء والاشقياء أبناؤها ، وحسبك ان ترى تقدم الامة المصرية في ثروتها وعمرانها ،وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها ،فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها ، فقال : ان لم تبين لي سهمي من هذه السعادة ، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى ان لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطناً لا يمتلىء بما تمتلىء به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق .. وقميصي المخرق .. ويقاسمني همي .. ويشاطرني فقري .. فهيهات ان أسعد بسعادتهم ، وأسر بسرورهم .. وهيهات ان افهم معنى قولك انت الامة والامة انت.. فقلت: ان الغيث اذا نزل يسقي الخصيب والجديب .. والنجد والوهد ، وينتظم من الارض الميت والحي . فقال : كل سماء فيها هذا الغيث الا سماء مصر فإني أراه :

كبدر أضاء الارض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم

مالي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه .. والقصر الذي لا ادخله مالكا ولا زائراً .. وهب ان الطرق مفروشة بالحرير والديباج .. لا بالحصى والمدر .. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئاً فاستطيع ان اميز بين خشن الملمس وناعمه ، ومعوج الارض ومستقيمها ؟ وهبني اذا مشيت خضت في بحر مائج بانوار الكهرباء . فهل يغني ذلك عني شيئاً ؟ وهل يكون نصيبي منه الا انكشاف سوأتي ورثاثة حالتي لأعين

الناظرين ؟ ولقد حبب اليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق .. والتمزيق والترقيع .. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني ؟هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الاغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت : نعم .. أما ترى الاموال التي يتبرع بها الاغنياء للجمعيات الخيرية ،والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال : ان هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها اصحابها الا مغارم ، ألجأهم اليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب .

مالي وللمدارس والمستشفيات ، وانا جوعان خبز لا جوعان علم .. ولا مرض عندي الا مرض الفاقة ، فهل اجد في المدارس خبزاً او في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه احد الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا اليه مرضاً فعرف سر مرضه فاعطاه علبة وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير .

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى .. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً او يحسن صنعاً، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه، منفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فاني أبيت طاوياً،

واصبح شاكياً ، وأغدوا راجياً واروح يائساً .

وهنا ارسل من جفنيه دمعة ليست باول دمعة ارسلها على ردائه ، ولكنها أحر من سابقاتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة .

ثم نهض ومد يده اليّ مودعاً ، فسحت بيميني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات .

*

دورة الفلك[1]

أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في ابراجك ؟ اين النسر الطائر الذي كان يحلق في اجوائك ؟ اين الملك القادر الذي كان يطلع شمساً في صباحك وبدراً في مسائك ؟

اين الاعلام والبنود تخفق في شرفاتك ؟ والقوّاد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ اين الشفاه التي كانت تلثم ترابك ؟ والافواه التي كانت تقبل اعتابك ؟ والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك ؟

اين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ اين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا .

كيف استطاع الدهر ان يمد يده الى شملك فيبدده ؟ وجمعك فيفرقه ؟ وسمائك فيكور شموسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

اين كانت أسوارك وابوابك ، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت ان تمتنع على القضاء ؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت على عجل أستاره وستائره

أيها السجن :

حلّ بارجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ و تعجز عن احتماله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقاً به لا تزعجه ، ولا تحرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور ، والظهر الذي قوسته ايدي المقدور .

ايها الدهر :

ألا تستطيع ان تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع ان تسقيه كاس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

ان كنت تريد ان تسلبه فلم اعطيته ؟ وان كنت تريد ان تعطه فلم سلبته ؟ كان خيراً له ان لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية ، وان لا تسقيه كاس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكاس

أيها الرجل المودع :

كان ارتفاعك عظيما ، فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت، كما يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له به ولا قبل له باحتماله .

لا تأس على ما فاتك ، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها برهة من الزمان ، ثم استردها .

إنك لا تدري ، لعلّ الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول اجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فيها فهرس أعمالك ، فان رأيت خيراً اغتبطت او شراً استغفرت .

قضى الله ان يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت انت عبرة هذا الدهر وموعظته.

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالاحلام مغرور

*

تأبين فولتير [1]

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات « فولتير » حتى احدودب ظهره تحت اثقال السنين الطوال، واثقال جلائل الاعمال،واثقال الامانة العظمى التي عرضت على السموات والارض،فابين ان يحملنها ،فحملها وحده وهي تهذيب السريرةالإنسانية فهذبها ، فاستنارت ، فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله ، ويحبه المستقبل لانه عرفه .

ان في هاتين العاطفتين ـ البغض والحب ـ سراً عظيما من اسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم .

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها « فكتور هيجو » في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨ م بعد مرور قرن على وفاته ، مع بعض تصرف .

كان وهو على سرير الموت محفوفاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً،متفقتين معنى ، لانهما جميعاً في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسرّه منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله ، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يضمره الماضي في صدره لاولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان « فولتير » رجلاً واكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على انجاز عمل عظيم فانجزه ولم يخلف وعده ، وكان الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه ؛ فوجدت فولتير اصلبها عوداً ، فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فاتمه .

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى ، جئنا لنرفع شان المدنية ونكرم الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه،جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى اليها العلماء والعاملون ، والكتاب المجدّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا الا لنمجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السلام حباً في المدنية ، وحرصاً على جمالها ورونقها ، فالسلام فضيلة المدنية ، والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الساعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي

ينصت لسماع صوت فرنسا « لا قوة الا قوة الضمير ، ولا مجد الا مجد الذكاء » هذا في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شان المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال : الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، وهذا يمثله « القضاة » وذاك يمثله « الإكليروس » .

أتدرون كيف كان الشعب ؟ وكيف كان الدين ؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ! والدين رياء ! والقضاء ظلماً !

ان كنت في شك مما اقول فاني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعاً .

في ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مصلوباً في الطبقة الارضية من بيت في مدينة « تولوز » فهاج الشعب ولغط « الإكليروس » وبحث القضاة ، فكانت النتيجة ان كان الشاب منتحراً ، فسمي قتيلاً ، وكان والده بريئاً ، فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته ان يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتياً ولأنه كان يمنع فتاه ان يتدين بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ، ويحيلها العقل ، ولكن هان أمرها ، ولم يحفلوا بالشريعتين : شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا ان الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق الى الميـدان العام شيخ ابيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت اليه أطرافه وترك رأسه متدلياً .

ثلاثة رجال تلوثت ايديهم بدم القتيل : كاهن يحمل الصليب ، وجلاد يحمـل القضيب ، وقاض يحمـل في صدره عهـد القوم اليـه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيـخ المسكين وقـد شق الخوف مرارته ، وتمشى قلبـه في صدره ، لينظر الى الصليب في يد الكاهن ، بل الى القضيب في يد الجلاد .

ورفع الجلاد القضيب ، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه، فتقدم القاضي الرحيم وأمره له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الأخرى فعاد الى صرخته وإغمائه فعادوا الى تنبيهه وانعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقـدم الكاهن ومدّ اليه الصليب ليقبله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينـين ، فاقبـل الجـلاد وسدد الى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات « جان كالاس » .

وما هي الا أيام قلائل حتى عرف الناس ان الفتى مات منتحراً ، لا

مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد ان نفذ فيه سهم القضاء ، وماذا يعنيه بعد الموت ، أمات ظالما أم مظلوماً !

أمـا الحادثـة الاخرى فهي عـبرة الشباب كما كانت الاولى موعظـة الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا في « ايفل» في ليلة عاصفة صليباً أكل السوس احشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحاً فوق الجسر بعد ان عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى السور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي اجرم هذا الجرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح ، او عبث به عابر طريق ، او هوى به ضعف الشيخوخة واعياء الهرم ، لا .. لا .. كل ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى الا ان يوجـد مجرماً .. هنالك اعلن مطران « اميـان » براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم او ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

ان الحرمان في الكثلكة جريمة هائـلة فظيعة قاتـلة متى أوحى بـه التعصب الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمان سبباً في ان القضاء عرف او ظن أنـه عرف ان ضابطـين اسم احـدهما « لابار » والآخر « ديتالون » مرا على جسر « ايفل » في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكراً ، وينشدان نشيـداً عسكرياً ، مراً بالجسر وانشدا النشيـد ، فهما المجرمان ، وكانت المحكمة تقدس « ايفل » ولم تكن بأقل عدلا وانصافاً

من « مجلس الكابيتول » في « تولوز » فأمرت بالقبض على الرجلين ، فاختفى « ديئالون » وقبض على « لابار » .

وأسلم الى القضاء ، فاعترف بالشبد وانكر المرور على الجسر ، فحكمت محكمة إيفل بالاعدام ، وأيد حكمها برلمان باريس ، فدنت الساعة المخيفة الماثلة .

لقد تفننوا في تعذيب « لابار » وارهاقه ليكشفوا عن سر فعلته ، وعن شركائه في جريمته ، أي جريمة المرور على الجسر ، وانشاد النشيد .

لقد عذبوه عذاباً أليماً ، حتى ان الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني ، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم الى ساحة « ايفل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضراما ، فاسمعوه نص الحكم ، ثم بتروا يده ، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دي لابار » كما مات من قبله « جان كالاس » .

احزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك عليك عواطفك وشعورك ، فصحت صيحة الرعب والفزع ، فكانت تلك الصيحة الحجر الاول في بناء مجدك الخالد العظيم .

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع الانساني لتكف عادية الظالمين ، وتقلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين .

فياأيها الرجل العظيم ! طبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء ، يغدو اليها الانسان لاهياً ، ويروح ساهياً ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضه فيرى ما تحته .

حدث ذلك وايام البلاط أعياد ، و « فرسايل » تتلألأ حسناً وبهاء ورونقاً ونماء ، وظرفاء الشعراء امثال « سان أولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع ، بذلك القضيب الحديد ، وان يستل لسان الفتى لأنه انشد الاناشيد .

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاد وقوة الاشراف ، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفع ، وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ، ونعامة بين يدي الملك ، تجثو أمامه خاضعة صاغرة ، الا ان جنبيها كان على جثة الشعب .. وقوة « الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة .. ولم يره اكبر من ان ينخذل .. ولم ير نفسه اصغر من ان ينتصر .

أتدرون ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها .. وتسبق الصاعقة في انقضاضها.. ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب ، وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الماثلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزاً مبيناً .

وكان « فولتير » قلباً وعقلا .. كان له رقة الفتاة في غلالتها [1] وشدة الاسد في لبدته .

« فولتير » محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة ، وارغم انف الكبرياء وأذل عز الرؤساء ،ورفع السوقى الى حيث لا يصل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن .

علم ومدن وهذب ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سورته ، ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقي الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

اقف هنا قليلا اجلالا لابتسامة « فولتير » .

« فولتير » هو الابتسامة ، والابتسامة هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم ان يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .. كان عقله ميزان اعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابساً مقطبا ، فما هي الا كرة الطرف ان ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

تكاد تكون ابتسامته ضحكا ، لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل .

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء، ويرتاح لها الاولياء.

كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت اشعتها كاشعة الفجر ، تمحو الظلام وتبعث الانوار .

نعم الابتسام ، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، وبدد ظلمات التقليد .

ان ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة ، فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام ، سواء أسكن القصر الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام اجنحته البيضاء على المجتمع الانساني

فقرّت السيوف في الاغماد ، وهدأت الدماء في العروق ، والارواح في الاجسام ، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء ، والعفو عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الاكبار .

هل كان « فولتير » يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا : بل كان يغضب احياناً في سبيل الحق .

ان التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، وان الفلسفة هي الاعتدال وامتلاك ازمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها ، الا ان حب الحق يجب ان يكون دائماً في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الاولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الامل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصالح : لأن الاول صورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فاذا انقلب العدل ظلماً ، والامل يأساً ، عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أؤمن بك » وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضباً ، فيحاكم القضاء امام العدل والكهنوت امام الله ، وكذلك فعل فولتير ، فكان من المحسنين .

ان الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً الا قليلا ، وكلما كثر

العظماء حوله ارتفع شانه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة الباسقة تكون في الغابة الشجراء أطول منها في التربة الجرداء ، لانها تكون بين لداتها واترابها ، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة : روسو وديدور وبوفون وبورماشيه ومونتسكيو ، اولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الاشياء ، والتفكر الصحيح الموصل الى اتقان الاعمال ، وعلموهم ان صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل ، فاجادوا وأفادوا .

مات اولئك القوم العظماء ، وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً ، اما الجسد فقد طواه القبر ، واما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

اجل ، ان الثورة روحهم ، والمظهر الساطع المتلالىء بحكمتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة ابطال الثورة المقدسة ، التي هي خاتمة الماضي ، وفاتحة المستقبل .

انك تراهم بعين بصيرتك ، في كل مواقفها ومواقعها ، واذا استطعت ان تنفذ بعين بصيرتك في مواطن الاشياء،رأيت على نور الثورة الساطع ان ديدور كان واقفاً وراء دانتون ، وروسو وراء روبسبير ، وفولتير وراء ميرابو ، ووجدت ابطال الثورة صنيعة ابطال الفلسفة (١)

ان الكلمة الاخيرة التي انطق بها في هذا الموقف العظيم ، هي دعاء

(١) دانتون ، وروبسبير ، وميرابو : أبطال الثورة الفرنساوية .

المجتمع البشري الى التقدّم بهدوء وسكون ، وثبات ووقار .

ولقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها ، وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي ، فمن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكاناً في هذا المجتمع ، فان فعلت كان أليق الاسماء بها اسم الاستبداد .

ان المجتمع الانساني انكر على القوة حقها المزعوم ، وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقضاها بين يدي الحق ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، فقضي عليها « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » .

شف ثوب الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فاصبح الابطال والمجرمون في نظر الانسانية سواء لانهم جميعاً يسفكون الدماء.

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة : وهي ان الجرم العظيم اصغر من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان ان قتل الشعوب اكبر إثماً، واعظم جريرة من قتل الافراد ، واستكبر ان يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً ، وبالجملة : عرف ان الجريمة جريمة ، حيثما حلت ، وفي اي مظهر ظهرت ، وان القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً ان يسمى القيصر او يدعى الامبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك ، او قلنسوة الاعدام ! .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب اشد الاحتقار ، ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

ان منظر الدماء والأشلاء افظع منظر .

لا يعقل ان يكون الشر طريق الخير ، وان يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي : خففن من احزانكن فقد اوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ اكبادكن .

أتشقى المرأة فتلد ، ويغرس الزارع فيكسو الارض بساطها الاخضر ، ويجد العامل فيملأ الخزائن فضة وذهبا ، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات ، حتى اذا اخذت الارض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟ !

آه ... اننا لا نستطيع مع الاسف ان نخدع أنفسنا ، وننكر ان الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها ، وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية .

فلنذكر عند ملوك الحرب : فولتير وجان جاك وديدور وموتتسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجوهنا الى تلك الروح العالية ، الى تلك الحياة العظيمة ، الى ذلك الدفين المقدس ، الى فولتير ، ولنجث امام قبره ضارعين متوسلين ، عسى ان يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا الى

حظيرة السلام المقدسة ، فانـه وان مر قرن عـلى موته لم يزل في الأحياء الخالدين .

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال : كفى كفى انها همجية ، انها وحشية ، انها تشوه وجه المدنية الجميل .

ان أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق الى البشر .

فلنضرع اليهم في تذكارهم هـذا ان يتداركوا الفتنة قبـل وقوعها ، وينادوا : ان الحياة ملك الإنسان ، وعزيز عليه ان تسلب منه ، وان التمتع بالحرية حـق من حقوق العقول والافكار ، فـلا يعترض سبيلها معترض .

ان النور لا أثر له بين اضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور .

العلماء والجهلاء

لا تحسبن ان الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام، او ان بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما، وانزالهما منازلها، فالعلماء والجهلاء — ان دققت النظر — سواء لا فرق بينهما الا ان هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، واولئك يعلمونها مبعثرة، وان هؤلاء يحسنون البيان عنها واولئك لا يبينون.

ومن نظر الى الاشياء نظراً نافذاً وجد ان المعاني الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياتيه المادية والمعنوية، يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم، كبارهم وصغارهم، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفق من الخارج، ولأن المعلومات كامنة في النفوس

كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم الا استثارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها .

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم ، الا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضية من قضايا الاخلاق التي تعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق ، الا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومذلة بين أيدي الغوغاء والأميين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، او معنى غريباً .

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون احاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، او أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل ، بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بافكار تشابه أفكارهم ، وآراءهم .

ولا أخشى باساً ان قلت : ان علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لانه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل ، حتى إنك لتجد في بعض الاحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه ، وما يترفع أضيق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً ان يحمل

له شاناً ، او يقيم له وزناً ، وثانياً : لانه يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره عل الجوارح ، وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وان كان صحيحاً ما يقولون من ان العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء .

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ،ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الالقاب .

ان في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه ، وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى ـ ينشدون فلا يجدون ويجدّون فلا يصلون ـ لدليلاً على ان الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات ، وان حقائق الاشياء واسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده ، ولم يمنحهم الا بلة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقاً كلما تذوقوا طعمها :

ضريبك في بني الدنيا كثير   وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا   قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب ان رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطر من سطور كتابي هـذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقـلاء ، الذين يحبونك حباً جماً ، ويعتقدون أنـك فريد في أدبـك ، فريد في قلمـك ، فريـد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا ان نوجه اليك السؤال الآتي راجين منك الاجابة عليـه :

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحـكم عـلى المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع ان جريمتهما واحدة ؟

هذا ما أردنا ان نسترشد برأيك فيه ، والسلام ؟

« سائل »

يعتقد كثـير من الناس ان الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقـل ، وعندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطاوا في الاخرى .

تستطيع المرأة ان تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ، ولا تستطيع ان تجاريه في الاناة والرفق وامتلاك هوى النفس ، والاخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب .

تستطيع المرأة ان تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والاطوار ، وان تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع ان تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لان بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوى غير هواه ، ولان لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه .. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفت معه في موقف الا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً .. لانه يعرف السبيل الى قلبها .. ولا تعرف السبيل الى عقله .

لا تعجب ان قلت لك : ان الذكاء غير العقل ، فاللصوص والمحتالون والمزوّرون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء .. وليس بينهم عاقل واحد .. لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك ، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً .. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون ؛ حتى انك لا تكاد ترى ذكياً من الاذكياء ، الا وترى له في شؤونه وأطواره احوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل .. ولا قاعدة من قواعد الطبيعة . وعندي ان اكثر ما يصيب النوابغ والاذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد الى ضعف في عقولهم .. ونقص في تصوراتهم ، وبعد . فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد

الشجاع .. وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه اذا كان طائشاً أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن او الغضب .

فما يغني المرأة ذكاؤها اذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك بيدها ان تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن .. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهن ان ينازعني فيه مع شدة ذكائهن .. ولا في استطاعة انصارهن من الرجال ان ينقضوه .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

لولا ان الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان .. وذلك الغلب .. ولا استطاع ان يقودها وراءه كما يقاد الجنيب [1] ولا ان يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها ، والخروج عليها .

القويّ يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان ، وشأن الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان ، لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته ، حتى اصبح سيد الحيوان فمدّن المدن ومصّر الامصار ، وشاد وبنى ، وتأنق وترفه ،

(١) الجنيب : المهر الذي يقاد الى مهر آخر .

ثم طرد صاحبه الى الصحارى والرمال ، ورؤوس الجبال ، يأكل بعضه بعضاً ، ويتفانى شقاء وجهلا ، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والابوة والامومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلاً عليها في قوة العقل والتدبير .. وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب فابى الا ان يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

ملك عليها جسمها لانه حجبها عن النور والهواء فاذعنت .. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها ان ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها اكبر من دنبه ، وان جنايتها ضعف جنايته فصدقت ، وطلب منها ان تسلم اليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت .. واصبحت تنظر الى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها ، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها ، كما ينظر اليها هو بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فاذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه .. وملأ قلبها هولاً ورعباً واوسع نفسها تقريعاً وتانيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة .. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة .. وما كان له ان يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها ، لأنه شره طماع محب لذاته ، ولا ان يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم ، لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل ، لاستطاعت هي ان تحجبه في المنزل ، وان تتولى التصرف في شانه ، وان تعبث بعقله ما شاءت ،

فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وان تنفذ الى قلبه فتلعب بـه لعب الصبي بالكرة ، وان تحدثه فيصدق ، وتامره فياتمر .. وان تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد ان أقول : ان هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد ان اقول : ان هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر .. والحكم الجائر .

وجملة القول : ان حـكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم ، ولو أنه أنصفها لعرف فرق مـا بينهما في القوة العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة .. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولان نساءه ساذجات بسيطـات ، يصـدقن الرجـال في أقوالهم ، وينظرون الى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم ، فإن أردنا ان تنال المرأة حقها من الرجل ، وان تنتصف منه . فليس سبيلها الى ذلك المغالبة والمصارعة . فانها اضعف منه جسما وعقلاً . بل السبيل اليه ان نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها واعظامها ، وان تعلمه ليستطيع ان يكون شخصاً كريماً ، وإنساناً رحيماً .

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً الى ترك ضلالة من الضلالات او بدعة من البدع ، الا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك ، او يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب باحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الاجسام ارواحها ، باقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .. ولا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم الا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها ، لأنهم يحاولون ان يرزءوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .

الدعاة احوج النـاس الى عزائم ثابتـة ، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغاية الـتي يريدونها او يموتوا في طريقها .

الدعـاة الصادقون لا يبالون ان يسميهم الناس خونـة او جهـلة او زنادقة او ملحدين ، او ضالين، او كافرين، لأن ذلك ما لا بد ان يكون .

الدعاة الصادقون يعلمون ان محمـداً صلى الله عليـه وسلم عاش بـين أعدائـه ساحراً كـذاباً ، ومات سيد المرسلين ، وان الإمام الغزالي عاش بالكفر والالحاد ومات حجـة الاسلام ، وان ابن رشد عاش ذليـلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه اذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ؛ فهم يحبون ان يكونوا امثال هؤلاء العظماء احياءاً وامواتاً .

سيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولاً ، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس واحمق الناس .

هذا مـا يوسوس بـه الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهـذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فامسك ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والارشاد ، فاصبحوا لاعمـل لهم الا ان يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الاذهان ، وتبلدت المدارك ، واصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلـع عليه الشمس ، ولا ينفذ اليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغشى العقـل ، والعـلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً . فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى اذا أتت عليـه انكشف له الغطاء فرأى النـار نوراً ، والألم لذة وسروراً .

لا يستطيـع الباطل ان يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنمـا يصرعه جهـل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبتـه ، واغفالهم النداء به والدعاء اليه .

محال ان يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنمـا يهدمـه افراد متعددون ، في عصور متعددة ، فيهزه الاول هزة تباعد مـا بـين احجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء اطباء ، ولا يجمل بالطبيب ان يحجم عن العمل الجراحي فراراً من ازعاج المريض، او خوفاً من صياحه وعويله ، او اتقاء لسبه وشتمه ، فانه سيكون غداً اصدق اصدقائه واحب الناس اليـه .

وبعد : فقليل ان يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً اليها الا اذا كان خائناً في دعوته ، سالكا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته ، وقليل ان ينال حظه من اكرامها واجلالها الا بعد ان تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة[1] الارض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

اصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون الى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع ان يحمل في سبيل الدعوة ضراً، او يلاقي في طريقها شراً.

رأيت الدعاة في هذه الامة اربعة: رجلا يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجلا يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده، ورجلا لا يعرف حقاً ولا باطلا، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، فيدعو الى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، في موقف واحد. فكأنه جواد امرىء القيس الذي يقول فيه:

* مكَرٍّ مفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً *

ورجلا يعرف الحق ويدعو الأمة الى الباطل دعوة المجد المجتهد، وهو أخبث الاربعة واكثرهم غائلة، لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه الا اذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوّها في ثياب صديقها،

(١) الكظة: البطنة.

لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد . فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الاربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها ؟ !

ما اعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها ، فقد اصبح دعاتها في حاجة الى دعـاة ، ينيرون لهم طريق الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها . فليت شعري متى يتعلمون ، ثم يرشدون ؟

●

الحياة الذاتية

اكثر الناس يعيشون في نفوس الناس اكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون الا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدّخلة في حياة الآخرين ، فلو فتش عنها لا يجد لها أثراً الا في عيون الناظرين، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين .

يخيل اليّ ان الانسان لو علم ان سيصبح في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم لا يجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره ، لآثر الموت على الحياة علّه يجد في عالم غير هذا العالم – من آذان الملائكة او عيون الجنة – مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

اذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فاي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكاثرة متعددة ، إنما هي

حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صورها ، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قـددا ، ونحسب كل موجة من امواجه قسماً من اقسامه ، فاذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجـد لجزء من اجزائه حـيزاً مستقلا ، ولا وصفاً ثابتاً .

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية ، الا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه واطواره وآرائه واعماله ، الذي كثيراً ما نسميه مجنوناً ، فان رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً ، ونريد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولى شان الانسان ، وتغيير نظاماته وقوانينه ، وينتقل به من حال الى حال بما يغير من عاداته ويحول من افكاره .

أية قيمة لحياة امرىء ، لا عمل له فيها الا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى بـه النـاس ، فيأكل مـا لا يشتهي ، ويصدف نفسه عمـا تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره، ويقصم ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق امعاءه ، ويأكل احشاءه ، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك، ويبتسم لعدوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك ــ أي عـلم المداهنة والملق ــ زمنـاً لو انفق عشر مشعاره في دراسة عـلم من العلوم النابغة لـكان نابغته المبرّز فيه حرصاً عـلى رضاء الناس ، وازدلافاً الى قلوبهم .

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبـة في غرائز النـاس فـلو لم يذوقوها لمـا طلبوها ولا كلفوا بهـا ، ومـا جناها عليهم الا كلف

تاركيها برضاء شاربيها ، وما كان الترف خلقاً من الاخلاق الفطرية في الانسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه واثقال الحياة وأعبائها ، ما نغص عليهم عيشهم وافسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما ياخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة عرس ولده او ابنته ، فلا تجد لفعله تاويلا الا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الاذكياء ، وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملا متلففاً لا يجرؤ على اظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافةهزء الناس وسخريتهم، وعاقل لا يمنعه من الاقدام على اصلاح شان أمته وتقويمها الا سخط الساخطين ونقمة الناقمين .

وما اعجبت برجل في حياتي إعجابي باديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها الى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كانه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأى الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، او رضوا بها ؟ ولا يمسي متنقلا في المجامع والاندية ، مسائلا عنها كل غاد ورائح ، ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، او شراً فيبكي ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً ، كانما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين : احسنت واجدت ،

وأسات وأخطأت ، بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به ، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه غلو آرائه وافكاره، من مدح او ذم ، حتى كدت احمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، او العظمة والكبرياء ، لولا أني فاتحته مرة في ذلك وسالته : لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ، ولمَ لا تقرأ ما يكتبون عنك ؟ فأجاب : إنني ما اقدمت على الكتابة للناس في اصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، الا بعد ان عرفت أني استطيع ان انزل منهم منزلة المعلم من المتعلم ، للناس خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شان لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شان من شؤونهم ، فلا افرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، ولأني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث اليهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيع ان أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير او شر ، لأني راض عن طريقتي التي اكتب بها رسائلي ، فلا أحب ان يكدرها عليَّ مكدر ، وعن آرائي التي أودعها إياها ، فلا أحب ان يشككني فيها مشكك ،ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم ، فاقبل على الاول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم ان على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتألق ازهارها ، وان على يساره غاباً تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفح أفاعيه وصلاله ، فمشى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو

عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباعْ المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه ، وأما عامتهم : فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه ، فانا أحمد الله في أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فأكل أمره الى الله واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسراً ، فانا إنما اكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم انت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، فلو ان هذه الملايين الاثنى عشر التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً واحداً ينتفع بما أقول ، لكان الواحد المستفيد آثر في نفسي من الملايين المعجبين ، أتدري لمَ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها ؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ، فترى واحداً منهم يكتب وهمه المالىء قلبه ان يعجب اللغويين ، او يروق المنشئين ، او يطرب الادباء ،او يضحك الظرفاء ،ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده ان يتفقد المسلك الذي يجب ان يسلكه الى قلوب الذين يقول إنه يعظهم او ينصحهم او يهذبهم او يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ الى نفوسهم ، وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم، فيعدل بها عن ضلالها الى هداها ،وعن فسادها الى صلاحها،فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل

يوم الى الجوهري ليرصع له قبضته او الحداد ليشحذ له حدّه ، او الصقيل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به .

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو ان الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ، ولو كان الأمر كذلك لآثرت ان يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وافعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه ، أحبوه أم أبغضوه ، فإنما يبكي على الحب النساء .

●

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر ، واحسبني قادراً على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شانه ، وعظم وقته ، فلما مات «مصطفى كامل» علمت ان من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه .

كل يوم نرى الموت ، ولا نزال نعد الموت غريباً ، هيهات ! لا غرابة في الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب .

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نابه لها ، واكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا ، لانه كان غريباً في حياته ، فاحرى ان يكون غريباً في مماته .

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك ، لاننا ما كنا نرى الا أمواتاً ينتقلون من ظهر الارض الى بطنها . أما «مصطفى كامل» فكان حياً حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئاً اذا بذلوا لذلك الرجل العظيم

قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسناً اذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فانه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه ، ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه .

اين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، او قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ، من قطرات الحياة التي أراقها « مصطفى كامل » في سبيل وطنه وأمته ؟

كان « مصطفى كامل » سراجاً كبير الشعلة ، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكاً ، وتحترق ذبالته ، فينطفىء نوره .

كان « مصطفى كامل » نشيطاً سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح « مصطفى كامل » وأسمع في صياحه عرفوا ان آذان السياسة لا يخترقها الا الصوت الجهوري ، ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن به ، فلا يصدقون ان تربة مصر تنبت أمثال «فولتير ، وهوجو ، وغاريبالدي ، وواشنطون» فلما نبغ بينهم « مصطفى كامل » عرفوا ان تربة الشرق لا تختلف كثيراً عن تربة الغرب لو تعهدها الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على اوتار القلوب ، وكانما كان بينه وبينها سلك كهربائي ، فهي تتحرك

بحركته وتسكن بسكونه .

ما كان « مصطفى كامل » أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ولكنه كان اشجع الناس .

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينثني حتى الموت،كان يخطىء احياناً في اتخاذ الوسائل الى آماله ، ولكنه كان اذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسلك يسلك ، مخافة ان تفتر همته بين الاخذ والرد ، فيكون خطؤه في تردده اكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : إنك مخطىء او مضر ، او غير محسن ، او غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئاً كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هذا اليوم الذي اتفق فيه اصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومه واولياؤه ، على أنه رجل عظيم .

ما كان « مصطفى كامل » من الاغنياء ، ولا من بيت المُلك ، وما كان آمراً ولا ناهياً . ولا رافعاً ولا خافضاً . ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته .. ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويجلون المناقب والمزايا .

فيا أيها القارىء الكريم : ان كان لك ولد تحب ان تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة « مصطفى كامل » ليتعلم منها الشجاعة والإقدام .

ويا أيها المصري : كن احرص الناس على وطنيتك .. ولا تبغ بها

بدلاً من عرض الدنيـا وزخرفها .. فانـك ان فعلت كنت « مصطفى كامل » .

ويا أيها الإنسان : أقدم على عظائم الامور ،ولا تلتفت يمنة ولا يسرة واختـرق بسيف شجـاعتك صفوف المعترضـين والناقمـين والهازئـين والساخرين فـانهم سيعترفون بفضلـك ، ويسمونـك عظيمـاً كما سموا « مصطفى كامل » .

ويا أيها الراحل المودع : ان بين جنبي لوعة تعتلج لفراقك لا اعرف سبيلا الى التعبير عنها الا القلم .

وهانذا اعالج القلم علاجاً شديداً على ان يسعفني بحـاجتي ، وأقلبـه ظهراً لبطن ، واكثر من استمداده ، واضغط به عـلى القرطاس ضغطاً شديداً ، فلا أراه يغني عني شيئاً .

خطر لي ان الحزن سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصيرة التي في يدي ، فاستبدلت بهـا أداة اطول منهـا ، فكان حكمها حكم سابقتها .

إذن كيف أعبر عن وجدي أيهـا الفقيد الكريم ، وقـد خرس القـلم وعي اللسان ؟

الآن عرفت السبيل ووصلت الى ما أريد .

انت الآن في عالم الأرواح .. وقـد انكشف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب ،ولا بد ان يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي

من الوجد عليك .. والأسف على فراقك .. فما حاجتي بعد ذلك الى ترجمة القلم او تعبير اللسان .

أيها الراحل المودع : طبت حياً وميتاً ، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك ، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع ان الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين .

●

دمعة على الاسلام

كتب إليّ أحد علماء الهند كتاباً يقول فيه : إنـه اطلع عـلى مؤلف ظهر حديثاً بلغة «التاميل» ، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس .. موضوعه : تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني ، وذكر مناقبه وكراماته ، فرأى فيه من الصفات والالقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتاً وألقاباً هي بمقام الالوهية أليق منها بمقـام النبوّة .. فضـلا عن مقـام الولاية كقوله « سيد السموات والارض و «النفاع الضرار» و « المتصرف في الاكوان » و « المطلع عـلى اسرار الخليقة » و « محيي الموتى» و « مبرىء الاعمى والابرص والاكمة » و « أمره من أمر الله » و « ماحي الذنوب » و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجود التام » الى كثير من امثال هذه النعوت والالقاب !

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فصلا يشرح فيـه المؤلف

الكيفية التي يجب ان يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتوضأ وضوءاً سابغـا ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه الى تلك الكعبة المشرفة .. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين .. أغثـني وأمـدني بقضـاء حاجتي .. وتفريج كربتي . أغثـني يا محي الدين عبـد القادر .. أغثني يا ولي عبد القادر .. أغثني يا سلطان عبد القادر .. أغثني يا بادشاه عبـد القادر .. أغثـني يا خوجة عبد القادر » .

« يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتـاج اليك في جميـع الأمور في الدين والدنيـا والآخرة » .

ويقول الكاتب ايضاً : ان في بـلدة (ناقور) في الهنـد قـبراً يسمى « شاه الحميد » ، وهو أحد اولاد السيد عبـد القادر — كما يزعمون — وان الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله .. وان في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر .. فيكون القبلة التي يتوجه اليها المسلمون في تلـك البلاد والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم اليه .. وينفقون من الاموال على خدمته وسدنته .. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الارض جميعاً لصاروا اغنياء.

هذا ما كتبه اليّ ذلك الكاتب .. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الارض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيـني .. فما أبصر مما

حولي شيئاً .. حزناً واسفاً علـى مـا آلت اليـه حالة الإسلام بـين اقوام أنكروه بعد ما عرفوه ، ووضعوه بعد ما رفعوه .. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها .. ولا شان له بها .

أي عين يجمل بها ان تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع فـلا تريقها أمام هـذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر اولئك المسلمين ، وهم ركع سجد عـلى اعتاب قبر ربمـا كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته . فاحرى ان يكون كذلك بعد مماته !

أي قلب يستطيـع ان يستقر بـين جنـبي صاحبه ساعة واحدة فـلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين اصحاب دين التوحيد اكثر من المشركين اشراكاً بالله ، واوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين .. لم يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعـلام يحاربونهم ، وفـيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يغرقوا فيه إغراقهم ! ؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل . فيتأولون فيـه ويقولون ان الثلاثة في حـكم الواحد ، أمـا المسلمون فيدينون بالاف من الآلهة اكثرها جذوع اشجار ، وجثث اموات ، وقطع احجار ، من حيث لا يشعرون ! .

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً

لذلك اقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم الى سكان القبور ويتضرعون اليهم تضرعهم للإله المعبود فاذا عتب عليم في ذلك عاتب ، قالوا : إنا لا نعبدهم ، وإنما نتوسل بهم الى الله ، كأنهم يشعرون ان العبادة ما هم فيه ، وان اكبر مظهر لألوهية الإله المعبود ان يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون إمداده ومعونته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الاموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم،ولا يكون لذى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل . وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ،وإباء وغيرة ، يضربون على يد الظالم اذا ظلم ،ويقولون للسلطان اذا جاوز حده غيرها سلطانه : قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما انت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا الى المنزلة الدنيا ، فوجد اعداؤهم السبيل اليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم واموالهم ومواطنهم وديارهم فاصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها الا اذا استرجعوا قبل ذلك ما اضاعوه من عقيدة التوحيد، وان طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه، اقرب من رجوع الإسلام الى سالف مجده، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني: «انت المتصرف في الكائنات، وانت سيد الأرضين والسموات».

ان الله أغير على نفسه من ان يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً، فاذا نزلت بهم جائحة، او ألمت بهم ملمة. ذكروا الحجر قبل ان يذكروه، ونادوا الجذع قبل ان ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنسة [1]» تهافت الذباب على الشراب؟أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية! أم علماء العجم وهم الذين يحجون الى قبر الإمام كما يحجون الى البيت الحرم، أم علماء الهند وبينهم امثال مؤلف هذا الكتاب.

يا قادة الامة ورؤساءها، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا ان العامي اقصر نظراً واضعف بصيرة من ان يتصور الألوهية إلا اذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والاضرحة والقبور، فما عذركم أنتم

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه.

وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرؤون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله » وقوله مخاطباً نبيه : « قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » وقوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » فهل تعلمون ان السلف الصالح كانوا يجصصون قبراً ، او يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون ان واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، او قبر احد من اصحابه وآل بيته ، يسأله قضاء حاجة ، او تفريج هم ؟ وهل تعلمون ان الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله واعظم وسيلة اليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً ؟ أم مخافة ان تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الاضرحة والقبور ، ما دام كل منها يجر الى الشرك ، ويفسد عقيدة التوحيد ؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاض أمركم ، وسلط عليكم اعداءكم يسلبون اوطانكم ، ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

السياسية

حضرة السيد الفاضل :

ما لـك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية ، إكثارك منهـا في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية ؟ وكيف يضيـق بالسياسة قلمك ، وقـد وسع ما هو أدق مذهباً منهـا ، فاكتب لنـا في السياسة ، فأمتك تحب ان تراك سياسياً ، والسلام .

« فلان »

أيها الكاتب :

يعلم الله أني ابغض السياسة واهلها بغضي للكذب والغش ، والخيانة والغدر .

أنـا لا أحب ان اكون سياسياً ، لأني لا احب ان اكون جـلاداً ، لا فرق عنـدي بـين السياسيين والجلادين ، الا ان هؤلاء يقتلون الافراد ، واولئك يقتلون الامم والشعوب .

هل السياسي الا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين افرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا اعظم كيداً ، ولا اكثر دهاء ومكراً ، فنصبته للقضاء على الامم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، واجزل لها من الخيرات ؟

أليس اكبر السياسيين مقاماً ، واعظمهم فخراً ، واسيرهم ذكراً ، ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً الا اذا كان كاذباً في اقواله وافعاله ، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن ، ويبسم في موطن البكاء ، ويبكي في مواطن الابتسام ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً .. الا اذا عرف ان بين جنبيه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارق ، فاذا قضى مأربه من عمله .. رفع يديه الى السماء متضرعاً الى الله تعالى ان يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً ، وكثيراً ما يقتل القاتل ، فاذا فرغ من أمره ، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها ،ويتمنى بجدع الأنف لو رد اليه حياته ،وافتداه بنفسه . أما السياسي فلا يرى يوماً في حياته اسعد من اليوم الذي يعلم فيه ان قد تم له تدبيره في هلاك شعب . وقتل أمة ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره ــ كما يسميه هو ــ او في يوم جريمته ــ كما اسميه انا وتسميه العدالة الإنسانية ــ يسمع هتاف الهاتفين باسمه ، واسم الجريمة التي ارتكبها

مطمئن القلب ، مثلج الصدر ، حتى ليخيل اليه ان الفضاء بارضه وسمائه اضيق من ان يسع قلبه الطائر المحلق فرحاً وسروراً .

يقولون : ان السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة او يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة افكار قانونها التجارب ، وقاعدتها العمل .. اتدري لماذا ؟

لأن العلماء اشرف من ان يدونوا المكايد والحيل في كتاب .. ولأن المدارس اجل من ان تجعل بجانب دروس الاخلاق والآداب ، دروس الاكاذيب والاباطيل ، والا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علماً .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي اخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظن يا سيدي ان رجلا نصب نفسه لخدمة الحقيقة ، ومناصرتها على الباطل ، واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الاخلاق ..وملأ في رسائله فضاء الارض والسماء بكاء على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع ان يكون سياسياً ، او محاسباً للسياسيين ؟

★

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : ان الكتاب يعرف بعنوانه .. فاني لم أرى بين كتب التاريخ اكذب من كتاب « بدائع الزهور » ولا اعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب اسخف من كتاب « جواهر الأدب » ولا أر من اسمه ، كما لم أر بين الشعراء اعذب إسماً ، واحط شعراً من « ابن مليك » و « وابن النبيه » و « الشاب الظريف » .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول : ان العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها .. وألصق باضدادها منها بمنطوقاتها ، وان العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل .

الأتقيـــاء :

لولا خداع العناوين مـا سمعنا صالحاً تقياً كل من حرك سبحته .. واطال لحيته ، ووسع جبته ، وكور عمامته ، ولقد نعلم ان وراء هذا

العنوان كتاباً اسود الصفحات كثير السقطات ، وان تحت هذا الستار الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة ، لا ينفذ اليها شعاع من اشعة الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله ، او في سبيل الجماعة من ذات نفسه ، او ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود بالشفاه للهمهمة ، والانامل للمسبحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له اكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه ، وتحريك هدبيه ، وهل خلقت الشفاه الا للتحريك ، والانامل الا للتقليب .

ان الإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فان بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه .. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها . فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب او لا فاهون بهمهمته ومسواكه ومسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب اجدر منه بعنوان التقي الصالح « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

الأمجاد :

يقولون ان الـ لد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورته ، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بني البانون قاعدة الجـ ، فاعظ لرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في

النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس، او شريف من شرفاء الاخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف، ويتوسعون في معناه، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا، والسفاحين الذين يسمونهم قواداً، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء، فساقهم الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد فسموا ماجداً كل من ولد في فراش ملك وان كان الحاكم بأمر الله، او امير وان كان الحجاج، او وزير وان كان ابن الزيات، او قائد وان كان تيمورلنك، او غني وان كان قارون .

لا مجد الا مجد العلم ولا شرف الا شرف التقوى، ولا عظمة الا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة، رحمة بها وحناناً عليها .

اولئك هم الأمجاد، واولئك الذي يفخر الفاخر بالاتصال بهم، والانتماء اليهم، واولئك هم المفلحون .

الأغنياء :

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الارض وراء لقمة يتبلغون بها او خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء، وهبة النكباء، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيباً على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوي الافاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة، اسوأ حالاً ولا أنكد عيشاً، ولا اعظم

شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس اغنياء .

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويشتهي كما يتشهى حتى لتكاد تثب امعاؤه من جوفه وتسيل احشاؤه من بين أشداقه . شوقاً الى ما حرم على نفسه من اطايب العيش ولذائذه ، ويستن[1] استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل اوصاله ، حتى لو تخيل ان نجوم السماء دنانير منثورة ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاوياً ، او ان في بطن الارض كنزاً مذخوراً ، لتمنى ان لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعته فاصبح من الهالكين .

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ، ولا تقف به نفسه عند مطمع .

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون :

حضرت مجلساً من مجالس الاحكام ، حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفاً ، فوضعت يدي على فمي مخافة ان يخرج أمر نفسي من يدي فأهتف صارخاً لما ألم بقلبي من الرعب والفزع ،صرخة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج الثائر ، في البحر الزاخر قائلاً فيها : مهلاً رويداً أيها الحاكم الظالم، فانت الى قاض عادل تقف بين يديه، احوج منك الى كرسي

(١) استن الجواد : عدا عدواً شديداً ..

فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا العابر بين يديك لبت وأعلا كما الاسفل .

إنـك ترتزق في كل شهر ثلاثـين ديناراً ، فـلم ترتش الا لأنك شره طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف الا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته التي فعل ، فانت مجرم الا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف الا أنه في شملة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيهـا العناوين .

ربّ نفس بين جدران السجون اطهر قلباً ، وأنقى ردناً ، وابيض عرضاً ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه الى وقفة بـين اعواد المشنقة ، كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل النفوس الطاهرة ، او ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة الف او يزيدون ، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع ، او ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها ، فيستعبد احرارها ، ويستذل اعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهناءتها .

المتمدينون :

ليس بين المصري وبين ان يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب

العصري او الإنسان الراقي الا ان يصقل جبهته ، ويصفف طرته ،ويفتح فمه للابتسام المتصنع ويقوّس يده للسلام المتعمل ، ويكثر في حديثه من ذكر المدنيـة الغربية وشؤونها ، وسرد اسمـاء نسائها ورجالها . وطرفها ونوادرها ، ويستحسن مـا تستحسنه ـ وان كان البراز والانتحار ـ ويستطرف ما تستطرفه ـ وان كان الزندقة والإلحاد ـ ثم يزعم أنه أرق الناس أدباً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأدقهم نظراً في إدراك سقطات الناس وعثراتهم ، وتحليل طبائعهم وغرائزهم . ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين ان يكون فاسقاً ينتهك الحرمات او مدمناً يترامى على اعتاب الحانات ، او احمق لا يصفح عن ذنوب ، ولا يغضى عن هفوة . وسفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانه ، ووالده واستاذه ، او وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ، ولا يستخـذى لمـروءة ، وشحيحـاً لا يشرك صاحبـه في مطعم ولا في مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر او طارق حائر ، زاعماً ان التمدين شيء وذاك شيء آخر . ان كان حقاً مـا يقولون من ان التمدين يصقـل الطباع الخشنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الاخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون .

لو كانـ بي ان اكتب لمحو الفساد من المجتمع الانساني والقضاء عـلى شروره وآثامه لما حركت يـداً ، ولا جردت قلمـا ، لأني أعـلم ان طلب المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضـلة من ضلالات العقول ، ولكـنني

اطلب مطلباً واحداً ـ لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه ـ هو ان يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافق تقياً ، ولا المتمجد ماجداً ، ولا البخيل غنياً ، ولا الفقير مجرماً ، ولا المتوحش متمدينا ، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ، ولا يستمر مسيء في إساءته .

* * *

الاغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون .

يسمع السامع ان زيداً ملك كريم ، ثم يسمع أنه شيطان رجيم ، فيخرج منه صفر اليدين ، لا يعلم اين مكانه من هذين الطرفين .

يقولون ان المشعوذين اذا أرادوا ان يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الارض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين .

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالجبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر الى الانقطاع .

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الاشخاص أنه جالس على كرسي القضاء ، وان الناس سيسالونه عما قال ، كما يسالون القاضي عما حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركب متن الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي ان يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب ان يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها ، وان لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الاشخاص ، وليس بينهم من لم يتمن ان يكون في موضع اولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان ، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره ، ولا سبيل الى رجوعه ، ولئن فاتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، وكما ان للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

ان من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم ان تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء ، وكل

مؤلف أعلم العلماء ، وكل خطيب رئيس الأمة ؛ وكل فقيه إمام الدين ، فأين الفاضل والمفضول ؟ واين الرئيس والمرؤوس ، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو ، ويكون عمرو غداً أفضل منه ؛ واين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟ وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم ان يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس ؟ !

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كاني رجل من رجال العصور الآتية ، وأني ذهبت الى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيته تارة عظيما وأخرى حقيراً ، ومرة شريفاً ، ومرة وضيعاً ، ورأيته عالما وجاهلا ، وذكيا وغبيا ، وعاقلا وممروراً [1] في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت ، لا أعرف من تاريخ الرجل اكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم !

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون ان تكونوا رجالا عادلين في احكامكم وآرائكم ، الا اذا اصلحتم نفوسكم أولاً ، وتعلمتم كيف تستطيعون ان تتجردوا من أهوائكم واغراضكم قبل ان تتناولوا اقلامكم .

---

(١) الممرور : المصاب بخبل في عقله .

أيها القوم : ان عجزتم عن ان تكونوا عادلين ، فكونوا راحمين ، فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها ، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات .

اللقيطة

مر عظيم من عظماء هـذه المدينة بزقاق من أزقـة الأحياء الوطنية في ليلة من ليـالي الشتاء ضرير نجمهـا ، حالك ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء [1] وقـد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود ، وليس في يدها ما تتقيه به الا أسمال تتراءى مزقها [2] في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين ، في أجسام المستعبدين .

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمـه مناظر البؤس ، وتزعج نفسه مواقف الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديـه وهي تصيح « لا أعود .. لا أعود » فـلم يزل يمسحهـا [3] ويروضها

(١) القرفصاء : ان يحتبي الرجل بيديه فيضمها على ساقيه وهو جالس .
(٢) المزق : القطع .   (٣) مسحة : أمر يده عليه .

حتى هدأ روعها وعاد اليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ، فنظرت اليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان .

ــ ما اسمك أيتها الفتاة ؟

ــ لا أعلم يا سيدي .

ــ بماذا ينادونك ؟

ــ يدعونني اللقيطة .

ــ وهل انت لقيطة كما يقولون ؟

ــ نعم يا سيدي ، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أماً ، في الأحياء ولا في الاموات ، سوى رجل يتولى شأني ، ويضمني اليه في منزله ، وكنت أحسبه أبي فيمتلىء قلبي سروراً به ، وعطفاً عليه ، فلما رأيت أنه يعذبني عذاباً أليماً ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أني وحيدة في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي ينادينني بها ، فالم بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت في الطريق ، ورأيت فتاة صغيرة سألتها ألك أم ؟ فتجيبني : نعم ، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطف أمها عليها ، ورأفتها بها ما يريدني هماً ، ويملأ قلبي ياساً ، حتى كان يخيل اليّ أنني اذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود ، بيد أني صبرت على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق، إبقاء على نفسي ، وضناً بحياتي ، ان تغتالها غوائل الدهر ، وكان كلما

رأى حاجتي اليه والى ماواه ، اشتط في ظلمي ، ولؤم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً مبرحاً كلما عدت اليه عشاء بـأقل من المبلـغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم ، ولم أزل اصابره واحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي ،ومصيبة المصائب ، فقد حاول ان يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر بداً من ان أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يراني . وما زلت امشي على غير هدى ، لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، حتى أويت الى هذا الزقاق كما تراني . فهل لك يا سيدي ان تحسن اليّ كما احسن الله اليك ؟ وان تبتاع لي رغيفا من الخبز اتبلغ به ، فقد مر بي يومان لم اذق طعاما ولا شرابا ؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر ، ثم أخذ بيدها ، ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلـغ قصره ، وهنـاك صنع بها صنع الكريم باهله ، وأبلغها من دهرهـا ما لم تكـن تمني نفسها بالوشل القليل منه ، ومـا هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من اجمل الفتيات وجهاً، وأرقهن شمائل .. وأكرمهن اخلاقـا ، واكملهن آداباً . . لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان الى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة

التي يسمونها « التربية العصرية » ويريدون منها التربية الأفرنجية فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي ، وكلبها الرومي .

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة .

(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .

(٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى ابويها .

(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً ، حتى إنها لا تستطيع ان تسمع وصفاً من اوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد اصبحت تقاسمها قلب ابيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع . وعذوبة في النفس ، فاضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضمره دائماً امثالها من اللواتي ربين تربيتها ، ونهجن في الحياة منهجها ، فكانت تتعمد اساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكيتها وتانيبها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول الى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو صاعد في السلم اذ عثر برقعة ملقاة ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة :

سيدتي :

انا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة .

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت بـه الارض الفضاء ، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه ام لا يزال باقياً فيه ، ثم كأنه اراد ان يخفف ما الم بنفسه من الحزن والقلق فقال : لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم ان اتعجل باتهام ابنتي قبل ان اقف على الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع ادراجه ، ومـا زال يترفق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة الى شجرة حتى وصل الى شجرة اللقاء فكمن وراءهـا ينتظر ما خبا له الدهر من حدثانه ، ومـا اضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة ، بـل رسالة السيدة الشريفة . وبينا كانت الثانية واقفة في غرفتها امام مرآتها تختار لنفسها اجمل الأزياء واليقها بموقف اللقاء ، كانت الاولى نائمة في غرفتها نوماً هادئا مطمئنا لا تزعجه زورة الطيف ، ولا تروعه احلام الشباب ، حتى سمعت وقع اقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه فاشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء .. وعرفت ان سيدها سيقف عـلى سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانه زمنـاً طويلاً . . وانه لا بد قـاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً ويأساً .. فعناها من امره ما عناها ، ثم اطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هـذه النازلة ، وتتطلب المخرج منها ، ثم رفعت رأسها ، وقد قررت في نفسها امراً .

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر الى ذلك الموعد فادركتها ، وامسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت اليها وقالت لها : ماذا تريدين مني ؟ أتتجسسين عليّ ! ! قالت لها : لا يا سيدتي . . وأفضت اليها بالقصة من مبدئها الى منتهاها ، فسقط في يدها ، وعلمت ان اباها قد وقف على سرها ، فقالت لها : لا تزعجي نفسك ، فإن اباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي الى غرفتك ، وسأذهب الى الموعد مكانك ، حتى إذا رآني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في امرك .

ثم استمرت ادراجها حتى وصلت الى تلك الشجرة ، وهنالك برز الرجل من مكمنه ، واقترب منها حتى عرفها ، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

ايتها الفتاة : إنني احسنت اليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إليّ بما فعلت ، حتى كدت الليلة اهلك حزناً وكمداً ، وألصق بابنتي ذنبك واحمل عليها عارك ، فاخرجي من منزلي ، فاللئيم ليس اهلا للإحسان .

فخرجت خائبة تتعثر في اذيالها ، حتى وصلت الى شاطىء النهر ، وهنالك اخرجت مذكرتها من محفظتها ، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها اناملها :

« احمد الله اني قدرت على مكافاة الرجل الذي احسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه » .

ثم ألقت بنفسها في النهر ، وما هي الا دورة او دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها ، فطفا منهما ما طفا ، ورسب ما رسب .

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها ، وعادوا بها الى منزل سيدها . . فبكاها بكاء كثيراً وندم على ما اساء به اليها من طردها وازعاجها ، ثم امر بدفنها ، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر للرجل من اخلاق ابنته وطباعها ، وتهتكها واستهتارها ، ما لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ضاق بامرها ذرعاً ، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق اليه الدهر من خطوبه ورزاياه ، ثم ألم به الضجر ، فقام الى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به ، فعثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم ، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبتها الفتاة على شاطىء النهر قبل موتها، فما اتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت .

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم ، ولبث على هذه الحال بضعة اشهر ، يمرض ثم يبل ، ثم يمرض ثم يبل ، حتى ادركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض الا بانقضاء اجله .

فيا ايها الوالد المجهول ، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا

الوجود الزاخر ، اعلمت قبل ان تفعل فعلتك التي فعلت انك ستبرز الى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله ؟

ويا ايها الآباء العظماء : ان كنتم تريدون ان تسلموا بناتكم الى هذه المدنية الغربية تتولى شأنهن ، وتكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة ، حتى اذا رزأكم الدهر فيهن . وفجعكم في اعراضهن وقفتم امام ذلك المشهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون .

ويا ايها الناس جميعاً : لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور ، ولا تعتقدوا ان الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء ، فقد علمتم ما اضمر الدهر في طيات احداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء .

*

الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور ، ويبلـغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتـح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء باخذ نحو الربـع مما فيه، والباقي يوزع على اصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدُّون بالمئات ، فهل ترون ان هذه القسمة شرعية ، مـع ان الذين يأخذون الألوف أغنياء والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟

افتنا ايها السيد الفاضل بمـا يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هـذه المسألة التي اصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس ؟

« ابن جلا »

ايها السائل : اراك تسالني عن القسمة الشرعية في هذا المال كانك تعتقد انه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم اصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورّثين .

ان الذي اعلمه ان هـذا الحق المزعوم حق موهوب ، لا يستطيع ان يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المـال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك ان يهبوه احداً من السدنة والخدم ولو ان ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق « ولكنهم لما تصوروا ان ذلك الميت حي في قـبره يسمع نجواهم ، ويفهم حديثهم ، ويلبي دعـاءهم ، تجسم في نظرهم هـذا الخيال ، فارادوا ان يعطوه جميع احكام الأحيـاء وصفاتهم حتى حب المـال وادخاره ، فخيل اليهم ان ان الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المـال ويضعونه في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده .

اما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم .

فإن وجـد بينهم من يعلم ان مرجع هـذا المـال الى سدنة الضريح ، وخدمته فعلمه هـذا لا يستفاد منه ان يهبه لهم ، او يمنحه إيـاهم ، لأنهم لو ارادوه عـلى ان يعطيهم ذلك المـال ، او يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي ، لما وسعه ذلك ولا رأى ان فعله أن عمل عملاً صالحاً .

بل هو يعتقد ان اخذهم المـال من الصندوق بعد ان يضعه فيه أمر لا عـلاقة له به ولا شأن له فيه ، لأن المـال قد خرج من يده الى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حـالاته وشؤونه لا يهب هبـة صحيحة ، ولا يتصرف

تصرفاً شرعياً ، ولا يضع صدقة في موضعها ، ولا يطرق باباً من أبواب البر المسنونة .

وعندي ان مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه الى غير يد ، وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يعتبر مالاً مهملاً ، لا صاحب له ، ولا علاقة لاحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال ان ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها ، وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة انصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدماً ، كعامة فقراء المسلمين ، لا من حيث ان له صلة بصاحب الضريح تسوّغ له ان يكون من ذوي الانصبة والسهام في صندوقه ، فإن أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الاولى . فلا هيا كل اليوم ولا سدنة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا اقراط تعلق في آذان الاصنام ، ولا عقود تقلد بها اعناق الاوثان ، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم ، وانما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ، لا فضل لاحد منهم على احد

إلا بالتقوى ، ولا زلفى لاحـد يزدلف بهـا اليه إلا يقينه وإيمانه ، وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المسألة وهـذا ما اعتقده فيهـا ، ولا اعلم ان كنت ارضيت الناس فيما كتبت او اغضبت ، وإنمـا أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي ، وحسبي ذلك وكفى .

* * *

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن ابرازهـا اللسان ، فابرزتها الألحان فهو افصح الناطقين لساناً ، وأوسعهم بياناً ، وأسرعهم نفاذاً الى القلوب وامتزاجاً بالنفوس ، واستيلاء على العقول ، وأخذاً بمجـامع الأفئدة ، وبيان ذلك ان النطق ثلاث طبقـات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها ، فادناها النثر وأوسطها الشعر ، وأعلاهـا الغناء ، فلو أن عاشقاً برّح به الهجر مثلا فاراد ان يبلغك ما في نفسه من ذلك ، فإن قـال لك : إني مهجور ، فحسب ، فقد أبلغك بعض مـا في نفسه . وترك في قلبك من الاثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير ، وإن انشدك قول الشاعر :

فواكبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات مـا لهن فنـاء

او قول الآخر :

كأنـ قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدّة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال ، وصوّر لك خواطر نفسه بصورة اوضح من الصورة الاولى ، وترك في نفسك أثراً اعظم من الاثر الاول ، وان رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النا　　زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا　　بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صوّر لك قلبه كما هو . وألمسك موضع الألم والحزن منه ، فبلغ بك التاثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزناً ورحمة ، وما بكيت إذ بكيت الا لان الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة الا نطق بها لك واسمعك اياها ، وكما ان الابيات قيود المعاني كذلك الالحان قيود الابيات، فلا يزال المعنى مشرّداً ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر. فإذا هو مستقر في مكانه ، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في الصدور .

والغناء فن من فنون الطبيعة ، تهتدي اليه الامم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير المياه ، وحفيف الاشجار . فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله او ناقته فينشطان للمسير ، وما زال هذا الفن مبتدياً ببداوة الامة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال ، ومناغاة الاطفال ، حتى اذا انتقلت من مضيق الحاجيات الى منفسح الكماليات ، وتوسعت فيه وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفننت في آلاته وأدواته ، وكذلك كان

شان العرب في جاهليتهم ، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنـة . فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنـات وتعدادهـا ، والشطر والتفعيلة يوازنـان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكانما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هـذا النوع من الموسيقى . وهو نوع التنـاسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هـذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لهـا من حضارتها وتمدينه متسع للبراعـة في هـذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، يلحنون بها اشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بهـا اشعارهم تلحيناً بزوا فيه أساتذتهم ، وولدوا ألحاناً وأنغاماً لم يات بها من قبلهم ، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ، وطويس ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحـاق ، وابراهيم بن المهدي ، ومعبد ــ الذي طـالمـا ضربت به وبحسن صوته الامثال عـلى ألسنة فحول الشعراء . كقول أبي عبادة البحتري في وصف فرس كان اهداه اليه احد الامراء :

هزج الصهيل كأن في نبراته   نغمات معبـد في الثقيـل الاول

والثقيل والخفيف الاول والثاني اسماء اصطلح عليها العرب ومرجعها

الى حركات الاصابع الخمس في أوتار العود الخمسة شدة وضعفاً ، وما أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليل الى التراب يسوفه[1]
وهواك عندي كالغناء لانه حسن لديّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته في ذلك العهد ـ عهد الصدر الاول ـ وشدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك او يتخلقه، فقد كان للمغنين الشان الرفيع في مجالس الخلفاء والامراء ، والنصيب الاوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو في ذلك ، فسلطان الوجدان فوق سلطان الاديان ، ولقد بلغ من شان المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن اسحاق الموصلي شتم ابراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل ، فما استطاع اخو الخليفة ان ينتصف لنفسه منه هيبة واجلالا ، وكان ابن عائشة المغني لا يغني الا الملك ، او ولي عهده ، حتى كان الخليفة اذا أراد ان يختار من بين ابنائه من يعهد اليه بالامر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً ، بل ياذن لابن عائشة ان يغني عنده ، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس اليه يهنئونه بولاية العهد ، فإن دعاه الى الغناء لديه أمير او وزير وجد من قوة الدالة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه . ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم في شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش ، فقال : من

(١) ساف التراب : اشتمه . يريد انه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل ، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض .

فعل بك هذا ؟ قال : فلان ، وأشار الى ضاربه . فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه[1] وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيح : أي شيء صنعت ؟ وما ذنبي اليك ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه ، فقال : انه اراد ان يكسر مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه . ومما يروى من حوادث تيهه وترفعه انه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعدك معقلا أرجو وحصنا قد اعيتني المعاقل والحصون

فاطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينا هو يسير إذ نظر اليه رجل من اهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب المختال ؟ قال : ابن عائشة المغني ، فدنا منه وقال: جعلت فداك انت ابن عائشة؟ قال نعم، قال: أم عائشة المؤمنين ؟ قال لا ، انا مولى لقريش وعائشة امي ، وحسبك هذا فلا تكثر ، قال : وما هذا الذي بين يديك ؟ قال غنيت امير المؤمنين صوتاً فاطربته فامر لي بهذا المال وهذه الكسوة ، قال : جعلت فداءك هل تمن عليّ بأن تسمعني ما اسمعته اياه ؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال فما اصنع ؟ قال : الحقني الى المنزل ، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه . حتى وافيا المنزل كفرسي رهان ، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في ان ينصرف فلم يفعل ،

(١) التلبيب : ما في موضع اللبب من الثياب ؛ أي ما يدور بالعنق من القميص ونحوه .

فلما اعياه قال لغلامه : ادخله فلما دخل قال له : من آين صبك الله عليّ ؟ قال : انا رجل من اهل وادي القرى اشتهي هذا الغناء ، قال له : هل لك فيما هو انفع لك منه ؟ قال : وماذاك : قال : مائتا دينار وعشرة اثواب تتصرف بهـا الى اهلك ، فقال له : جعلت فداءك والله ان لي لبنية مـا في اذنها علـم الله حلقه من الورق[1] وأن لي زوجـة عليها يشهد الله قميص ، ولو اعطيتني جميع ما أمر لك به امير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصوت اعجب إليّ منه ، ومـا زال بـه حتى رحمه ابن عـائشة وغنـاه الصوت بعد لأي[2] فطرب الرجـل له طرباً شديداً وجعـل يحرك رأسه وينطح بهـا الجـدار حتى خيف ان يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئاً .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل عـلى ان الغنـاء العربي كان قريباً الى القلوب وأنـه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى والمرزوءة في واحدها . وان الوجدان العربي وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الانغام ، فوق ما تأخذ الكهرباء من الاجسام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق مـا تبلغ من عقل شاربها المدام .

وكانت الاصوات عندهم تنسب الى واضعيها وتسمى باسماء اصحابها كما هو الشأن في الشعر ، فيقال : صوت اسحاق او معبد ، كما يقـال شعر مسلم او بشار ، وكان المغني احرص عـلى صوته من الكريم عـلى عرضه ،

(١) الورق : الفضة .　　(٢) اللأي : الجهد .

فإذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين ان يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته اليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن اصواته ، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم ان يأخذوه بعدما سمعوه منه اكثر من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه ، فكان احدهم لا يحجم ان رأى في صوت صاحبه مأخذاً ان يفجاه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشان صاحبه ، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو ، وان الغربيين في هذا العهد ليسوا باعلم بصناعة الغناء ولا اقوم على امرها من العرب في ذلك العهد ، ولو ان العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الاغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وامثال ذلك من المناحي والمقاصد الا قليلا ، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن اعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا ان سبيل الوشاية بهم الى الرشيد سبيل وعر دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالامر من دونه ، فقال عند تمام الصوت : « نعم إني عاجز » ثم كان امره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدر الاول من الإسلام وشان فن الغناء العربي هذا الشان العظيم خصوصاً في اواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم اخذت شمسه الباهرة تنحدر الى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى اصبح في حضارة الأندلس قدوداً وموشحات ، بعد ان كان قصائد ومقطعات ، فكان لا يسمع ابناء العرب في ذلك العهد الا الى قول المغني:

كحل الدجى يجري　　من مقلة الفجر　　على الصباح
ومعصم النهر　　في حلل خضر　　من البطاح

او قوله :

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فانها وان لم تكن شعرية اللفظ فهي شعرية المعنى عالية الخيال ، وهي على علاتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به كالزجل ، والمواليا ، والقوما ، والدوبيت ، وكان ويكون ، غير ذلك مما يسمى في عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها .

فهل لجماعة المغنين في عصرنا ان يعفونا من : « احب جميل طبعه

الدلال » ومن : « يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك » ويأخذوا بنا في مسلك اشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر ، فلقد كان الشعر والغناء اخوين أليفين،رضيعي ثدى وضجيعي مهد،ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما، وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهداً ان يهذبوا اخلاق امتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ، فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الاعمال ومكارم الاخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد في صغائر الامور ، والترغيب في عظائمها ، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها اكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الادوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبال بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه، وفي اعتقادي ان لهذه الطريقة من الاثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب اخلاقهم وطباعهم ، وتقويم ألسنتهم وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين اجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال .

التوبة

علم فلان ، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو ، وقاضياً من قضاة الحاكم ، ان المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ، فرنا اليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا ، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها ابناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة الى اهلها تحمل بين جنبيها هما يضطرم في فؤادها ، وجنيناً يضطرب في احشائها ، وقد يكون لها الى كتمان الأول سبيل ، اما الثاني فسر مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسع له البطون ، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد .

ذلك ما اسهر ليلها وأقض مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بدأ من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت الى ليلة من

الليـالي السوداء فلبستها ، وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرهـا الأسود ، فما زالت امواجها تترامى بهـا حتى ألقتها الى شاطىء الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية، في بعض الاحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب .

كان لهـا أم تحنو عليها ، وتفتقد شانها ، وتجزع لجزعها . وتبكي لبكائها ففارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حيـاته الا أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله ، وكان لهـا خـدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها ! فاصبحت لا تسامر غـير الوحـدة ، ولا تساهر غـير الوحشة ، وكان لهـا شرف يؤنسها ويملأ قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة وافتخاراً . . ففقدته . . وكان لهـا امل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام في املها .

ذلك مـا كانت تناجي نفسها به . . صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب احزانها علمت انـه ذلك الفتى الذي وعدها ان يتزوجها فخدعها عـن نفسها ، ولم يف بعهده لها ، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخـاطر في فؤادها ، ويأخـذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بـين جنبيها من الحقد والموجدة عـلى ذلك الفتى لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

ومـا هي الا أيام قلائل حتى جـاءها المخاض . . فولدت وليدتها من

حيث لا ترى بين يديها من ياخذ بيدها أو يساعدهـا عـلى خطبها غير عجوز من جـاراتها ألمت بشأنها فمشت اليها وأعانتها عـلى امرها بضع ساعات . . ثم فارقتها تكابد عـلى فراش مرضها مـا تكابد . . وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحب المخلوقات اليها واكثرهم قرباً الى نفسها . . فجلست ذات ليلة ، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها الى كفها ، وظلت تقول :

ليت أمي لم تلدني ، وليتني لم اكن شيئاً .

لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادتي ما شقيت ، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي .

لقد كان لي قبل اليوم سبيل الى النجاه من هذه الحيـاة ، اما اليوم ، وقد اصبحت أماً فلا سبيل .

أأقتل نفسي فاقتل طفلتي ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟

لا احسب ان الموت تاركي حتى يذهب بي الى قبري . فماذا يكون حال طفلتي من بعدي ؟

إنها ستعيش من بعدي ، وتشقى في الحيـاة شقائي ، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجرمتها ، سوى أنني أمها .

هل تعيشين ايتها الفتـاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسمعين

قصتي وتسمعين شكاتي ؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي الا قليـل سابيعه كما بعت سابقه ، فماذا يكون شاني وشانك بعد اليوم ؟

محال أن اعود الى أبي فاقص عليه قصتي ، لأنه لم يبق لي ممـا يعزيني عن شقاء العيش وبلائه ، الا ان اهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي ، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الاعزاء ، ولان يبكوا مماتي ، خير لي ولهم من ان يبكوا حياتي .

وكذلك ظلت تلك البـائسة المسكينة تحدث نفسها تارة ، وطفلتها أخرى بمثـل هذا الحديث المحزن الاليم ، حتى غلبها صبرها عـلى أمرها ، فارسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل مـا يملك الضعفاء العاجزون ، ويقدر عليه القانطون اليائسون .

دارت الايام دورتها وباعت الفتاة جميع مـا تملك يدها ، ومـا يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلى وثياب ، وأثاث ورياش ، ولم يبق لها الا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها ، ولم يبق لطفلتها الا أسمال باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلهـا شر قضاء حتى اذا طـار غراب الظـلام عن مجثمه اسبلت برقعها عـلى وجهها ، واتزرت بمئزرها ، وأنشات تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسايرها ويترسم مواقع اقدامها .

وأحسب ان عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فالمت ببعض شانها فاقتفت اثرها حتى دخلت غرفتها ، فوغلت عليها ، وسالتها ما خطبها ؟ فانست الفتاة عند رؤيتها ، وكذا يانس المصدور بنفثاته ، والبائس بشكاته ، فاصرحت لها بسرها وألقت اليها بخبيئة صدرها ، ولم تترك خبراً من اخبار نعيمها ، ولا حادثا من حوادث بؤسها لم تحدثها به ، فعرفت الفاجرة محنتها ، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها ، وعلمت أنها ان احرزتها في منزلها فقد احرزت غنى الدهر ، وسعادة العمر ، وما هو الا ان ارسلت اليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها ، حتى غلبتها على امرها وقادتها الى منزلها ، وما هي الا عشية او ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لامثالها من بلوغها .

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد ، عيشاً أشقى من عيشها الاول في منزلها القديم لانها ما كانت تستطيع ان تصل الى لقمتها ــ وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة ــ إلا اذا بذلت راحتها وشرّدت نومها ، وأحرقت دماغها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، وصبرت على كل من يسوقه اليها حظها من سباع الرجال وذئابهم ، على اختلاف طبائعهم ، وتنوّع أخلاقهم ، لانها لم تر بداً من ذلك . . فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش الى الرجاء سبيلا .

ولو ان الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الامر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها ،

ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكاس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق اليها ذئباً من ذئاب الرجـال كان ينقم عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته ، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ورفـع أمرها الى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت الى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فاخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شدهت عن نفسها وألم بهـا من الحيرة والدهشة مـا كاد يذهب برشدها ، ذلك انها عرفته وعرفت أنـه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعلة بلائها ، فنظرت اليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان دوياً وقالت :

رويدك يا مولاي القاضي ، ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي ! فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي عـلى الخـائن ، واللص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضب لهـذه الجرأة العجيبة ، وهمّ ان يدعو الشرطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شيء ، فشعر بالرعدة تتمشى في أعضائه ، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت ، وعـادت

الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

أنا سارقة المـال ، وأنت سارق العرض ، والعرض أثمن من المـال ، فانت اكبر مني جناية ، وأعظم جرماً .

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداده او الاعتياض عنه ، امـا الفتاة التي سرقت عرضها فـلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود .

لولاك ما سرقت ، وما وصلت الى ما اليه وصلت ، فاترك كرسيك لغيرك ، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العـادل عـلى جريمة واحدة أنت مدبرها ، وأنا المسخرة فيها .

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمـة واحدة ، ثم تاتي بنـا الى هـذا المكان ، فتقف أحـدنا في أشرف المواقف ، وتقف الآخر في أدناهـا ، لشريعة ظالمـة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، او زمـام غير منقضب .

رأيتك حـين دخلت هـذه القاعة وسمعت الحـاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيـام لك ، ورأيت نفسي حـين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت : يا للعجب ! ! كم تكذب العناوين ، وكم تخدع الألقاب ، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء!!

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هـذه الشهادة ، شهادة العـلم والفضل والاخلاق والآداب . ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد،

ووضعوا بين يديك هـذا القانون ، وأوقفوا امـامك هـذا الشرطي ياتمر بامرك وينزل على حكمك .

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضـاة نفوساً ليست باقل من نفوسنا شراً ، ولا أخبث منهـا مذهبـاً ، وربما لا يكون بيننا وبـين الكثير منكم فرق الا في العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

أتيت بي الى هنا لتحكم عليّ بالسجن ، كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى اردت ان تجيء بلاحق لذلك السابق .

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ ألست إنساناً ذا شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي ؟

إن لم تكـن عندي وسيلة أمتُّ بهـا اليك ، فوسيلتي عندك ابنتك هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .

فرفع القاضي رأسه ونظر الى ابنته الصغيرة نظرة رحمـة واشفاق وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لهـا من نفسه ، غير انه أراد ان يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً ، فاعلن ان المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها ، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب . فصدق الناس قوله . ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ، ومـا هي إلا أيام قلائـل حتى استقال من منصبه بحجة المرض ، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم اليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بهـا

الى بلد لا يعرفها فيه أحـد ، فتزوج منها وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة ان ادل عليه اذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم يكفّر عن سيئاته الى زوجته بكل مـا يستطيعه من صنوف الرعـاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيا ما فـات . ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت .

* * *

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى اليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته ، لا يعرف لها شاناً ، ولا يقيم لها وزناً ، حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها ، ويرشده اليها بتحقيرها ، والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في ثياب المسيء

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد ، ينقم على محسوده نعم الله عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة ، وفي تلك الأمنية قد أضاف الى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم .

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرة خفيفة ، فحيث

ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأناً ، وأهون خطراً من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فاعلم انهم قد منحوك لقب « المحسد » فليهنأ عيشك وليعذب موردك .

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل ، فانظر الى أكثرهما نقمة على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنيل من كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأناً وأقلهما فضلاً .

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها ، فالشارب يتالم عند حلول المرض، والمقامر يتالم يوم نزول الفقر، والسارق يتالم يوم دخول السجن .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة ، لا تفارقه ساعة واحدة .

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها الا التنقل من مظهر الى مظهر ، والتحوّل من موقف الى موقف فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض .

الحسد مرض من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي

يحسده عليها ، ولا أحسب أنــه ينفق من وقته وبجهوده في هـذه السبيل أكثر ممـا ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده ، والنيل منه ، فإن كان يحسده على المال ، فلينظر أي طريق سلك اليه فيسلكه، وإن كان يحسده عـلى العلم فليتعلم أو الادب فليتأدب ، فإن بلـغ من ذلك مـأربه فذاك ، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل .

الوفاء

يا صاحب النظرات :

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان ، وقد عرض لها في هذه الايام رمد في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها . . فماذا ترى ؟

« انسان »

أيها الإنسان : لا تفعل ، فانك ان فعلت كان عليك اثم الخائنين وجرم الغادرين ، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل انها عمياء فلا خير لي فيها ، ولا غبطة لي بها ، فانك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه

الناعمون بالحور الحسان ، في مقاصير الجنان .

اجلس اليها صباحك ومساءك ، وحادثها محادثة الصديق صديقه ، بل الزوج زوجه ، وتلطف بها جهدك وروّح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها : لا تجزعي ولا تحزني ؟ فانما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين .

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، والعهد وزمامه ، ألا تجعل لهذا الخاطر السيء ـ خاطر الطلاق والفراق ـ سبيلا الى نفسك ، فانها لم تسوء اليك فتسيء اليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فان كنت لا بد ثائراً لنفسك فاثار من القدر ان استطعت اليه سبيلا .

ان عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة الى غير من أذنب اليه ، ويعتدي عليه .

ان لم يكن احتفاظك بزوجك وابقاؤك عليها عدلاً يسالك الله عنه فليكن احساناً تحاسبك الإنسانية فيه .

انك قد خسرت بصرها ، ولكنك ستربح قلبها ، وحسب الإنسان من لذة العيش وهناءته في هذه الحياة قلب يخفق بحبه ، ولسان يهتف بذكره .

انها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك رحمة بها ، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها .

لا أحسب أنها كانت تاركتك ، أو غادرة بك ، لو أن هذا السهم

الذي أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك الى فضيلة الصدق والوفاء .

الى من تعهد بها بعد فراقك اياهـا ؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتانس بها في وحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنأ لك عيش، او يغمض لك جفن ، اذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت انها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله ، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها اليها ، او كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها ، او ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق الى حاجة من حاجاتها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الأنسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هـذا الخيـال الذي لا بد ان سيساورك ، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك ، فان لم تكن هـذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب لأني لا أحسن الا مخاطبة الإنسان .

إني محدثك عن صديق لي من كرام النـاس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء فاغتبط بها برهـة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجـك ، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حـاشية الأفق ، فـلم يقنعه من الوفـاء لها أن استبقاها واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها

شيئاً ، فكان يعتب عليها في بعض الأحايين في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون المبصرون ، يريد بذلك أن يلقي في روعها انه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة ، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طرأ عليها ، رحمة بها وابقاء على ما كانت تحب ان تحاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب في آدابهم ، ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم ، فلم أر بينها نادرة اوقع في النفس ، ولا اجمل اثراً في القلب ، من قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر : اختلفت الى القاضي احمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي ، خذ بيده يا غلام ، بل يقول أخرج معه يا غلام .

فان كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب ، ما سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ ، فلا تطلق زوجك ، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها ، وإن أبيت إلا أن تاخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش ، فاعلم انه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حياته الا ويشوبها الكدر ، او يعقبها الألم ، الا لذة البر والإحسان .

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه ، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان[1] قذر « دميم » المنظر ، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الابيض في الدخان الاسود ، وتتمشى في أديم وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة ، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه ، ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان جوع الاكباد ، لم يترك لهم الدهر – آكل الناس وشاربهم – إلا هيكلاً من العظم تلمع في رأسه عينان جائلتان ، لا يستقران في محجريهما إلا اذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين .

نظر اليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون ، لولا ان من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية ، وتذيب الأفئدة المتحجرة ، وأنشا يسألهم

(١) جمع سن : وهو العمر .

واحداً فواحداً ما شأنهم ؟ وما خطبهم ؟ وما مصيرهم ! فكان جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم[1] من حيث يخفي مكانها فثغر[2] فيها ثغرة انحدر منها الى أعراضهم ، فبعث بها ما شاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها ، حتى اذا استنفد درتها[3] ألح على دمائها فاستنزفها ، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فاذا علم انهم هلكوا او كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة بعد المضغة ، ويرمقهم[4] العيش ترميقاً لا ابقاء عليهم ، بل على ما يصل الى يده من المال من طريقهم ، وزعموا انه كان يريبه منهم في بعض الاحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملأ ادمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم ، ويحل عقدة إبائهم ، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون .

وما وصلوا من شكواهم الى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعه من أمرهم ما راعه ، ثم علم انه الجوع ، فأمر لهم بخبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر اليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده اذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله ، وحسبت انه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليقة في

---

(١) الخلة : الحاجة .
(٢) ثغر الشيء : ثلمه وفتحه .
(٣) الدرة : اللبن .
(٤) رمقه الشراب : أعطاه إياه حسوة حسوة

مغارة من مغاور الجن او شفعة[1] من شفعات الجبـال ، وقلت له : أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن انسان ؟ قـال : لا تعجل فما حدثتك الا عن رجل حمّـار لا يفارق وُجهه صورة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت اليه تلك النتيجة من هـذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هـذه الرذيلة لا يترفـع عنها في هـذا البلد كثير من الاتقيـاء والصالحين ، والاشراف والمستورين ؟

قلت : لا تحدثين عن شيء ، فلم يبق في قلبي متسع ، لاحتماله أكثر مما احتملت والامر لله وحده .

ليست مسألة الزوايا وخباياهـا أمراً يستهان به ، أو تفضي العيون عليه فاننا نريد ان نعد لوطننا رجالاً ذوي شجاعة واقدام، وعزة وأنفة، من الذين اذا عظم الخطب كانوا حماة الديار ، واذا اشتد البأس لا يولون الادبار .

(١) الشفعة : رأس الجبل .

القمار

لا أستطيع أن أعتقد مـا يسمونه الجنون الفرعي ، ويريدون منه أن يكون الانسان مجنوناً في شأن واحد من شؤونه ، عـاقلاً في باقيها ، وعندي أن الرجل اما أن يكون عاقلاً او مجنوناً ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء عـلى ضبط نفسه عن شهواتها ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فاما أن يغلبها جميعاً أو تغلبه جميعها .

أما مـا يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجـل في بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه وعقله ، وزهده في بعضها زهد الاعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب في الاولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعه الى الاخرى داع من شهوات قلبه ونزعـات نفسه ، ولو دعـاه لخف اليه ولباه ، ولن يسمى الرجل زاهـداً أو عفيفاً إلا اذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه اليها فيدفعها ، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها .

لا تقل ان السكير عـاقل ان رأيته غـير فاسق ولا عاهر ، واعلم انه

يؤثر الفسق ولا تجذبه اليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات ، ولا تقل ان الفاسق عـاقل ان رأيته غـير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يحب السرقـة ولا الاختلاس ، ولو أنه احبها لكان في التسلل الى اعماق الدور والقصور ، أبرع منه في التسلل الى مكامن الفسق والفجور ، ولا تقل ان المقامر ان رأيته لا شارباً ولا فـاسقاً ، فان القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين ، وأفسق الفاسقين .

ولو كنت من المصانعين ، الذين يزخرفون لارباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروهـا في نظرهم فضائل بمـا يلبسونها من أثواب التـأويل ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما استطعت ان تصانع المقامر لان حـاله من الجهل الفاضح ، والغبـاوة المستحكمة ، أبعد الحـالات عن عـذر المعتذرين ، وتاويل المتاولين .

ما جلس المقـامر الى مـائدة القمار ، الا بعد ان استقر في ذهنه ان الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن الى دينار ، ويعود بـه الى اهله فرحـاً مغتبطاً ، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة ، تعجز عن ادراك هذه العقيدة ومثارها .

ان كان يؤمل الربح لانه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح . فلم لا يخـاف الخسران لانه يرى عن يساره مـائة خـاسرين ؟ وان كان يضحكه منظر الربـح لانه يرى في بعض مواقفه احـد الرابحين ضاحكاً ، فلم لا يبكيه

منظر اصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود المعركة تحت القذائف المنطلقة .

ما اشبه المقامر ألذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهباً ، كلاهما يتاجر بالاحلام في سوق الاوهام ، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً معكوساً ، وما اشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم ان في صحراء من صحاري اواسط افريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة معينة ، وليس عليه دليل فحمل فاسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفذ قوته وتستهلك منته . . وتبلغ من نفسه ما لايبلغ كر الغداة ومر العشي .. حتى اذا بلغ قرارتها . . وعلم انه لم يعثر بضالته . . تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها . . فلا يكون نصيبه من الاخرى اوفر من نصيبه من الاولى . . وهكذا . . حتى ادركه الموت ، وهو في بعض تلك الحفر . . فكان هو نفسه الكنز الدفين . . الا انه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب .

ان كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم ان المقامر في آن واحد اجشع الناس ، وأزهد الناس ، فلولا حبه المال لما هان عليه ان يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله ! ولولا زهده فيه لما اقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمارب يسعى اليه .

أنا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار ، لاني اعتقد ان من يملك

عقلاً مثل عقله ، وفهماً مثل فهمه ، لا يستطيع ان يفهم كلمة مما اقول ، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الايام عن ان ترد عليه ضالة عقله وتهديه السبيل الى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة واعظ ، وانما اريد ان اقول للذين لم يقدر لهم ان يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى اليوم : لا تقامروا جدّاً ولا هزلاً ، فان هزل القمار يجر الى جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصداً ولا عفواً ، فان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الاحوال ، فانهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم ، فان فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوّض عليكم ما خسرتم ، فارحموا انفسكم ان كنتم راحمين ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا ان بين يديه ولداً صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب . والشيوخ الكبار الى ابنائهم الصغار حنين الإبل الى أعطانها ، فنظر اليه ، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها الا مبللة بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الاخيرة ، وأنشأ يقول :

أي بني ، من لي بقلب يرعاك مثل قلبي ، وعين تسهر مثل عيني ، وروح ترفرف فوق رأسي مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسي ؟

أي بني ، كاني بركب الموت ، وقد نزل بي ، وحل بساحتي ، وكاني

به ، وقد احتملني من فضاء القصر الى مضيق القبر ، ومن نور الحياة ، الى ظلمة الموت ، وكاني بك ، وقد طفقت تنشدني فلا تجدني ،وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت ، ثم صرخت فصعقت ، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك .

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فاكل اليه أمرك واعتمد عليه في تاديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يانس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له : هوّن عليك يا مولاي فانا صديقك الذي تنشده ، وأنا والد ولدك من بعدك ، وخليفتك بعد الله عليه ، ثم تهافت على فراشه وظل يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال : أحمدك اللهم قد رحمت ولدي وحفظت بيتي .

وما هي الا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم اجاب دعوة ربه تاركاً في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه ، وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقاً له في الاعوام الأخيرة من اعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف اليه ، ويطيل اللبث بجانبه ، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته ولباناته ، ذلك الى ما

كان يراه متجملاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات ، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته .. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته .. فاستخلصه لنفسه .. وأنزل من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده .. واصبح آثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، الى ان أحس باقتراب الأجل ، فاوصاه بما أوصى ، وعهد اليه بما عهد .

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته فاسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجباً ، وتخر له الجبال هدّاً .

لم تكن صلاته الا رياء ونفاقاً،وركوعه وسجوده الا كيداً ومداهنة، وعفته وزهادته الا حبالة نصبها ليعلق بها عقل الشيخ ،وقد علق ، فيسلبه ماله وولده ، وقد فعل ، وما كان اختلافه اليه ، ولا تردده عليه الا طمعاً في هذا المصير الذي صار اليه ، فلما علم ان قد تم له من أمره ما أراد ، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود ، ويبتاع به لنفسه ما شاء ان يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعد ما كان خاملا ، ونبت ريشه بعد ما كان عارياً ، واصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء .

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده ، ويملك رشده وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعترض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم ير بدأ من ان يعد لذلك اليوم عدته

فعمد الى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب ان ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه الى مواطن الفسق ومجامع الفجور ، لأنه لا يحب ان ينشأ عاقلا ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور ، فاصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الاغصان لا يرسل الساق الا ممسكاً ساقاً .

فكانما وكل بعقله مقراضاً يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قيماً على المعتوه ، ولم يبذل في سبيل الوصول الى ذلك اكثر من لقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة الى اعضاء المجلس الحسبي، فادخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوّام عليهم ، رحمة بهم، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم واصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الاقفال ويتقي مغبة تسلق الجدران ، قادراً على ان يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجر الاغلال الثقال في غيابات السجون. وانتقلت الثروات العظيمة من ايدي اصحابها مخافة ان يسرفوا فيها الى ايدي آخرين يبددونها تبديداً ، ويمزقون أديمها تمزيقاً ، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب ، او وشيجة رحم ، حتى أصبح السعي الى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً من الاعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ، والجهل الفاضح ، فمن لي

ان أنا دبرت المال وجعته ان لا يكون خليفتي عليه من بعدي لصاً من اولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي ان أعيش الى ان أدرك ولدي فاتولى أمر تربيته بنفسي قبل ان يظفر بـه في حداثته ظفر جارح من اظفـار اولئـك الأوصياء فيميت نفسه ، ويقتل عقله .. ويفسد عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدها .

فلقد حدثني من قص عليّ تلك القصة ان ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد الى تزويجه من فتاة حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك ماربا من المـآرب الفاسدة ، فإنها مـا كادت تخلـع ثوب عرسها حتى أنشا يختلف اليها ، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر ، بمـا له عـلى زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شؤونها ومرافقها، ثم ما زال يختلها عن نفسها ويزين لهـا ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته ، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها ، وبرمت به، فرابه من أمرها مـا رابه ، فرصدها ليلة من الليالي حتى عرف سرهـا وموضع هواهـا ، فشكا فلم يجد سامعـاً ، ثم بكى فلم يجد راحماً ، فكان يقضي كثيراً من لياليه في غرفة من غرف القصر واجماً مطرقـاً مسلماً رأسه الى ركبتيه ، ودمعه الى خـديه ، لا سمير له ولا مؤنس الا رنات الضحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه ، فكان يثب تارة وثبة الأسد فيثير في القصر ثائرة شعواء تضج لهـا جوانبه ، فيتسارع اليه الخـدم

فيضربون على يده وفمه ، وأخرى يعود اليه بلهه وخبله ، فينظر الى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب .

مرت على تلك الحوادث سنوات استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله ، حتى اجتز وبرها ، ثم استكشط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي قائم ، فلما علم ان قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه الثاقب قد مال الى الأفول ، عمد الى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم .

تفتح للغلام بعد انقباضه ، وابتسم اليه بعد تقطيبه ، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب فاره ، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له : أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفرادك بأمرك ، فاكتب الى المجلس الحسبي رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واكتب توقيعك على هذه « المخالصة » براءة لذمتي ؛ فاستطير الغلام فرحاً وسروراً ، وما لبث ان كتب الاولى ووقع على الاخرى ، ثم اوعظ الى المجلس الحسبي بتلبية طلبه ، فلباه ، وقضى برفع الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامىء كأس الشراب ، وكان لا بد له من أن يشرب حتى يبشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد ، وكان الرجل قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته الى المال فيمنحه ما يريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذ منه صك البيع

باليسار ، وما زال هذا يعطي وذاك يأخذ حتى أصبح نصف « الدائرة » بعد عامين ملكاً لعون الوصي وللوصي غداً بثمن لا يساوي عشر معشارها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصي وقعد ، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق : أيها الناس قد كنت انذرتكم بمصير هذا الغلام ان صار أمره الى نفسه ، فكذبتم قولي ، وسفهتم رأيي ، وما زلتم تقولون وتتقوّلون حتى احرجتم صدري ، ودفعتموني الى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شان ولده من بعده، ولا اتخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها ، فها أنتم ترون باعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم .

ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي فأعاد سيرته الأولى ووضع في عنقه غلا لا فكاك له من بعده ، الى يوم يبعثون .

ليت شعري ، هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده ، وان المال قد ورثه غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولده قد اصبح ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتلتوي عليه ؟ وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مطرحاً في زوايا الحانات ، لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع

السحـاب ؟ وهل اعد عدته للوقوف بـين يدي الله تعـالى في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تكشف المنات ، وتفضح العورات .. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول :

اللهم اعدني عـلى هـذا الكاذب الذي ختلني وخدعني وخفر ذمتي وخـاس بعهدي وخان أمانتي ، وأفسد وصيتي ، وخـذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله ، وهتك عرضه، وعذب نفسه ، ونغص عيشه، فانت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين .

●

العام الجديد

في مثل هـذا اليوم من كل عـام يقف ركب العـالم السائر بمنزلة من منازل الحياة ، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعـة من وعثـاء السفر بعد أن نـال منه الأين والكلال ، وأضناه سري الليل وسير النهـار ، ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً .

هنالك يجتمع السفر [1] في صعيد واحـد فيتعارفون ويتصافحون ، ويتفقد بعضهم بعضاً، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ، وفلاناً مات ظمأ، وآخر افترسه سبع ، وآخر قتله لص ، وآخر مات غيله ، وآخر سقط عياً وآخر طارت به قنبلة ، وآخر هوت بـه طيارة ، وآخر اجتـاحه بركان، وآخر تردى عليه معدن ثم يعودون الى جرائد الإحصاء فيدوّنون فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازنون بين هـذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر ، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء ، ومصانـع

(١) السفر : المسافرون .

الموت لا تزال تفتن في عدده وتستكثر من ادواته ، وأن جدور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر ، حتى ما يتمنى احد ان تقع عينه على احد وان سحب البغضاء القاتمة لا تزال مخيمة على المجتمع الانساني من ادناه الى اقصاه شعوباً وقبائل واجناساً وانواعاً ، ومذاهب واديانا ، ومنازل واوطاناً ، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف انه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه ، فإن وافقه فيه ابغضه لأنه ينطق بغير لغته فإن نطق بها ابغضه لأنه لا يشاركه في وطنه فإن كان مشاركاً له ابغضه لأنه يزاحمه في حرفته فإن بعد عن طريق مزاحمته ابغضه لأنه يخالفه في رأيه ، فإن لم يخالفه ابغضه لانه لا يحاكيه في لونه ، فان لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك ابغضه لانه شخص سواه ! كأن قضاء حتماً على الإنسان ان يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته .

فاذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم ، اضافوا الى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد اخيه مهنئاً له بالعيد السعيد داعياً له بدوام الغبطة والمناعة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية .

علام يهنىء الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتبطوا المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى

سعيداً كما أصبح ؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ولم ير بجانبه مـا يرى في الليلة البـارقة من رعود قـاصفة ، ورياح عاصفة ، وصواعق محرقة ، وشهب متطايرة ؟

بأية نعمة من النعم ، أو صنيعة من الصنائـع ، تمن يد الحياة عـلى إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم الا الى ظلمة العيش ، ولا يفلت من ظلمة العيش الا الى ظلمة القبر ، كانما هو يونس ، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض ! وأية يد من الأيـادي أسدتها الأيام الى رجل يظل فيها من مهده الى لحـده حـائراً مضطرباً ، يفتش عن سـاعـة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويثلج صدره ، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد اليها سبيلاً ، إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب الضاغنة ، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة ، فإمـا قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عـد النـاس فقره ذنباً جنته يداه ، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف ، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مـات الموتة الصغرى ، وإن كان عالماً ولـع الحـاسدون بذمه وهجوه ، وتفننوا في تشويه سمعته ، وتسويد صحيفته ولا يزالون بـه حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل وحياً كميت ، وأن يكتم علمه في صدره ، فلا يفضي بـه الى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلا اتخذه المـالون مطية يركبونها الى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يبالونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها . وإن كان بخيلا ازدرته القلوب، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفـاه ، وبرزت له الانياب ،.وانقبضت

له الاسرة ، والتهبت له الانظـار ، وأرسلت اليه الاغصان ألسنة نيرانهـا حتى تحرقه ، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن اليهم إما لانه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فـلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لانهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل اليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقـابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم .

لا سعـادة في الحيـاة إلا اذا نشر السلام أجنحته البيضاء عـلى هـذا المجتمـع البشري ، ولن ينتشر السلام الا اذا هدأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ، ولا محدود محدوداً ، ولا جاهل عالماً ، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جـائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلأت النفوس عزة وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال اموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى ، ولا ترى طبيباً يدعي علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق مـا سلب منـه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتباً يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منها .

وما دامت هذه المطالب أحلاماً كاذبة وأماني باطلة ، فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناءة ، ولا فرق بين امس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه .

*

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية المعروفة برواية « يوليوس قيصر » موقفاً لبطلين من ابطال الفصاحة ، وفارسين من فرسان البيان . وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين.. تعلو بها حيناً وتسفل أحياناً ، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة ، فعلمت أن العامة عامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر. وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر ، وأن رأس التاريخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريخ المحمدي ، تدنو به كلمة ، وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلا . . ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد

يشعر بمرارته ، وكذلك الذل اذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله فيها ، وعلم ان حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر . . فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده ، افتداء لامته ووطنه ، فطعنه طعنة نجلاء ، سلبته نفسه في لحظة واحدة ، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه ، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة ، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب المائج المحتدم وقفة المستبسل المستميت ، وكان لا بد له في هذا الموقف من أحد المصيرين ، إما نصر يعلو به الى مدارك الأملاك ، أو خذلان يهوي به الى مقر الأسماك ، ومن أحد المخرجين : إما مخرجه مرفوعاً على محفة الابطال ، أو محمولاً على أعناق الرجال ، فبعد لاي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم الى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك ، وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته .

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة) : أيها الرومانيون ، أتعدونني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره ، إكراماً لموقفي وإكراماً للعدل ؟

أنا لا أريد أن أخدعكم ، ولا أعبث بعقولكم وأهوائكم بل أريد منكم أن تنظروا الى قضيتي نظر الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هوادة ولا يلقي قياداً لاني لا اعتقد ان في زاوية من زواياها كميناً اخاف ان

تقع عليه العيون .

أيها الرومانيون ، إن كان بينكم صديق لـ « قيصر » يحبه ويذوب حزناً عليه فليسمح لي ان اقول له : ايها الصديق الكريم ، ان بروتس قاتل قيصر كان يحبه اكثر منك .

ايها القوم : والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، فاعلموا اني ما قتلت قيصر لاني كنت ابغضه ، بل لاني كنت احب روما اكثر منه . كان قيصر طماعاً فقتلته ، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري .

انا لا اصدق ان بينكم من يحزن لموت قيصر ، فانتم رومانيون ، والروماني لا يحب ان يعيش ذليلاً .

من منكم يكره ان يكون رومانياً ؟ من منكم يكره ان يكون حراً؟ من منكم يحتقر نفسه ؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه ؟ ان كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم ، لانه هو الذي يحق له ان يثأر لنفسه مني ، لاني لم أسيء الى احد سواه .

الشعب ــ لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .

بروتس ــ إذن انا لم أسيء الى احد منكم .

وهنا دخل انطونيوس صديق قيصر ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثاره هو وآخرون يحملون على ايديهم جثة قيصر لتابينه في

هذا الجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال

ها هي جثة قيصر ، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا له واعلموا ان قيصر المذنب غير قيصر الماجد ، وقد سمعتم ما قيل عن الاول فاسمعوا ما يقال عن الثاني ، واسمحوا لي ان أقول كلمة أختتم بها خطابي .

أيها الرومانيون : ان الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا يزال باقياً عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر اذا أرادت روما ذلك .

تأثير الخطبة

الشعب ـ ليحيى بروتس .

أحد الناس ـ أنا اقترح ان نحمله على الأكف الى منزله .

آخر ـ انصبوا له تمثالاً

آخر ـ امنحوه عرش قيصر .

آخر ـ إنه أفضل من قيصر .

آخر ـ إن قيصر كان ظالماً .

آخر ـ إنه كان الظلم بعينه .

آخر ـ لتهنأ روما بالخلاص منه .

آخر ـ ألا نسمع تابين أنطونيوس ؟

آخر ـ نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك .

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه . ثم وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد .. ولولا

إشارة من بروتس ما استطاع ان يثبت في موقفه لحظة واحدة، ثم أخذ يتلو كلمة التابين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبياناً .

القصيدة

أنطونيوس ـ أيها الرومانيون ...

أحد الناس ـ اسمعوا ما يقول أنطونيوس .

آخر ـ لا .. لا نسمعه .

أنطونيوس ـ اسمعوني إكراماً لبروتس .

أحد الناس ـ ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس ؟

آخر ـ لا يقول شيئاً .

آخر ـ اذن نسمعه .

أنطونيوس ـ أيها الاصدقاء، انني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته .

أيها القوم : ما من أحد من الناس الا وله في حياته اعمال حسنة وأخرى سيئة .

أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده الى يوم يبعثون .

كذلك كان قيصر في حياته ومماته . وكذلك كانت سيئاته .

أيها القوم : ما كنت لاستطيع ان أقف موقفي هذا بينكم ولا ان

أقول كلمة مما أريد ان أقول لولا ان بروتس قاتل قيصر امرني بالوقوف وامرني بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنت له لانه رجل شريف .

أيها القوم : يقول الشريف بروتس ان قيصر كان رجلاً طماعاً ، وأنا لا استطيع ان أخالفه فيما يقول ، لانه رجل صادق لا يكذب .

أنا لا استطيع ان اقول ان قيصر كان رجلاً قانعاً معتدلاً ، لان الشريف بروتس يقول غير هذا .

كل ما استطيع ان اقوله ان الفدية التي افتدى بها اعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم الى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها .

كل ما استطيع ان اقوله اني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن حدباً بهم ، وعطفاً عليهم .

كل ما استطيع ان اقوله انني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في « لوبركال » عدة مرات فاباه زهداً فيه ، وتعففاً عنه .

كنت استطيع ان اقول ان الطمع لا يسكن قلباً مثل هذا القلب ولا يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد ، لولا ان بروتس يقول ان قيصر رجل وأنا لا استطيع مخالفته ، لانه رجل شريف

أيها الرومانيون : انكم أحببتم قيصر قبل اليوم حباً جماً ، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه .

ان لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لانكم كنتم تحبونه ، ابكوه

لانه كان بالامس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق السماء ، فاصبح اليوم مطرحاً مهيناً في ظل هذا الحائط ، ولا يجد بين الناس من يأبه له ، ولا من يعطف عليه .

أيها العقل الإنساني : كيف حالت حالك ، وتغيرت آيك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية ، الى الصدور الوحشية ، وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبك ، فحسبت الخير شراً ، والشر خيراً واختلط عليك الامر ، فلم تستطع ان تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم .

أيها الرومانيون : عفواً ان هذيت بينكم ، او اسأت اليكم ، واعلموا ان الحزن قد قسم فؤادي قسمين : قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش .

أيها الاصدقاء : ان بين جنبي قلباً يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة ان تنفجر صدوركم حزناً وجزعاً لقلت لكم : ان قيصر قتل مظلوماً .

انني اعتقد ان بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ، لذلك احب ان أسيء الى نفسي والى قيصر واليكم قبل ان اقول انهم أخطأوا في قتل قيصر.

« وهنا صمت أنطونيوس وارسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع » .

أحد الناس (يقول لصاحبه) ــ يلوح لي ان فيما يقول الرجل شيئاً معقولاً .

آخر ــ انك ان أنعمت النظر وجدت ان قيصر قد أسيء اليه .

آخر ــ لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك .

آخر ــ لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء .

آخر ــ ان الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعا ولا ظالما .

آخر ــ اذا فسيكون لمقتل قيصر شان غير الشأن الاول .

آخر ــ لا بد من عقاب القاتل .

آخر ــ (يقول لجليسه) أنظر الى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب .

آخر ــ ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس .

أنطونيوس ــ أتأذنون لي ان افارق موقفي هذا لحظة ، لاقف قليلا بجانب جثة القتيل ؟

الشعب ــ نعم ... نعم .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل الى جثة قيصر، وهو لا يزال في ملابسه التي قتـل فيها ، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائـه) ثم قال :

أنطونيوس ــ من كان يملـك منكم دموعـا فليعدها لهـذا الموقف العظيم ، فانه موقف يحتاج الى كل ما في عيونكم من دموع .

انكم تعرفون جميعا هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئا ، انا اعلم ان قيصر لبسه اول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على « الدفى » ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الابد .

(ثم وضع يده على احد الثقوب التي في القباء وقال) : في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم .

ومن هذا الثقب مرّ خنجر بروتس الى صدر قيصر . ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، واحسب ان جميع افراد النوع الإنساني قد مرّوا بخاطر قيصر واحداً واحداً قبل ان يمر بخاطره صديقه : « بروتس » .

عرف قيصر ان قاتله هو صديقه ، وصنيعة إحسانه ، ففترت همته ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنة التي اصابته في جسمه ، لم تكن باقل من الطعنة التي اصابته في قلبه ، ولم يكن منظر المدي والخناجر ، ابشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن ان يقول شيئاً غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الاخير :

« وانت ايضا يا بروتس » ؟

وهنالك تحت تمثال « بومباي » وجد قيصر قتيلاً وقد لف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل .

ها انتم تبكون على قيصر ، فشكراً لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوّثت به يد الظلم تربة هذه الارض من الدماء .

انكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته ؟ .

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه ، وقال) :

ان في كل جرح من هذه الجروح لسانا يشكو اليكم ، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس ـ يا له من منظر فظيع !

آخر ـ وارحمتاه لقيصر !

آخر ـ ان يوما يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير !

آخر ـ يا للدناءة والسفالة !!

آخر ـ يا للغدر والخيانة !!

آخر ـ الانتقام .. الانتقام .

الشعب (وهو يضج ضجيجا عظيما) ـ حرّقوا القتلة ، مزقوهم ، لا تبقوا على أحد منهم .

أنطونيوس ـ مهلا . مهلا . أنا لا أريد ان اشعل بينكم فتنة عمياء ولا اريد ان تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها ، فانني لا ازال اعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسبابا لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد ان اقول لكم : ان قيصر كان يحبكم حبا جما فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه .

لولا أني أؤثر البقاء عليكم ، ولولا أني احب تخفيف ما ألم بقلوبكم

من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصيته ، لتعلموا ان الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقا ان يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض .

الشعب ـ اقرأ الوصية .

أنطونيوس ـ إني اخاف على صدوركم ان تنشق حزنا على القتيل الشهيد .

الشعب ـ نريد سماع الوصية .

انطونيوس ـ إنه يعطي كل فرد من افراد الشعب الروماني خمسة وسبعين فرنكا ، ويوصي بجميع غاباته ومنتزهاته للأمة .

احد الناس ـ يا له من رجل كريم !

آخر ـ يا له من رجل شريف !!

آخر ـ ويل للقتلة !

آخر ـ الثورة .. الثورة .

آخر ـ سنحرق منزل بروتس .

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط .

انطونيوس (في موقفه وحده) ـ ايتها الفتنة العمياء قد ايقظتك من مرقدك فارفعي رأسك وامضي في سبيلك ، واشتعلي حتى يحرق

لسانك اديم السماء ووجه الغبراء .

وهكذا استطاع انطونيوس في موقف واحـد ان يستعبـد الشعب الروماني لنفسه قبـل ان يفيـق من استعبـاد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من احدى العبوديتين : امـا العبودية لحمـلة التيجان ، او لحملة البيان .

*

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم، لأني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف الى المسجد لصلاة الجمعة ، فاختلفت حتى فاجاني يوماً من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

حدث أن صعلوكاً يعرفني ، ويعرف مقامي ، تمادى في وقاحته وسوء أدبه ، حتى وقف بجانبي في الصلاة ، فاشمازت نفسي من هذا الأمر اشمئزازاً عظيماً ، وحاولت أحتمله فلم أستطع ، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به ، فهل تعرف مسوّغاً شرعياً يفرّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات ؟ «سائل»

يا مولانا الحاكم :

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك ، لا تضن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد اليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى

فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك عله يجدفيها روح الحياة ، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناءة ، فيهدأ ساعةمن الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، إن الله يحب المحسنين .

ليفرخ روعك وليثلج صدرك ، واعلم ان هذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم ، وبرح به الشقاء ، أن يقتطع قطعة من سعادتك او يفتلذ فلذة من شرفك ، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه ، أو سيء الأدب ، فإني ــ بما أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم وتهتف بها احلامهم ــ أعتقد انه ما وقف بجانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتك منازل العظماء ، أن تدور به كذلك فتنزل منزلتك ، وتعلو به الى مقامك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة .

إنك تريد مني أن ألتمس لك من ابواب الشريعة الإسلامية باباً يسوغ لك طرد هذا الصعلوك المجترىء عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقي عليك .

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك اعظم شاناً وأجل خطراً ، من أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصك المحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف اكثر مما تعرف لصاحبك فما

كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره ان يقف منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة ، وحكما جمة ، أرادها الشارع منهما ، وانك لن تجد بين هذه الحكم ، وتلك الفضائل ، حكمة أغلى ، ولا فضيلة انفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى انه قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الاخ من اخيه والكفىء من كفيئه .

ان كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك الى المسجد ألا تترك للفقير موقفاً من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه ، حتى موقفه بين يدي ربه ، فخير لك ان تستصحب معك عند ذهابك شرطتك واعوانك لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده واقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء ادبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر ان تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية ، بعد ما نطقت بكلمة الالوهية ، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم ان الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه ، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك ، او في زمرة الصعاليك ؟

ايها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لانفسكم الا منحة من الفقراء اليكم فلولا

تواضعهم بين ايديكم ما علوتم . ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم فلا تجزوهم بالإحسان سوءاً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا النقم ، وتستديموا النعم .

ايها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه الدور التي تغمرونها ، وهذه الاردية التي تجرون اذيالها، الا الواناً واصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم ، ولا صلة لها بجواهر افئدتكم وقلوبكم ، وما هو الا ان تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بالوان السحاب واصباغ الثياب ، فإذا انتم عراة مجردون ، لا تشفع لكم الا فضائلكم ، ولا تنفعكم الا مواهبكم ومزاياكم .

ايها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فان كنتم من ارباب الفضائل فحري بالفاضل ان لا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء ، اولا ، فما تحمل الارض على ظهرها اسمج وجهاً ، ولا اصلب خداً من جهلة المتكبرين ، فانظروا اين تنزلون ، وفي أي مقام تقيمون ؟

الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو بؤس حال ، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه .

ان الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر ، فكيف هان عليه ، وهو في آخر يوم من أيام حياته ، أن يضم الى خسارة دنياه ، خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء ؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة ، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم ، وكنا اذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك ، قلنا يوشك ان يقتل الشرقي نفسه بنفسه اذا علم ان

تلك عادة من العادات الغربية ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مالوفاً ما كنا نعده فرضاً من الفروض .

الانتحار منتهى مـا تصل اليه النفس من الجبن والخور ، ومـا يصل اليه العقل من الاضطراب والخبـل ، وأحسب ان الانسان لا يقدم عـلى الانتحار ، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور .

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده ، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معـاند لإرادة الله تعالى في بقـاء الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شانه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر للمنتحر في انتحـاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالأسى ، ومهما ألمت بـه كوارث الدهر ، وأزمت به أزمات العيش ، فإن مـا قدم عليه أشد مما فر منه ، وما خسره اضعاف ما كسبه .

ولو كان ذا عقل لعلم ان سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تفرّق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال ، وان قضاء ساعة واحـدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه ، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة .

ما اكثر هموم الدنيا ، وما اطول احزانها ، لا يفيق المرء فيها من همّ الا الى همّ ، ولا يرتاح من فاجعه الا الى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء ،

فاذا صح لكل مهموم ان يمقت حياته ، ولكل محزون ان يقتل نفسه ، خلت الدنيا من اهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود اليها ، وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ما سمي القاتل مجرماً الا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد ، وأقسى منه قاتل نفسه ، لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول ، فهو اكبر المجرمين ، واقسى القاتلين .

يخدع المنتحر نفسه ان ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة ، وأنه انما يفعل فعلته عن روية وبصيرة ، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المازق الاول من مآزق الموت حتى يثوب الى رشده وهداه ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد الى ذلك سبيلا .

ان ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يده الى من يرجو الخلاص على يده وود لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه ، وان حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقاً بالغاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل ، فاسد السمع والبصر .

ان فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت ، وآلام النزع ، وماذا يكون

حديث الناس عنه بعـد موته ، وهـل يمكن ان يوجد بينهم عاذر له او مشفق عليه ،او مقتصد في النيل منه والسخرية به ؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك اشكال العذاب وانواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لامثاله .

اني لا اظنه بعد ذلك فاعلا الا اذا كان وحشاً في ثوب انسان ، او بطلا من ابطال المارستان .

*

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس احيانا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت .

لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب ، لاجئاً الى الحياة الشعرية من اي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السآمة والضجر من صنوف المناظر وآفانين المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتخدير اعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وآكلي الأفيون . وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا انها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في

الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين .

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته الا اذا أسلم نفسه الى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود الى عالم واسع النطاق ، شاسع الاطراف يرى فيه كل ما تشتهي نفسه أن تراه ، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخلقة تخيل انه شرك الابصار ، وفتنة النظار ، وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الاطيار على الاشجار ، وإن كان فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه ، والتاج فوق رأسه واعتقد ان عبيد الله تعالى جميعاً عبيده ، وجنود المملكة بأسرهم جنوده ، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه على وجهه الى غرفة السجن ليقضي فيها ليلته ، وجملة القول ان عينه لا تقع على ما يحزنه من المنظورات ، وان اذنه لا تسمع ما ينفره من المسموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء .

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة الا اذا جن الليل ، وأوى الى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل ان له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنار ، والعرش والكرسي ، ويسمع صرير القلم في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون .

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، الا اذا جلس الى منضدته ، وأمسك بيراعه ، فطار به خياله بين الازهار

والانوار ، وتنقل به بين مسارح الافلاك ومسابح الأسماك . ووقف تارة على الطلول الدوارس ، يبكي اهلها النازحين وقطانها المفارقين . وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال العظام والأماني الحسان ؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعاً اذكياء واغبياء ، فهماء وبلداء ، والامل هو السد المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترض سبيله ان يتسرب الى القلوب ، ولو تسرب اليها لضاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاص منها ولو الى الموت ، طلباً للتغيير والانتقال ، وشغفاً بالتحوّل من حال الى حال .

يقولون : أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء ، ويقولون : ما لذة العيش الا للمجانين .

أتدري لماذا ؟ لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين ، وذلك ان عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له علمه باحوال الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناءة ، فلا يطالب

سعة العيش من وراء الأمـل كبقية المؤملين ، ولا يتلذذ بتصديق مـا لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول ، لولا الحيـاة الشعرية التي أحيـاها أحيـاناً في هـذه الكلمات التي أكتبها ، لاحببت ، زاهداً في هذه الحياة الحسية ، ان تطلع الشمس من مغربها إيذاناً بانقضاء العالم وفنائه، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال الى حال أن أنتقل ولو الى رحمة الله .

*

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام [1] يوماً من الايام كما يقف مسافر ضل به سبيله في فلوات الارض ومجاهلها بواد معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله ان أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ، وألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء في الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمائم والعصافير والبلابل والشحارير ، تتطاير من فرع الى فرع ، وتنتقل من غصن الى غصن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتتقاتل مرة ، وتتلاءم أخرى ، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات ، متنوّع النبرات ، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع

(١) عمر الخيام : شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة ، ورباعياته هذه مترجمة الى اكثر لغات العالم .

نغم لذيذ لا أعرف له شبيهاً الا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان ، في فراديس الجنان .

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجر ذيول تلك الجداول البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى رائحاً ولا غادياً . أتسمع فلا أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانىء باسم ، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكاس التي تتلألأ في يمينه ، ويترنم بين هذا وذاك بمقطوعات شعرية بديعة،يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وسعادة الوحدة وهناءتها ، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركاً هذا العالم الحافل بالهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه وكاسه وفتاته .

فان مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وسلطان ، ولذة واستمتاع ، قال : مالي وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنة والشقاء ، والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والأشلاء ، والعويل والبكاء ، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين : ثغر الفتاة ، وثغر الكاس ، وذينك الصديقين : هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الغصن

المطل ، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة .

وان ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على انفسهم قال : ان من العجز ان ابيــع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول ، انا اليوم موجود ، فلا بد ان أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به . ولا بما قدر لي فيه ، وعسير عليّ ان أتصور أننا معشر الاحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الارض لينبش عنا النابشون غـداً .

ثم يعود الى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول : اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر المؤمنون الموحدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فاني ما أذنبت عناداً لك ، ولا تمرّداً عليك ، ولكنها الكاس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين عقلي وانت اجل من ان تقاضيني مقاضاة الدائن غريمه ، لأنك كريم . والكريم يمنح العطية منحاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبــغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين .

واحيـانا يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحيـائهم وأمواتهم ، ويقول مخاطباً فتاته : رويداً أيتها الفتـاة في خطاك عـلى هذه الاعشاب النابتة ، فلعل جذورها ممتدة الى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك، ووجدانـ مثل وجـدانك ، وجمال ورواء مثـل جمالك وروائك ، ثم

ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غـلالة هـذه الأشعة البيضاء ، وإذا هي في دجنة تلك الاعمـاق السوداء ، فارفقي بهـا ، واسكبي هذه الفضلة من كاسك عـلى تربتها علهـا تتسرب اليها فتطفىء ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها .

ثم يتخيل أحياناً كانه واقف بين يدي رجـل خزاف يحرق حمأته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه النار ، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك ، وستكون أنت في مستقبل الأيام حماة مثلها ؛ وربما ساقك القدر الى يد خزاف تحتاج الى رحمته ورفقه، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غداً .

وآونـة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعي عـلى السعداء سعـادتهم ، ويذكرهم بمـا آلت اليه حـال الملوك السالفين ، والأقيال المـاضين ، من خرائب دورهم وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم ، وعفاء آثارهم .

ثم ينتقـل من ذلك الى البكاء عـلى نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته، وتنطفىء جذوته ، وتضعف منته،ويمحو نهار مشيبه ليل شبابـه ، فيزحف الى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سراً مكتوماً في ضمائر الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة ، الى عظة بديعة ، ومن خيال جميل الى تشبيه رقيق ، ومـن وصف ناطق ، الى تمثيـل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل

مرآة صافية قد تمثل فيها هـذا الكون بارضه وسمائه ، وليله ونهاره ، ونـاطقه وصامته ، وصادحه وبـاغمه ، وأن فخـار الأعراب بمتنبيها ومعريها ، والفرنسية بلامرتينها وفكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتها ، والالمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها، ومصر القديمة ببنتاؤورها ، ومصر الحديثة باحمدها، لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

*

الى تولستوي[1]

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك ، وتتخذ السبيل الى دار عزلتك ، فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط المزار ، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك ، وإن لم نرك ، وأبناءك ، وإن كان لنا آباء من دونك ، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك انك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعاً بعد أن أعجزك اصلاحه وتقويمه فابغضته ، وعفت النظر اليه ، وأبغضت لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك ، ففررت بنفسك منه الى غاب تسمع زئير سباعه ، أو دير تانس برنة ناقوسه ، وأسجلت أن لا تعود اليه ، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه الى الأبد فعذرناك ، ولم نعتب

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن (تولستوي) الفيلسوف الروسي المشهور ترك منزله هائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة ، أو في إحدى الغابات .

عليك، ولم نسمك جباناً ولا رعديداً ، ولا مولياً ولا مدبراً ، لأنك قاتلت فأبليت ، حتى لم يبق في غمدك سيف ، ولا فوق عاتقك رمح ، ولا في كنانتك سهم ، والعدو كثير عدده ، صعب مراسه ، وافرة قوته ، والشجاعة في غير موضعها جنون ، والوقوف اكثر من ثمانين عاماً أمام عدو لا أمل في براحه ، ولا مطمع في زياله : عناد ، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلاً في المعركة إلا مصير اولئك الفلاسفة العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دماؤهم ، واغتمضت عيونهم قبل ان يروا منظراً من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم ، ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ، وفي أفواههم من مرارة الموت .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وما الذي أفدت منها ؟ وأين وقع علمك وفضلك ؟ ولسانك وقلمك ؟ وقوة عارضتك ، ومضاء حجتك ، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم ، وظلم ألسنتهم وايديهم ؟

قلت لقيصر : ايها الملك ، انك صنيعة الشعب واجيره ، لا إلهه ومعبوده ، وانك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الاكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلا كما مأجور على عمل يعمله، وكلا كما مأخوذ باتقان مايعمل ،فكما ان صاحب المصنع يسال العامل هل وفى عمله ليوفي له اجره، كذلك يسالك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكل اليك حراسته فانقذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت

ان تستخلص عقلك من يدي هواك ؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته ؟ وهل اصممت اذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء ؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، او الطمع في ضعفك ، مذهب الزلفى اليك بالكذب والنميمة والتجسس ، والتسقط ، وذلة الاعناق وصرع الخدود ؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، ورآك اميناً على العهد الذي عهد اليك به ، ابقى عليك وابقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده ، واحسن اليك كما احسنت اليه ، او لا ، كان له معك شأن غير هذا الشان ، ورأي غير ذلك الرأي .

فما سمع منك هذه الكلمات حتى اكبرها واعظمها ، لانه لم يجد بين الكثيرين الذين يعاشرونه من يسمعه مثلها فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضمر أمثاله لامثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه .

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل آن تملك وحدك ــ وأنت نائم في سريرك ، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك ــ هذه الارض التي تضم بين أقطارها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين ــ الذين يفلحونها ويحرثونها ، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها ، ويسوقون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها ــ

شبراً واحداً فيها ، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك ، واعلم أن الارض لله يورثها من يشاء.

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت الى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت الى فأسك فحملتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين ، وخضت ما الخائضين ! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثى لعقلك ، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروّح بها عن نفسه ــ في مجتمعات أنسه ولهوه ــ ما يساوره من السآمة والضجر .

وقلت للكاهن : إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لانه لم يرض ان يقر الظالمين على ظلمهم ، وأنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوآتهم ، ويهتك استارهم ، وانت تزعم انك خليفته ، وحامل امانته ، والقائم بنشر آياته ، والمترسم مواقع اقدامه في خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ؟ وما هذه اليد التي تبسطها اليهم بالمودة والأخاء كأنما تريد ان تعقد بينك وبينهم عهداً ان يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك ، وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك ان تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من

تشاء ؟ وما هذه القصور التي تسكنها ، والديباج الذي تلبسه ، والعيش البارد الذي تنعم به ؟ وانت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها الى عبادة الله والانكماش في طاعته .

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه ان ارسل اليك كتاب الحرمان ، وهو يعلم انك لا تعترف له بالقدرة على اعطاء ولا منع، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغض من كرامتك، واغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك .

وأبكاك منظر المنفيين في سيبريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من انواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملآن : الاعلى والادنى ، وقلت : ايها الناس ان الشر لا يدفع الشر ، وان الاشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم ، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقام يلهب نارها ، واجعلوا المدارس مكان السجون، والمعلمين مكان السجانين. فلم يسمع صرختك سامع، ولا بكا لبكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون والجند يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب ، وبكاء النساء المعولات خلف ازواجهن واولادهن واخوتهن ، وهم سائرون الى حرب لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائن وسخائم لا سبب لها الا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخيل اليهم انهم اعداء وهم اصدقاء ، فخلعوا ثوب الانسان ولبسوا فروة السبع،

وأنشب كل منهم ظفره في صدر اخيه كانـه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لو لا جور السياسة وظلالها .

فما اغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا اجدى عليك عويلك وانينك، فالحرب لم تزل باقية ، ومصانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى اصبحت تعد مثلها لمعارك السماء .

فهنيئاً لك ايها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة الهادئة المطمئنة ، لقد نجوت بها من حيـاة لا سبيل للعـاقل فيها الا ان يسكت فيهلك غيظاً ، او ينطق فيموت كمداً .

ربما استطاع الحكيم ان يحيل الجهل علماً ، والظلمة نوراً ، والسواد بيضاً والبحر براً ، والبر بحراً ، وان يتخذ نفقـاً في الارض او سلمـاً في السماء . ولكنه لا يستطيـع ان يحيـل رذيلة المجتمـع الإنساني فضيلة ، وفساده صلاحاً .

مـا دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه ، ومـا دام لا يحسن اليه الا اذا اراد ان يتخذ عبداً يعبده من دون الله ، وما دام للأثرة هـذا السلطان الاكبر عـلى افراد المجتمع ، ومن اكبر كبـاره الى اصغر صغـاره ، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغـابات والاحراش بالامس ، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قـد أوى اليوم بشروره ومفاسده الى بيت من الزجـاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجـاج شفاف لا يكتم مـا وراءه .

وارحمتاه[1]

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به ، ولا من الحياة غير ألسنة تهتف به في صباحها ومسائها ، وبكورها وأصائلها بالدعاء الى الله تعالى أن يتولى امرها ، ويسدد خطاها ، وييسر لها السبيل الى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيام في يدها ، وما ابقت في يدها سوى لقيمات غير سائغة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل .

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس ، إنهم عاجزون عن ان يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل اشلاء مبعثرة تحت كل كوكب ، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات

(١) كتبت اثناء الحرب بين ايطاليا وطرابلس الغرب .

المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيرانـ ذلك الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمتاه لهم ، انهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخونـ فلا يسمعون مجيباً ، وقد تقطعت بهم الاسباب ، وأعوزتهم الوسائل ، وسدّت في وجوههم السبل ، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ، لولا انهم يتركونـ من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم ارامل ضعفاء ، وأيتاماً صغاراً ، وشيوخاً كباراً ، لا يعلمون ماذا اضمر لهم القدر في صدره من نعيم او شقاء .

كأني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية ، فابوا إلا أن يزحفوا الى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم ان باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الارواح التي احتقرت اجسادها وازدرتها ، فتجردت من اثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها ، وكأني ارى الرجل منهم ، وقد دخل الى بيته ليعدّ عدّته ، ويودع اهله الوداع الاخير ، فبكت أمه وناحت زوجه وصاح ولده ، فبكى لبكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعاً من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشية من الموت ، لانه يعلم ان الحياة الذليلة احقر من ان يضن بها صاحبها ، بل مخافة ان تستبد باعراض بيته وحرماته ، تلك الايدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً، ولا تعطف على كبير ، او ان يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً ، لانه لم

يترك لهم قوتاً يتبلغون به ، ولا عماداً يعتمدون عليه ، فإذا علم ان موقفه بين اهله موقف جلل يكاد يغلب فيه على صبره ، نظر نظرة في السماء ارسل فيها الى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، وأمل ورجاء ، ثم انفتل من بين ايديهم ، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الاخرى حتى يفتح له .

هنالك تنوح النائحات ، وتبكي الباكيات ، وتطير النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم تر في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها : برزة ألوجه ، عارية الرأس حيرى مولهة هائمة في الطرق والمذاهب ، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها او زوجها او اخيها ، فإما بقيت في حيرتها بياض يومها وسواد ليلها ، وإما عادت الى بيتها بالثقل القاتل ، والحزن الدائم ، وهنالك ترى الشيوخ الكبار والاطفال الصغار ، والعاجزين والضعفاء لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون ان يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ، فلا تقيهم ، او عائذين بالمضايق والشعاب يفرون اليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم ، وهناك ترى اولئك القوم الذين يسمون انفسهم مجاهدين ، او فاتحين ، او قوّاداً عظاماً ، او سواساً كباراً ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال ، وينظرون الى اولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا ارواحهم واموالهم ، نظر السيد الى مولاه الذي ملك

ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا اليهم في تلك الساعة بلقيمات كتلك التي يلقيها سيد الكلب الى كلبه ، او الراعي الى ماشيته ، ليشهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الاوصال ، ولا أيموا النساء ، ولا يتموا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات الا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشانها .

لا أحسب أن مسلماً دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحساناً ، وعطفاً وحناناً ، يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعاً ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قراراً ، حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون باعينهم في مشارق الارض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو منجداً يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها ، فاحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الامل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوّهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب الى الله ، وأدنى الى رحمته وإحسانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ،

تعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده .

انكم ان تحسنوا اليهم تحسنوا الى أنفسكم ، وان تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جـامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمـة أقوى من لحمة النسب ، ووشيجة أوثق من وشيجة القربى ، وانكم جميعاً تصلون الى قبلة واحدة، وتهتفون في الغداة والعشي بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وباسائكم الى اله واحد ، وتقفون في بيت الله بين حرمه والمقام موقفاً واحداً .

أيها المسلمون :

انكم ان اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً، وان هديتم لرشدكم في موقفكم هـذا لن تضلوا من بعده أبداً ، وانـكم ان قدمتم بين ايديـكم هـذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم عـلى أمركم ، ووفى لـكم بما وعدكم من نصره ومعونته ، و «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

★

خطبة الحرب

يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس ، وحماة الثغور ، وذادة المعاقل والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

ان الله وعدكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فانجزوا وعدكم ينجز لكم وعده .

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، فوالله ان فررتم لا تفرون الا عن عرض لا يجد له حامياً ، وشرف لا يجد له ذائداً ، ودين يشكوا الى الله قوماً أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه .

انكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تتراءى في ظلال الأساطيل ، وخيالات تلوذ بأكناف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعداً .

انهم يطلبون الحياة ، وانتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت ، وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون جنة عرضها السموات والارض ، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق في افواه المؤمنين .

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمته ، فتقدموا الى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم الى انفسكم ، وانتم من القوم الصادقين .

ان هذه القطرات من الدماء التي تسيل من اجسامكم ستستحيل غداً الى شهب نارية حمراء تهوى فوق رؤوس اعدائكم فتحرقهم وان هذه الانات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة الى اله السماء ان ياخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء .

ان أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم ، وأخذوا بلحى شيوخكم الاجلاء فساقوهم الى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بانفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجالكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل ارض وتحت كل سماء ، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين !

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا

يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الواسطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو الموت اشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا اما الحياة أبداً ، واما الموت أبداً .

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ؛ ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ؛ ويطاون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم ، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها الى مواقف الذل والهوان ؛ كما تقاد الإبل المخشومة الى معاطنها ؛ فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته ، فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

ان هذه الاساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهها اليكم والبنادق المسددة الى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتالف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار الى تلك الدار ؛ فسيروا في طريقكم الى آخرتكم ، فإن الأعداء ان ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستميت لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار اكثر ممن يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت .

ان كتاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا

صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تماون عليهم من حسنات أو سيئات ، فاملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه فيعجزكم .

موتوا البوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم وتصلي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله اليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلماً يصلي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه الى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلي بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاتحين سعداً وأبا عبيدة ، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإسلام وذادته ، من السابقين الأولين والجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا باسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وانا على آثاركم لمهتدون .

أن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم الى أعدائكم ، فإنكم ان فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الارض أبداً .

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ الى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته آزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه ، وتكشف غماءه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها ، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله ، فتخر له الجباه سجداً ، وتبتدر يديه الافواه لثماً وتقبيلاً .

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الاساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نفخة اسرافيل آخراً والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها ، ولا تستحيل مادتها ، ولا تبلى جدتها على كر الليالي ومر الايام .

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية الا وهي تعتمد على الجامعة الانسانية في سيرها وتستظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالمجاهد الوطني يقول : اني أدافع عن وطني ، وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقـــام الذائد المناضل ، لاني أعتقد أني ان أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو بـــه في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية ؛ فجرى سيلها متدفعاً لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه ، والمجاهد الديني يقول : اني أعتقد أن الانسانية لا تزال معذبة يأكل قويها ضعيفها ، ويغتال كبيرها صغيرها ؛ ويستضعف حاكمها محكومها ؟ حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فأنا ان حاربت البلاد ، وقاتلت العباد ، فإنما أريد بخوض هذا البحر الاحمر من الدماء أن أصل الى سفينة الانسانية المشرفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها .

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا الا أن يغفلوا ذكر الجـــامعة الانسانية في دعائهم الى جامعاتهم التي يدعون اليها ، فسد عليهم امرهم في كل ما يقولون وما يفعلون .

ليس لصاحب وطن من الاوطان، او صاحب دين من الاديان ان يقول لغيره ممن يسكن وطناً غير وطنه ، او يدين بدين غير دينه : انا غيرك ، فيجب ان اكون عدوك، لان الانسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية، ولان هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ، ومواطن اقامتهم

وألوان أجسادهم ، واطوالهم واعرضهم انما هي اعتبارات ومصطلحات ، او مصادفات واتفاقات ، تعرض لجوهر الانسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه ، وتتوارد عليه توارد الاعراض على الاجسام،ففي كل بلد،وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الاعجمي،ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن.ويؤمن الجاحد،ويستشرق المغربي،ويستغرب المشرقي،ولو شئت ان اقول لقلت انه لا يوجد فوق رقعة الارض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ، ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أمته .

اذا جاز لكل اقليم ان يتنكر لغيره من الاقاليم ، جاز لكل بلد ان يتنكر لغيره من البلاد ، بل جـــاز لكل بيت ان ينظر تلك النظرة الشزراء الى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للأب ان يقول لولده ، وللولد ان يقول لابيه : اليك عني ، لا تمد عينيك الى شيء مما في يدي ولا تطمع ان أوثرك على نفسي بشيء مما اختصصتها به ، لانني غيرك ، فيجب ان اكون عدوك المحارب لك ، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل انسان لاخيه بين اضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه ، ويطيـــل سهده ، ويقلق مضجعه ويحبب اليه صورة الموت ، ويبغض اليه وجه الحيـــاة ، وهنالك يصبح الانسان اشبه شيء بذلك الانسان الاول في وحشته وانفراده ، يقلب وجهه في آفـــاق السماء ، وينبش بيديه طبقات الارض فلا يجد له في الوحشة مؤنسا ، ولا على الهموم معينا .

الجامعة الانسانية اقرب الجامعات الى قلب الانسان ، واعلقها بفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لانه يبكي لمصاب من لا يعرف ـ وان كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ او اسطورة من الاساطير ، ولانه لا يرى غريقاً يتخبط في الماء ، او حريقاً يتلظى في النار، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف وقفة الحزين المتلهف ان كان ضعيفاً، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل ان كان قوياً ، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم ان اولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية ، وان لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا ان ستاراً من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين او تجارهما على قلوب الضعفاء السذج ، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا باس بالفكرة الوطنية،ولا باس بالحمية الدينية،ولا باس بالعصبية لهما ، والذود عنهما ، ولكن يجب ان يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها ، أي ان تكون دوائر الجامعات كلها داخلة في دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فاذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها ، فاذا هو شعبة من شعب الجنون .

فان كان لا بد للإنسان من ان يحارب أخاه او يقاتله ، فليحاربه

مـدافعاً لا مهاجمـاً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً ، وليكن موقفه أمامـه في جميع ذلـك موقف العادل المنصف ، والشفيق الرحيم ، فيدفنه قتيـلاً ، ويعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ، ويخلفه عـلى أهله وولده بافضل مـا يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شانه معه شان تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

اذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

★

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تعبث المدنية في صورتها ، شمسها في آفاقها، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها ، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها ، لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج ، ويجري ماؤها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطراده ، لا تلوي به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب في وجهه القناطر ، ويهيم وحشها في جبالها .. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الاول عرين موصود .. ولا الآخر قفص محدود ، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر المطرية على طبيعتها وفطرتها .

ينطق العربي بما يعلم .. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل.. لأن كلا ما هو محيط

به من هواء وماء وأرض وسماء ..وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات .
على الفطرة السليمة الخاصة ، فاحرى ان يكون شعره كذلك .

ذلك كان شان الشعر العربي والعرب على فطرتهم . وذلك معنى قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ؛ ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية ؛ فان ظن ظان ان التماثيل والنصب والصور والتهاويل ،وبقايا الآثار ،وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان ، والفينيقيين والفراعنة ؛ أدل على تواريخ اولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له : ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته ؛ أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ؛ فانتقلت الأمة العربية من بدواتها الى حضارتها . وهاجر معها شعرها بهجرتها . فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان : بشار ، وأبو نواس ، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة ؛ فقلنا لا باس ، فالشعر العربي أوسع من ان يضيق بحاجات أمته وضرورتها ، في جميع شؤونها وحالاتها ، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية ، فسلك الى كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والاسلوب المتكلف، فثغر في الشعر العربي ثغرة آلح عليها السائرون على أثره من بعده باظفارهم وأنيابهم حتى صيروها فوهة واسعة لا تمنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها،

فاصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورّاق وابي الحسن الجزار والصفي الحلي وامثالهم ، اشبه شيء بتلك الآنية الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم جاء على اثر هؤلاء من تدلى الى منزلة أدون من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو اشبه الاشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزاناً للشعر ، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل ، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى انزل الله اليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الاخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فاصبحنا نرى في ابراد الكثير منهم ، اجسام امرىء القيس ، والنابغة ، ومسلم ، وابي نواس ، وابي عبادة ، والشريف ، ومهيار لا فرق بينهم وبينهم سوى ان هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الابكار.

حوانيت الاعراض

أنا لا أستطيع ان أتصوّر الفرق بين رجل يمد يده الى خزانة بيتي فيسرق مالي ، وبين آخر يمد لسانه او قلمه الى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك ، وكلاهما لص مغتال ، وان كان اولهما في نظر القانون وفي عرف الناس أكبرهما إثماً ، وأسوأهما أثراً .

المال خادم من خدام الشرف ، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه ، ولولا مكان الشرف ، والكلف بصيانته ، والضن به ان يعبث بجوهره عابث . ما كان لامرىء في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من ان يقيم به صلبه . ويمسك به حوباءه ، فان كان سارق المال مجرماً من حيث كونه هاتكاً لذلك الحجاب المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه ان يكون رأس الجانين واكبر المجرمين .

يكون للرجل — من الصحفيين مثلاً — عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مارب من المآرب التي لا يعرف

لنفسه فيها حقاً ولا يمت اليها بسبب من الاسباب الظاهرة او الباطنة ، فما هو إلا ان يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات ،يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلف عثنونها على يده ثم يقوده بها الى حيث شاء كما تقاد السائمة الى مصرعها.

يحب الرجل المجد حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر الى مغربه، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حمأتها ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع ان يحمله بشر ، حتى اذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل اول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذي صبه له في انائه ذلك المجرم الاثيم .

ان بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها « ادارات » قوماً مفاليك قد دارت عليهم الايام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم . فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو ان الله ابقى لهم بعد ان سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ، فلم يجدوا بين ايديهم منفذاً ينفذون منه الى القوت، فتحوا حوانيت للاتجار باعراض الناس وكرامتهم سموها صحفاً ، واكثر مشتملاتها اعراض الاشراف والعظماء وارباب الجد والعمل ، الذين سبقوهم الى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظاً لحرمانهم مما أفاض الله عليهم . فهم ان فتشت عنهم ، وكشفت عن

دخـائل نفوسهم ، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويـين الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء ، وأستغفر الله ، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد يكون خطبهم سهلا ومصابهم محتملا ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للنـاس صفحـات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية ، ولكنهم مراءون مخـادعون ، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية او الادبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محددون ، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغاً ، وضاقت بهم الارض الفضاء عـلى رحبها ، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيـل من شرف الشرفـاء ، وتنغيص لذة السعداء .. ويطلبون قوتهم فيما بين هـذا وذاك من يـد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيـع أن تفرق بـين الكاتب الذي يكتب ليقوّم معوجاً ، او يصلح مختلا ، او يرفـع بدعة باطلة ، او يكشف عن حقيقة خـافية ، وبين الآخر الذي يدور مـع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفـارقها ، والذي لا يلذه شرب المـاء إلا ممزوجاً بدم . ووالله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد اليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل اليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الاتقياء الذين يصلحون أن

يكونوا امثلة حسنة في منـازلهم ، فيكونوا قدوة صالحـة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه، او التاجر في حانوته ، او العامل في معمله ، فيصلح ان يكون حكماً في قضايا الأشراف والنبـلاء ، وميزاناً لحسنـاتهم وسيئـاتهم . وعندي أن لو جمعت عيوب النـاس جميعهـا في كفة ميزان ، ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس ، وهتك الاعراض ، واتهام الابرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون انهم يقوّمون معوجهم ويثقفون منـآدهم ، ويصلحون مـا فسد من شؤونهم .

★

الرثاء

ما أنس لا أنسى رجلا كان خير من لقيت من الرجال ، وكان يعجبني منه أدبه وفضله ، وعفته وحياؤه ، وشرف نفسه ، وطهارة قلبه ، وأنه كان صبوراً محتملا تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية ، كما ترتد الكرة عن الحائط اذا قرعتها .

كان فقيراً لا يملك من الدنيا اكثر مما يقيم صلبه ، ويمسك حوباءه ويستر سوأته ، فزوّجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمامتها ، وسوء خلقها ، وجفاء طبعها ، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان برّاً به ، مطيعاً له ، نازلاً عند أمره ونهيه ، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها ، لأنه كان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، رفيقاً بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أني على طول عشرتي له ، ولصوق نفسي بنفسه ، ما سمعته يشكو إليّ يوماً من الايام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته . وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد ، وسكوناً الى ما جرت به الاقلام في ألواح المقادير . فكنت أرحم صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء ، لأني أعلم أن نيران الاحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها ، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات . وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطايبها ؛ أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين الى أحد اصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين او ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح قبل انحدارها الى مغربها ثم لا تلبث ان تتلاشى، ولا يلبث أن يعود الى جموده الاول ، لا يحزن فيبكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر اليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم ، ولا يظلله ليل ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أني أجهله فاكاتمه ذلك العلم جهدي رفقاً به واشفاقاً عليه ، حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثماً في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد اطرق اطراقاً طويلا ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني ، فرفع رأسه فادهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر اليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال :

ــ أتعتقد أن الله موجود ؟ قلت : نعم ــ معالجاً نفسي على كتمان ما كان يذهب بلبي من تنكر حاله ، وتغير اطواره .

قال : وتعتقد أنه عادل ؟ قلت : نعم .

قال : وراحم ؟ قلت : نعم .

فبسط يده الي فعل الضارع المستصرخ وقال :

ــ هـل لك ان تحدثني ايهـا الصديق عن نزول الصواعق ، وثورة البراكين ، وطغيان البحار ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتك الأداء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والاحزان ؟ هـل تعتقـد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة ؟

قلت : نعم ، ان الله يمتحن عبـاده ليعـلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه مـن المثوبة والأجر أضعاف مـا كانوا يقدرون لانفسهم مـن سعادة الحياة وهناءتها .

قال : ان الله اكرم من أن يجعل الشر طريقاً الى الخير ، وألا يحسن الى عباده الا بعد ان يسلبهم الإساءة .

قلت : ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل بعمله . ان خيراً فخير وان شراً فشر .

قال : انه كتب على نفسه الرحمة .

قلت : نعم ، انه اكرم الكرماء ، وارحم الرحماء .

قال : حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر ، ولم يتسرب الى قلبه كيد ، مالي اراه مفترشاً حجر امه وقد تولى الليل الا اقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام ؟ فينتفض تارة ويختلج أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع ، وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لي ارى امه باكية مولهة ، ذاهلة اللب موجعة القلب ، تفزع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والتاث امرها ، وعظم يأسها ، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدها وضعف ناصرها ، فانشات تقلب وجهها في السماء ضارعة الى الله تعالى ان يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينا هي تنتظر صوت الاجابة يرن في آفاق السماء ، اذا بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها ، واذا به ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللب ، ويذهب ببقية الصبر ، حتى تفيض نفسه ، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى اصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة ؟

قلت : وما يدريك لعل الله اراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم انه سيلقى فيها مثلما تلقى انت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الاليم ؟

فنالت هذه الكلمة من نفسه ، وجمد أمامها جموداً طويلاً ، ثم قال : أحسنت ايها الصديق ، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا ، وحقارة شأنها ، فيتمنون لو لم تلدهم امهاتهم ولم يكتب لهم سطر واحد في الوجود ، وبعد فهل لك في سفرة معي الى ذلك الصديق

الريفي نقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود ؟ على أن تكون معي كما كان موسى مع الخضر ، لا تسالني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ؟

فوافيت رغبته ، وقبلت شرطه ثم قام وقمت ، ولو أنني ملكت في هذه اللحظة الدنيا بجزافيرها لوهبتها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على مكان نكبته التي زعزعت نفسه ، وصهرت قلبه ، وملكت عليه لبه، وكادت تعبث بيقينه ، وما هي الا ساعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه، وقد أظل الليل بجناحيه ، فقضينا واجب التحية والسلام ، ثم خلا الصديق بصديقه خلوة طويلة لا اعلم ما دار فيها بينهم ، ثم خرجا إليّ فجلسنا ساعة نتحدث . ثم قمنا الى فراشنا فنمت نوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليل حتى شعرت ان صديقي يتحرك في فراشه ، ويطيل النظر إليّ ليعلم أنائم انا أم مستيقظ ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل الى المشجب فلبس أثوابه ، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع وقلت : لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً وأنا اكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء ، فقمت على أثره اتتبع خطواته ، وأسير وراءه من مدرجة الى أخرى ، حتى بلغ مقبرة البلد ، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في امكنتها جثوم الآبال في معاطنها ، ثم مشى يتصفح القبور قبراً قبراً ، فخيل اليّ انه شبح من اشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا اجلالي لهذا الموقف الرهيب،

وشعوري أنني واقف على ابواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم ، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم ، ونغص عليهم ما يتمنون ان يصفوا من طعامهم وشرابهم، والتي يفد اليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي اهليهم ، وذوي أرحامهم .. ليقدموهم بأنفسهم هدية الى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض ثغورهم ، مراتع ترتع فيها كما تشاء .. من حيث لا يملك مالك منهم عن نفسه دفعاً، ولا يعرف الى النجاة سبيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكت على نفسي حتى ذهلت عن موقفي ، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة من امر صديقي ، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفقت فرأيته جاثياً امام قبر من تلك القبور جثيّ العابد بين يدي معبوده ، فدلفت اليه حتى دنوت منه فسمعته يقول :

اللهم انك تعلم اني ماكفرت نعمتك ، ولا خفرت ذمتك ، ولاهتكت حرمة من حرماتك ، ولا نزلت عند سخطك وغضبك ، ولا تبرّمت بقضائك وقدرك ، وانك احسنت اليّ بتلك الطفلة احساناً عظيماً لأنك انقذت بها حياتي من همومها وآلامها ، ثم لم تلبث ان سلبتنيها وشيكاً أهنأ ما كنت بها وأرجى ما كنت الى قضاء ساعات العمر بجانبها ، فاغفر لي جزعي وحزني فكثير عليّ ان لا اجزع ولا احزن .

لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، وكأنما استحالت في

نظري حقـائق الاشيـاء ، فأصبحت لا ارى في النجمة لالاءهـا ، ولا في الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى اذا ذهبت ذهب بذهابها كل شيء ؟

لقد ذهبت بي الايام فيما مضى كل مذهب ، وجرّعتني مـن كؤوس الشقاء جرعاً مـا احتمل فيم قبل فمي مرارتها ، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي حينما أسدت اليّ تلك اليد التي انستني جميع هموم الحياة وآلامها.. وأمـا اليوم وقـد صفرت منها يدي ، وأقفر بفراقها ربعي .. وحـالت تلك الصفائح بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى .

من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي جملة واحدة ، فلا اعود اذكر ايام حياتها معي ومقعدها بجانبي، وصوتها الرقيق ، وحديثها العـذب ، وصفـاء عينيهـا ، ورونق وجهها ، وصورة قومتها وجيئتها وذهوبها وضحكها وبكائها ويقظتها ومنامها ، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي ، فاني كلما ذكرت ذلك شعرت كان قلبي المجموع قد استحال الى أفلاذ صغيرة تتطاير في اجواز الفضاء .

اللهم إني أعلم ان الدنيا ليست بدار قرار ، فلا أمل في البقاء فيهـا ، والركون اليها ، والاستمتاع بلذة العيش فيها ، وانها الجسر الذي يمر به الأحياء الى دارهم الأخرى ، وكل ما كنت أطمع فيه منها ان يكون لي كما للناس جميعاً رفيق يعينني على قطع تلـك الشقة البعيدة ، ويهوّن عـليّ آلام وحشتها وكآبتها ، فحرمتني ذلـك الرفيق المعين . فكيف أسير ، واين أعيش ؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ويطفىء بها المحزونون لواعج قلوبهم ، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في القدر المحكمة الغطاء ، فامنن عليّ بدمعة واحدة أطفىء بها غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك ان تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين .

اللهم لا ريبة في عدلك ، ولا ظنة في كرمك ، ولا اعتراض على قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك ، خرج أمر نفسي من يدي ، وأصبحت لا استطيع ان أبصر ما بين يدي ، فاغفر لي سقطي وزللي .

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من الموت ، فاسترد اليك عاريتك التي أعرتنيها فقد عجزت عن حملها ؛ وضقت ذرعاً بامرها ؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم .

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمى ، ثم سقط على صفائح القبر ؛ فعلمت ان الرجل قد انفجر ؛ وان الله قد استرد وديعته اليه ؛ واختار للرجل ما عنده ؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولي فاذا صديقه واقف ورائي يشهد المنظر الذي أشهد ، ويذرف من الدموع أضعاف ما أذرف ، فدنونا منه معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه الى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع ، وهنالك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيئة أمره فقال : إنه قضى زمناً طويلاً يشكو اليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة

زوجه وخشونة طبعها ، وجفـاء خلقها ، ثم اقترح علـيّ يوماً من الايام ان أزوجه من أختي ففعلت رحمـة به واشفاقاً عليه ، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهـله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة او مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها الى ربها ، وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها ، وكان يختلف اليها كما كان يختلف الى أمها ، وشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لي انني أشعر ان حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة ، وأنا اما إن نعيش معاً ، او نموت معـاً وكانه ألهم بمـا سيكون ، فقضى الله ان تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها اكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأمها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها اليه بكتاب أرسلته اليه بالأمس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله ان يكون .

دفنت صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقاً اليهـا ، ووجداً عليها ، ثم عدت الى بلدتي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئاً منه يدي ، والذي كنت أجله وأعظمه حياً ولا أزال أبكيه وأذكره ميتاً ، وأتخذ حياته الشريفة الحافـلة بمواقف الصبر والجـلد ، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بهـا حتى يجمع الله بيني وبينه .

كفى حزنـاً بموتـك ثم إني   نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات   وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب اليّ كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكاد تكتب سطراً ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تكاد تنظم بيتاً ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم لم تنظم في عهدك الثاني ؟ كأنما ظن عافاه الله أنني اكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، او أهيم في واد غير ذلك الوادي ! وهل الشعر الا نثارة [1] من الدر ينظمها الشاعر ان شاء شعراً ، وينثرها الكاتب ان شاء نثراً ؟ او نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، او عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين [2] من عروض وقافية او خافيتين [3] من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر الا

---

(١) النثارة : ما تناثر من الشيء .
(٢) القادمة : مفرد قوادم ، وهي عشر ريشات في جناح الطائر .
(٣) الخوافي : ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه واطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا ان غريزة في النفس ان يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ، ما نظم ناظم شعراً ولا روى عروضي بحراً .

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر .. ولا يعرف ما قوافيه واعاريضه ، وما علله وزحافاته ؟ ولكنه سمع اصوات النواعير وحفيف الاوراق وخرير المياه ، وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذ له ان يبكي لبكائها وينشجج لنشيجها ، وان يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها ، فاذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالبة ، ولا من ابحره وضروبه سوى انها صورة من صوره ، ولون من الوانه .

ذلك منتهى نظر العربي الى الشعر ، وذلك ما دعاه الى ان يسمى النبي الذي بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم انه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز ارجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات ابلغ الكلام وافصحه واعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب ، واملكه للعواطف والمشاعر ، واجمعه لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرفة ، وامثال تيك مما لا ينطق به الناطق في اكثر مناحيه ومنازعه الا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً ، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

مـا كل موزون شعراً ، وكل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلـق بالنفس من طول ترديـد المنظوم والتغني بـه مقطعـاً تقطيعاً يوازن تفاعيله .. فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغنـاء ، يتمثل في قول الملك الضليل[1] :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

كما يتمثل في قول الخليل :

* فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن *

ويتراءى في اوتار الحلق الناطق كما يتراءى في اوتار العود الصامت .

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان ، ومـا النظم بالإضافة اليـه الا كالحلى في جيد الغانية الحسناء ، او الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما ان الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزرى بـه أنه غير معلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى مـا اعتاده النـاس من أنهم ينظمون مايشعرون به ، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي ادخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءاً واحداً لا يستطاع معه التمييز بينهما الا القليل من الناقدين ، فاصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فـلا نجد بيتاً ،

(١) هو لقب امرىء القيس .

ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة ، واصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وضل به عن قصده ، وعندي ان أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر ، وسر ذلك ان الشاعر يتمكن ببراعة اسلوبه ، وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ، ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بارضها وسمائها ، وشموسها واقمارها ،ورياضها وازهارها ، وسهولها وجبالها ، وصادحها وباغمها[1] وناطقها وصامتها ، من حيث لا ينقل الى ذلك قدماً ، او يلاقي في سبيله نصبا ، فان سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أني واجهتنا فيحجبها ، ويأذن للنسيم

(١) يقال : بغم الغزال اذا صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .

يروع حصاه حالية [1] العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

خيل اليه أنـه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وازهاره ، خطران النسيم بين ظلاله واشجاره ، وأنه يرى بعينه اولئك العذارى السانحات،وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء. فتولهن وفزعن الى جوانب عقودهن يلمسنها باطراف بنانهن ، يحسبن ان قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض .

وان سمع قول الآخر :

ودار ندامى عطلوهـــا وأدلجوا
بهـا أثر منهم جديـد ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم
وأنى عـلى امثـال تلـك لحابس
أقمنـا بهـا يومـا ويومـا وثالثا
ويومـا له يوم الترحل خامس
تدار علينـا الراح في عسجدية
حبتهـا بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتهـا
مها تدريها [2] بالقسى الفوارس
فللراح ما زرّت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) الحالية : لابسة الحلى .　　(٢) أدرى الصيد : ختله .

تمثل له كانه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيهـا اصوات قوم يلهون ويقصفون [1] ويقرعون الكؤوس بامثالها ، فاقترب منها وأطل من خصاص [2] بابها ، فرأى اولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قـد تكاملت سنه ، وشيب الدهر فوديه [3] ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشا فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين ايديهم ، ورآهم يملأون الكؤوس خمراً الى ما يوازي اعناق اولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء الى ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطا بمجتمعهم ، وبما هيىء لهم من الهناءة والنعمة فيـه ، ثم مر بتلـك الدار بعـد ايام فرآها مقفرة من اهلها لا تسمع بها نغمة ولا نامة [4] فدخلها فـلم ير فيها الا اعواد ريحـان قد يبس اكثرها .. مبعثرة في جوانبها .. وخطوطا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوّها ورواحها بين اولئك الندماء فانصرف حزينا مكتئبا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل :

رب ركب قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

---

(١) قصف : أقام في أكل وشرب ولهو .
(٢) الخصاص : كل خلل وخرق في باب او غيره .
(٣) الفودان : ناحيتا الرأس .   (٤) النأمة : النغمة والصوت .

ويوم كتنور الإماء سجرنه[1]   وأوقدن فيه الجزل حتى تضرّما
رميت بنفسي في أجيج سمومه   وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كان لهيب تلك الملجرة يهب في وجهه فيشيح عنه فراراً من لفحاته ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله، وحالت بينه وبين نفسه، فلا هو بصابر ان رام صبراً، ولا بناج ان أراد نجاء.

وان سمع قول الآخر:

وارحمتا للغريب في البلد النا   زح، ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزناً على ذلك الغريب الحائر، وتمنى ان لو التقى به في بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته. ثم أخذ بيده فانزله من بيته منزلاً كريماً وابدله أهلاً باهل، وجيراناً بجيران.

وان سمع قول الآخر:

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

(١) سجر الرجل التنور: ملأه وقوداً.

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وانهم هووا غيى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس تمُـر بي
زجرت لهم طـيراً يمر بهم سعـدا
ولا أحمـل الحقـد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غنى
وان قـلّ مالي لم أكلفهم رفـدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

اكبر تلك المكرمة واجلها ، ونظر اليها وهي في علياء سمائها ، نظر الفلكي الى كوكبه الساري ، وشعر كان نورها قد لمع فامتد شعاعه الى الى نفسه فاضاءها .

ولا غرو ان يبلـغ الشعر من نفسه هـذا المبلغ ، فطالما كان للشعر السلطان الاكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له اعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هنداً انجزتنا مـا تعـد وشفت أنفسنـا ممـا تجـد
واستبـدّت مرّة واحـدة إنمـا العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل

عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة [1] وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودّد فيهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شافة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الحطيئة واطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة :

أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت ، وربما
منّ الفتى ، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من اصبت وسيلة
وأحقهم ، ان كان عتق ، يعتق

(١) الرقلة : النخلة التي تفوت اليد .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ،
لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال — وهو من لا ظنة[1] في عدله ، ولا ريبة في حكمه — : « لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته الا للشعر ، وللشعر الفضل الاول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال .. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً ، أما الناطق فقد عرفته ، وأما الصامت ، فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال : شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصوّر خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي : شعر ، وهدير الامواج : شعر ، لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل : شعر ، لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف الأوراق : شعر ، لأنه يمثل تناجي العشاق ، وبكاء الحمائم : شعر ، لأنه يمثل فجيعة البين ولوعة الفراق ، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة أخرى ، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة ، وألبستها ذلك الثوب الناعم الابيض حتى احببناها ، وولعنا بها ، وحرصنا عليها ، وأعددنا العدة للبقاء فيها .. والسكون اليها ، فكتبنا ودوّنا وألفنا واخترعنا ، وتعلمنا فعلمنا ، وبنينا

(١) الظنة : التهمة .

فشيدنا ، وغرسنا فجنينـا ، وعملنـا فربحنا ، واجتهدنا فاثرينا ، وأملنا فسمينا ، وسعينا فبلغنا ، فكأن الشعر سر هذه الحياة ، وعـلة هـذا الوجود ، لا تطير الينا الحقائق الا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش الا في جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، ومطالع كواكب الفضل ، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ، ثم يتسرب الى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة .

★

الشهيدتان

لم تغتمض عيناي ليلة امس ، لأنني بت اسمع في الدار الملاصقة لبيتي انين امرأة متوجعة ، تعالج هماً ثقيلاً ، وتشكو مرضاً أليماً ، ويخيل اليّ أني لا اسمع بجانبها معللاً يعللها ، ولا جليساً يتوجع لها ، فلما اصبح الصباح ذهبت اليها ، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على اكثر من سرير بال يتراءى فوقه شبح ماثل من اشباح الموتى ، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها ، وكانها شعرت بمكاني فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء ، فاسعفتها بها .. فاستفاقت قليلا ، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها ، فانشأت تقص عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كاني انتزعه من بين ماضغيها انتزاعاً وتقول :

زوجني ابي منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق ، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عاماً واحداً ، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي اوليائها لعرفت كيف احسن الاختيار لنفسي ، بل لو لم يكن في

الأمر الا ان أتبتل كما تتبتل الراهبات ، او اتزوج زواجاً ينتهي بي الى هذا المصير ، لكان لي في الرهبانية رأي غير ما يراه النساء جميعاً ، ولكنني عجزت فاذعنت ، وحملت اليه فاستقبلني باحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه ، واكرمهن عليه ، فكان يريبني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الاسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وانني اصبحت في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي الا طفلتي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا املك ردّه ولا اعرف وجه الحيلة فيه ، واحتملت طفلتي الى بيت أبي فوجدته مريضاً مشرفاً ، فبكى رحمة بي ، واستغفرني من ذنبه اليّ فغفرته له ، وما هي الا ايام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزئي الذي نزل بي ، فعلمت ان الدهر قد سجل عليّ في جريدة الشقاء اياماً طوالاً لا اعلم متى يكون انقضاؤها ،ولا أدري ما الله صانع فيها ،فظللت استكتب الناس الكتب الى ذلك الرجل اساله القوت ، لأستعين به على تربية طفلته ، او التسريح ، عسى ان يبدلني الله خيراً منه زكاة واقرب رحماً ، فضن بالأولى واستعظم الاخرى ، فلم أرى لي سبيلاً غير سبيل العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل ، قائمة النهار، استقطر الرزق من سم الخياط ، فلا ابلغ منه الكفاف .. حتى نال مني الجهد .. فذهبت بمعضلة من الأدواء خرجت لها عن كل ما املك من حيلة وذخيرة .. وكسوة وآنية ، واصبحت لا املك درهماً ابتاع به قارورة الدواء ، ولا

اجد مزقة امسك بها قوائم هذا السرير المتداعي ، ولم يقنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد كتبت الى ذلك الرجل منذ شهر اصف له حالتي وافضي اليه بذات نفسي واساله ان يمدّني وابنتي بقليل من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتهـــا خطوب الايام وارزاؤها من اعظمنا وجلودنا ، ولبثت اترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني لجالسة منذ ايام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه اليّ وسيئاته عندي ، فلا افرغ من عقد الا الى عقد ، ولا انتهي الا الى حيث أبتدىء، وقد اجلست طفلتي بين يدي اتطلع الى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلماتِ بحره الى نجمة القطب .. إذ هجم عليّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يدي من حيث لا املك دفعاً لما نابني ، ولا اجد ما أذود به عن نفسي ، الا زفرات لا يسمعها سامع ، وعبرات لا يرحمها راحم ، فشعرت كأن سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم ههنا وهنا .. قد اصاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي كما يجب ان تبيت امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالهـا ، فأصبحت لا تجد أمامها يداً تنبسط اليهـا ، ولا عيناً تبكي عليها ، وقد مر بي على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقـأ لي دمع ولا يهدأ بي مضجع ، حتى اذا اختلست من يد الظـلام نعسة تراءت لي تلك الفتاة في نومها كانها صارخة باكية تهتف باسمي ، وكأن أباهـا يوسعها ضرباً وتعذيباً ، وكأنني أحاول استنقاذها ممـا هي فيه فلا أجد اليها سبيلا ،

وهاأنذا أشعر أن سحابة الموت تغشي على بصري . وأني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقي على ابنتي نظرة اتزود بها منها قبل ان افارق هذه الدار .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى جرضت بريقها وتتابعت أنفاسها وشطر بصرها ، فجثوت عند سريرها أدعوا لها الله أن يعينها على أمرها ، ويمدها برحمته وإحسانه . فإني لكذلك ، وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله . إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحاً منتصباً عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة . فتقدمت نحوه فرأيته خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته نظرات الوجد والرحمة ، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو ، ولا ينبض بها عرق . فقلت : من أنت وماذا تريد ؟ قال : أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة ، قلت : لعلك جئت تستغفرها من ذنبك اليها في التفريق بينها وبين ابنتها ؟ قال : يا سيدي ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءاً مرّاً ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب ، ولا ينجع فيها دواء ، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئت بها الى امها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها ، قلت : ذلك موكول الى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي امها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها ، والأم بفتاتها ، حتى فاضت نفساها معاً ، كأنما

كانتا من الردى على ميعـاد ! !

* * *

الآن وقـد عدت من دفن تينك الشهيدتين ، وجلست لكتابة هذه السطور ، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزناً عـلى تلك المرأة المسكينة ، لا بل حزناً عـلى جميع البـائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجـال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضي ، من حيث لا يجدن راحماً يرحمهن ، ولا ثائراً يثار لهن .

*

الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو :

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب ، وأجرى البدر المنير ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر ، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار ، غبار النهار .

قومي يا بنية الى الصلاة . فقد مات النهار ، وماتت بموته الآلام والأحزان والاحقاد والاضغان ، والمظالم والمآثم ؛ ولم يبق من تلك الاعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه الى أبواب السماء .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد أوى الناس الى منازلهم ، والطيور الى وكناتها ، والوحوش الى أوجرتها ، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها ، ولم يبق من اصواتها الا انين الراحة المتمثل في جعجعة هذه المركبة المقبلة ، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك

الرياح الضاربة في ذوائب الاشجار ، وأعالي الابراج .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الاطفال حول اسرتهم حفاة الاقدام عراة الرؤوس ، شواخص الابصار ، يطلبون الراحة من الله تعالى لآبائهم وامهاتهم وللناس اجمعين ، فترن اصواتهم ، في علياء السماء ، رنين نغمات الموسيقي في أجواز الفضاء فيرددها الملائكة طائرين بها الى عرش الرحمن ، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ؛ ذهبوا الى مضاجعهم وناموا نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول افواههم الباسمة ، كما تتطاير اسراب النحل حول احواض الازهار .

قومي يا بنية الى الصلاة .. واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الاولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ومن احشائها مهاداً قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كاسي شقائه ونعيمه فشربت الاولى وآثرتك بالاخرى .

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب ، طاهرة النفس ، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء ، وتمد يدها الى اجتناء كل ثمرة الا ثمرة الشجرة المنهى عنها ، وكانت تقف امام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سمعه وبصره، وتنظر اليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم ان السعادة الكاذبة أمر مذاقاً في الافواه من الشقاء الصادق، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصور

الخالية إنما يبكون من حيث لا يشعرون ، وأن الجالسين حول مائدة الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بانفسهم ولا بد أنهم خاسرون ، فتحول بصرها ، وتشيح بوجهها ، وتعود أدراجها ، بقلب غير مخدوع ، وفؤاد غير مصدوع .

اذكري يا بنية ان تطلبي الرحمة لأبيك كما تطلبينها لأمك ، فهو أحوج اليها منها ، ولأن الخطايا قد اثقلت ظهره فاصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه الى السماء ، وغلت يده ، فلا يستطيع أن يمدها الى الله بالدعاء .

إنني أشعر يا بنيتي حينما اسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام القيود عن قدمي ، وأن تلك السحابة السوداء التي تغشى على عيني تنقشع عنها قليلاً قليلاً وكان جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به في أعالي السماء .

اطلبي الرحمة الآباء العائدين الى منازلهم تحت جنح الظلام بدموع منهلة ، وقلوب واجفة ، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها الى مغربها فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم .

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة ابنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن ، وحارت ابصارهن مخافة أن يذقن مرارة الثكل والثكل كثير على قلوب الامهات .

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه ، والاحمق الذي يبتسم للمعان الحرير في صدره ، والذهب في اصابعه ، والملك الذي يشعل نار الجرب في امته ، ليطفىء نار غضبه ، والزوج الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته ، ويحاسب زوجه على ابتسامة تبسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لايشعرون ببؤسهم، والاشقياء الذين يظنون أنهم سعداء .

اطلبي الرحمة لاولئك الذين عمروا الارض وبنوا دورها ، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها ، وأغوارها ، وأنجادها ، فجازتهم سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم في أعماق جوفها ، فاصبحوا في تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالاقدام ، والنعال بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث ، انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط،يتالمون وينطقون، ولايستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم ، او يلبي دعاءهم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم الى روضة غناء تزهر فوق اجداثهم ، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم . وتطفىء جذوة الحزن الملتهبة في أحشائهم ، إنهم الى الرحمة محتاجون والى الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ، والملحدين

والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل سابحة في السماء ، ولا تياسي أن يستجيب الله دعاءك ، فلكل بداية نهاية ، ولكل سائلة قرار .

كما ان النهر يصب في البحر ، والطائر يقـع عـلى الغصن ، والشمس تجري لمستقرها ، والنفس تصعد الى عالمها ، كذلك أبواب السماء ، مفتحة لخالص الدعاء .

★

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسداً أحداً عـلى نعمة ، فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر عـلى قصره ، لو أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغني الا في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من مـاله عـلى اليتيم الذي سلبه الدهر أبـاه ، والأرملة التي فجعها القدر في عـائلها ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميـع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانساني فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكي على

عقله إن مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزراً ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحاً جعداً مقتراً على نفسه وعياله ، بغيضاً الى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

اما الفقير فهو أسعد الناس عيشاً ، وأروحهم بالاً ، إلا إذا كان جاهلا مخدوعاً يظن أن الغني أسعد منه حظاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدراً فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه اسطع ذبالا واكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الشعر او الوبر انعم ملمساً وألين مضجعاً من وسائد الحرير ونضائد الديباج .

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس انهم يحفلون بالأغنياء لأنهم اغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة او يسيغ غصة، وليت شعري ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وجد، فلمَ يقبلون ايدي الصيارفة ، ولا ينهضون اجلالاً للكلاب المطوّقة بالذهب ، وهم يعملون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟

لو عامل الفقراء بخلاء الاغنياء بما يجب ان يعاملوا به لوجدوا انفسهم في وحشة من انفسهم ، ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكنزونها انما هي اساور ملتفة على اقدامهم ، واغلال آخذة باعناقهم ، ولعلموا ان الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في احمال المال .

فليعظم الناس الكرماء ،وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا ان الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وان السعادة امر وراء الكوخ والقصر .

★

على سرير الموت

مررت يوماً من الايام على باب منزل صغير في احد الازقة الضيقة ، فرأيت حوله مجمعاً حافلا تصطك فيه الاقدام بالاقدام ، وتمتزج فيه الانفاس بالانفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلا يقول: « قبح الله الانتحار » وآخر يقول : « احسبه شاباً غريباً لاني لم ار عيناً تدمع عليه » فعلمت ان هناك شاباً منتحراً ، وان هذا الحادث سبب هذا الاجتماع .

لم اقنع بالاجمال ، فاحببت معرفة التفصيل ، فحاولت الدخول الى المنزل فما استطعت الى ذلك سبيلا ، فتريثت حتى لمحت رجلا من رجال الشرطة اعرفه فدخلت معه وهنالك رايت على سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره ، رقيق الجسم اصفر اللون ، لم تستطع يد الموت ان تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علة موته ، اما انا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون افكر في مصيبته ، واندب شبابه وجماله ، فلمحت حول سريره اوراقاً منثورة فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما افعل ، علني اجد فيها عبرة من العبر .

وما هي الا ساعة ، حتى قرر الطبيب انه منتحر بشرب مادة الزرنيخ وقرر الضابط نقل جثته الى المستشفى ، فنقلت الجثة ، وانفض الجمع المزدحم ، ثم لم اعد اعلم بعد ذلك من امره شيئاً .

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق ، تناول كاس الحب بيده ، فارتشف منهـا الرشفة الاولى فوجدها حلوة المذاق ، فألصق الكاس بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الاخيرة ، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته .

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه ، ثم طويتها وألقيت بها بين اوراقي ، وظلت على ذلك اعواماً طوالاً .

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في سفط صغير ، قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه ، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية ، فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي ، وتخيلت انها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر .

ثم عدت الى نفسي فنثرتها للمرة الثـانية وأعـدت قراءتها ، فرأيت قلب العـاشق مرسوماً فيهـا رسماً صحيحاً في حـالي سعـادته وشقـائه ، وهانذا انشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل ، سبيل الحب القاتل :

ـ ١ ـ

رأيتها فاحببتها ، وما كنت أعرف الحب من قبلها .

كان قلبي في ظـلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة ؛ لهـا من الشمس نورها وجمالها ، وليس لها منها حرارتها ولذعتها .

كنت اشعر قبـل اليوم كان قلبي في صحراء هـذه الحيـاة وحيد موحش لا يعرف القلوب ، او يعرفهـا ثم ينكرها ، فلمـا احببت رأيت بجانبه قلبـاً يؤنسه ويزيـل وحشته ، فوجدت بـين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعاً ما خالطها حزن ولا مسها ألم .

كنت اسمع باسم السعادة ولا افهم معناها غير أني كنت أسمعهم اذا ذكروهـا ذكروا بجـانبها القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما احببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب ، وأيقنت ان الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الاجسام لا سعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديبـاج ، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات .

— ٢ —

احببتها قبل أن اعرف عنها شأناً من الشؤون سوى أنها تحبني ، فكانني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت احدث نفسي بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني ، ولا سوانح الاحلام .

عشت دهراً بين أقوام لا يعنيهم امري ولا يهمهم شأني ، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا استطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسالني : كيف حالك ؟ ومن يقول لي : ما اشد جزعي لمصابك ؟ ومن يتباكى رحمة بي وإشفاقا عليّ ، ولكني لم ار بجانبي يوماً من الايام عيناً تدمع ، ولا قلباً يخفق !

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع ، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه او خزانته ، ومن يعجب بحديثي اعجابه برواية بديعة ، ولكني لم ار في حياتي من يحبني !

اما اليوم فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لاجلي ، والعين التي تبكي في سبيلي ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن امنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي !

— ٣ —

جلست اليها للمرة الاولى فحدثتني نفسي أن أمد يدي الى يدها فاضعها على صدري لاطفىء بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت اليّ نظرة

العاتب ، وقالت : كن رجلا في حبك ، واترك الطفولة لغيرك .

ان كنت تحبني لنفسي فها أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني.. وان كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك .. وما أصغر نفسك !.

اتذرف دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة قلبك ، من اجل عظمة تلمسها او جلدة تلثمها ؟

أنت شريف في نفسك ، فكن شريفاً في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وتمنيت ان لو عجل الى اجلي قبل ان يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني . ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي ، وما عدت من بعدها الى مثلها .

ـ ٤ ـ

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهانذا أشعر كان نفسي مرآة يغشاها الصدأ ، وكان الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئاً فشيئاً .

كنت احمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً ، فأصبحت لا أشعر بما كنت اشعر به من قبل ، لأن الحب ملك على قلبي ، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم .. سريع الغضب إن فاتني مارب .. فاصبحت فسيح رقعة الحلم ، لا يستفزني غضب ، ولا يحرجني محرج لأني قنعت بسعادة الحب ، فلم احفل بعدها بشيء سواها .

كنت شديد القسوة ، متحجر القلب ، لا اعطف على بائس ، ولا احنو على ضعيف ، فاصبحت اشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا تصيبني ، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون ، لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نوراً .. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب .

وجملة القول انني كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضته وتدليله ، فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً ، وملكاً كريماً .

ــ ٥ ــ

خرجت بها في الليل الى ضفة النهر ، وكان الماء رائقاً ، والسماء صافية ، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا الامر حتى ما نفرّق بين الاصل والمرآة ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء ، فمشينا طويلاً لا ينبس احدنا بكلمة ، وكان سكون الليل قد سرى الى أفئدتنا وملا ما بين جوانحنا ، فامسكنا عن الحديث هيبة واجلالاً .

وكنت اشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي ، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل اليّ أني لو شئت ان اطير لطرت بغير جناح، وأن في استطاعتي

أن اخترق بنظري حجب السماء وأنفذ الى الملأ الاعلى فأرى هنالك ما هو محجوب عن نظر النـاس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فـلا يهتدي الى مغربه ، وأن يختبىء الليل في بردته فـلا يعثر به فجره ، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام .

فالتفت اليها وسالتها : هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها ؟

قالت : لا ، لاني أعرف من شؤون الايام وأحوالهـا غير مـا تعرف ولأني لا أنظر الى الدنيا بالعين التي تنظر بها اليها !

أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

إنك سعيد لانك تظن أن سعادتك دائمـة لا انقطاع لهـا ، وأنا شقية لاني اتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها .

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحول بـين الارض ودورتها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك ، والمتحرك ان يسكن ، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلا ، فرأيت مدامعها تنحدر عـلى خديهـا بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون ، فبكيت لبكائها ، وقلت لِمَ تبكين؟ قالت : خوف الفراق ، قلت : فراق الحياة ، أو فراق الموت ؟ قالت : أمـا فراق الحياة فإنني لا اخـافه ، لانه لا توجد قوة في العـالم تستطيع ان تحول بيني وبينك ، انمـا اخـاف فراق الموت ، لانه الفراق الذي لا حيلة لي فيه .. ولا منتدح عنه ، قلت : هل لك ان نتعاهد

على أن نعيش معاً ونموت معاً، قالت : ذلك ما يهوّن عليّ ألمي، فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا ، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

ـ ٦ ـ

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الانسان؟

ألا يستطيع ان يستقيه كاساً واحدة لا يخالطها كدر ، ولا يمازجها شقاء ؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كاسها قطرة واحدة ما دام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟

ان الانسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المتقطعة .

يقولون : ان الامل حياة الانسان ، وما قتل الانسان ومزق شمل حياته الا الامل .

ليتني ما سعدت ، لانني ما شقيت الا بسعادتي ، وليتني ما أملت ، لان اليأس القاتل ما جاءني الا من طريق الامل الباطل .

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ، وينبوع سعادتي وهناءتي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء ، فمات بموتها كل حي في هذا الوجود .

أرى الارض غير الارض، والسماء غير السماء ، وأرى الطيور صامتة لا تغرد ، والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والازهار ذابلة ، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلالا جمالها ، وأرى الدنيا كانما عادت الى عهدها الاول لا يسكنها انسان ولا يخطر بها حيوان، وكانني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته .

أيها الدهر الغـادر : ان غلبتني عليها فإنك لن تستطيع ان تغلبني عن نفسي ، لك أن تخرج من الدنيـا من تشاء ، ولكن ليس لـك ان ترد اليها من تخرج منها .

ويا ايتها النفس الهائمة في سمائها ، لا تجزعي ولا تعجلي ، فوالله لأفين بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا ، فما تعارفنا في العالم الاول الا بأرواحنا فلنكن كذلك في العـالم الثاني .

غدر المرأة

يقصون في بعض الاساطير القديمة أن حكيماً من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله .. وأحاط به احاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه الى نفسه الخوف من أن تدور الايام دورتها ، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه الى صائد آخر يعتلقه من بعده ، وكان كلما أبث زوجته سرّه وشكا اليها ما يساور قلبه من ذلك الهم ، حنت عليه ، وعللته بمعسول الاماني وأقسمت له بكل محرجة من الايمان انها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً .. فكان يسكن الى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد .. ثم لا يلبث أن يعود الى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض روحاته الى منزله في احدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة.. فبدا له ان يدخلها ليروّح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقاً

الإصغاء الى حديث المردة والجان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة امام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الابيض مطرز بأسلاك من الذهب، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه .. ثم أنست به حينما عرفته .. فسألها ما شأنها .. وما مقامها هنا؟ ومن هذا الدفين؟ وما هذا الذي تفعل؟ فابت أن تجيبه عما سال حتى تفرغ من شانها، فجلس اليها وتناول المروحة منها، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه مات منذ ثلاثة ايام، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد اقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره، وان هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فابى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن اليها ان تحنث بيمين اقسمتها له .. او تخيس بما عاهدته عليه، ثم قالت له: هل لك يا سيدي ان تقبل هذه المروحة هدية مني اليك .. وجزاء لك على حسن صنيعك معي؟ فتقبلها منها شاكراً بعد ان هنأها بزواجها الجديد! ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدّث نفسه ويقول: انه احبها واحسن اليها، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه .. ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي اقسمتها له؛ فكأنها وهي جالسة امام زوجها الاول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها، وتصفف طرتها وتلبس حليتها،

للزفاف الى غيره .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رآى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجه ماثلة امامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها : ان امرأة خائنة غادرة اهدت اليّ هذه المروحة فقبلتها منها اليك .. لانها اداة من ادوات الغدر والخيانة ، وانت اولى بها مني . ثم انشا يقص عليها ، قصة المرأة حتى اتى عليها ، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها اربا اربا.. وانشات تسب تلك المرأة وتشتمها، وتنعي عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها ، ثم قالت : ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دمت حياً ؟ وهل تحسب ان امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟ فقال لها : انك اقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهدك ؟ قالت : نعم ، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر ان انا فعلت ، فاطمان لقسمها وعاد الى هدوئه وسكونه .

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً ، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى اشرف على الموت ، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه ، فامرت ان يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله ان تفعل ، وانها لكذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها ان فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته ذعر

ذعراً شديداً وخرّ في مكانه صعقاً وانه لا يزال صريعاً عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره ، فامرتها ان تذهب بـه الى غرفة الأضياف وأن تتولى شانه حتى يستفيق ، ثم عادت الى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيـع الثاني من الليل دخلت عليها الخـادم مرة أخرى مذعورة مرتـاعة وهي تقول : رحمتك وإحسانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالـج من آلامـه وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت في امره ، ومـا احسبه ان نحن أغفلنـا امره الا هـالكاً ، فاهمها الامر وقامت تتحامل عـلى نفسها حتي وصلت الى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت ابدع سطر خطته يـد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيل اليها ان المصبـاح الذي امـامها قبس من ذلك النور المتلألىء في ذلك الوجه المنير، وان انينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنـة ترن في جوف الليل البهيم ، فانساهـا الحزن عـلى المريض المشرف الحزن عـلى الفقيد الهالك ، وعنـاها امره ، فلم تترك وسيلة من وسائـل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق ونظر الى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء ، ثم انشأ يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من امره كل ما كان يهمها ان تعرفه ، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنـا أطرقت برأسها ساعة طويلة عـالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها وامسكت بيده، وقالت له: انك قد ثكلت استاذك وأنا ثكلت زوجي فاصبح همنا واحداً، فهل لك

ان تكون عوناً لي وأن اكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ، فالم بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها : من لي يا سيدتي ان اظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليّ عيشي ، وافسد عليّ شأن حياتي، وقد انذرني الطبيب باقتراب ساعة اجلي ان لم تدركني رحمةالله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فأنت من بنات الحياة ، وانا من ابناءالموت. فقالتله : انك ستعيش، وساعالجك ولو كان دواؤك بين سحري، ونحري قال : لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فانا عالم بدوائي ، وعالم باني لاأجد السبيل اليه ، قالت : وما دواؤك . قال : حدثني طبيبي ان شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدت وشحبلونها وأطرقت إطراقة طويلة لا يعلم الا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيها .. ثم رفعت رأسها وقالت : كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني ، ثمأمرتهان يعود الىراحتهوسكونه،وخرجتمن الغرفة متسللة حتىوصلت الى غرفة سلاح زوجها فاخذت منها فاساً قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت الى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً مزعجاً ، فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً ، ثم دارت بعينيها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ، ولم تكد تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف

والخادم واقفين يتضاحكان ، ففهمت كل شيء .

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة اجمل من هذه الفأس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه افضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظر اليه نظراً غريباً ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

★

الضاد[1]

كان العرب الأولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلمَ يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا اكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا اوفر عدداً من مرافقهم ، واوسع فصولاً وأنواعاً ؟

اين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها الا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، واكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون والايام ، ولم تعصف بـه عواصف

(١) الضاد : عنوان اللغة العربية .

القرون والاعوام

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، ان تضيق حاجاتهم عن لغتهم، فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد ، واربعمائة للداهية ، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة ؟ وتضيق عن حاجاتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الادوات التي يضمها المعمل إسماً عربياً واحداً ؟ اللهم الا القليل التافه من امثال : المسبر والمبرد ، والمنشار والمسمار ؟

ايكون لسفينة البر ــ وهي لا تحمل الا الرجل ، او الرجل ورديفه ــ مائتا اسم ومائتان من الأسماء لأعضائها واوصالها ، ورحلها وكورها .. ولا يكون لسفينة البحر ــ وهي المدينة المتنقلة في الدأماء ــ القليل من ذلك الحظ الكثير ؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم ، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون ، ويتطارحون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم ، ويحكمون لمبرزهم على مقصرهم ، حكماً لا يرد ولا يعارض ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها فكان مطمح انظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها الى لغة قريش التي هي افصح اللغات وأقربها ماخذاً وأسهلها مساغاً و أحسنها بياناً .

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الاولى على ما نعجز عنه نحن ؟ ونحن الى مؤتمرهم أحوج منهم اليه ، لان تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن ان يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الادباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين ، ولغة المترجمين ، ولغات العامة التي لا حصر لها .

ان كان الجاهليون في حاجة الى مجتمع لتوحيد اللغـات المتشعبة ، فنحن في حاجة الى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجـه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحـد يقـع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به ، ومجتمع دائم لوضع اسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب او النحت او الاشتقاق ، وآخر للإشراف على الاساليب العربـة المستعملة ، وتهذيبها وتصفيتها من المبتـذل الساقط والمستغلق النافر ، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والاذهان ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

سياحة في كتاب

اعجب ما اعجب له من أمر نفسي أني احب الجمال خيالا ، اكثر مما احبه حقيقة ، فيعجبني وصف الروض اكثر مما يعجبني مرآه ، ولا اطرب لمنظر الفتيات الجميلات ، طربي لمنظر القصائد الغزليات ، واحب ان اقرأ وصف المدن الجميلة ، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وانهارها وجداولها .. وميادينها وتماثيلها ، وانديتها ومجامعها ولا يهمني ان اراها ، كأنني اريد ان استديم لنفسي تلك اللذة الخيالية واخاف ان تحول الحقيقة بيني وبينها واحسب اني لو كنت عاشقاً لاصبحت اضحوكة العاشقين .. واعجوبة الهازئين والساخرين ، ولكان مثلي مثل ذلك الرجل الذي احب امرأة فاستزارها فمنعته حيناً ثم زارته ، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته : ما باله ؟ فقال لها : اريد ان انام علني آرى طيفك في المنام !

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس اليه يستقبلونه استقبال الجيش

المدجج للملك المتوّج ، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في شانه المذاهب كلها : فمن صاعد الى رؤوس الجبال، وسارب في سهل الرمال ، وواقف موقف الإعجاب والإجلال.. بين جمال الأنوار ، وانوار الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات .. لا يعلم اتشبه القامات الغصون ، ام الغصون القامات

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب،وما كان لي ان اذهب مذهبهم لأني لا اعجب بما يعجبون . ولا اهتف لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي افتش عن ضالة خيال اجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء ، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة العرب ، وهو الكتاب الذي ترجمه الاستاذ « كامل حجاج » ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها .. فقلت : حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات .

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الارض، ورأيتهم يمدّون اعناقهم الى تلك النافذة وينظرون اليها نظرة الفلكي الى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وانهم لكذلك إذ اطل عليهم نابليون الاول من نافذة قصره كما يطل البدر من

وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس ، وملك روما كما يسميه ابوه ، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملا مسمع الخافقين ، وابتسموا لمرآه ابتساماً اضاء ما بين المشرقين والمغربين ، وهنا سمعت الشاعر الكبير[1] يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له :

رويداً ايها الرجل المغرور بالتاج والسرير ، والملك الكبير..والجيش الخاضع ، والشعب الطائع ، انت تقدر لطفلك في مستقبل الايام ملكاً كملكك ، ومجداً كمجدك ، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر الايام من الحوادث العظام، والخطوب الجسام ، فهل اخذت على الايام عهداً لنفسك فتأخذه لولدك ؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك ؟

ايها الملك المغرور : انك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير .. الى الكوخ الحقير،وسيحيط بك الجند في منفاك احاطة الإخضاع والإذلال.. لا احاطة الإعظام والاجلال ، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضعة اشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت .

ايها الملك المغرور : لا تقل ان المستقبل لي فإنما المستقبل لله .

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلأت نفسي عبرة بصائر

(١) فيكتور هيجو .

الايام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض ، وابرام ونقض ، ومشيت حتى وصلت الى برية جرداء ،ودوية قفراء،لا يطرقها انسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحت على البعد رجل يمشي على بعض الشواطيء فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب ماؤها في احشائها ، دبيب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدورها كمون الاسرار في صدور الاقدار .

فما هي الا بضع خطوات حتى وقـع نظري عـلى رجل مسكين غـاصت قدمـاه في الرمل فحاول نزعهما فغاص الى ركبتيه ، فتحلحل ، فغاص الى صدره ، ومـا زال يساعد على نفسه بنفسه ويهبط شبراً كلما حاول ان يرتفع فتراً ، حتى لم يبق منه على ظهر الارض غـير فم يصرخ بالنداء ، وعين تذرف بالبكاء ، ثم ما لبث أن غطاها الرمـل فرفـع يديه بالدعاء ، فلم يجد من رحمة في الارض ولا في السماء .

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات من الدمع على هـذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : إنني عجزت عن اسعاده في نكبته ومعونته في شدته، فلا أقل من أسعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم .

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامرتين فرأيته جـالساً في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعى على عتبة بابه ، فسمعته يخاطبه ويقول له :

أيها الكلب الأمين ، قد هجرني الناس وبقيت بجانبي ، وخانني الاصدقاء ووفيت لي ، فانت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الاخلاق متواضع ، تابى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل ما اسدى من النعمة اليك ، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة الباب ، ولأجلستك بجانبي على فراشي ، لأنك صديقي ومؤنسي ، ولأنك أحق بالإكرام من كثير من اولئك الذين يفترشون الطنافس ، ويتوسدون الوسائد ، وحسبي منك هذه النظرات التي تلقيها عليّ بهدوء وسكون ، كانك تقرأ فيها صفحة وجهي ، ما غاب عنك من دخيلة أمري ، وكانني أسمعك تقول : ما باله ، وما شانه؟ وما الذي يبكيه ؟ ليتني أعرف دخيلة أمره ، وليتني أستطيع أن اكون فداءه ! فحسبي منك ذلك ، وهل يطمع الانسان ان يجد من اوفى اصدقائه اكثر مما اجده في لفتاتك ، والحه في نظراتك ؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق ، فتسللت وذهبت لشاني وأنا أقول في نفسي: إذا كان لامرتين ـ وهو أشعر شاعر في فرنسا، وفرنسا مهبط وحي الشعر ـ لم يجد له صديقاً وفياً غير كلبه المقعى على عتبة غرفته ، فاين يذهب سائر الشعراء ، ومتى يجدون الاصدقاء ؟

تركت منزل لامرتين وذهبت الى منزل « دى موسيه » فرأيته معتزلاً في غرفة من غرف منزله يبكي بكاء مراً .. ويزفر زفيراً شديداً ، تكاد تنقطع له احشاؤه . فقلت : ليت شعري ما أبكاه ؟ وما الذي دهاه ؟ فسمعته يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه ،

شرحاً مؤثراً مؤلماً حتى كان يخيل اليّ ان كل بيت من ابياتها جذوة نار ملتهبة . وسمعته يشكو من خيانة حبيبته « جورج صاند » ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهدها وزمامها فلا يجد الى ذلك سبيلا .. وما هو الا ان اتم قصيدته حتى تغير لونـه وشخص بصره .. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة .. بين ايدَي الرياح العـاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم ، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمت ان الرجل قـد جن ، وان العالم الشعري قد فجع الى الابد . فمضيت لسبيلي ، وأنا أسال الله العـافية . وأقول : ان جمـال المرأة احقر مـن ان يقتل اوفر عقل ، وأعجز ان يطفىء اكبر قريحة .

ولكنها الاقدار تجري بحكمها   علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دى موسيه ، ومشيت في شارع مـن شوارع باريس ، فرأيت شيخـاً رث الثياب ، زري الهيئة ، يمشي مشية هـادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعـالاً بالية ، قـد اطلت اصابعه من خروقهـا كما تطل الحيـات من احجـارها فاتبعته نظري ، فرأيته لا يرفع طرفه سكوناً واطراقاً ، ولا يكاد يحرك عضواً من اعضائه رزانة ووقـاراً ، فقلت في نفسي : ان لهذا الرجل شاناً ، فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف عـلى باب حانوت اسكاف ، فلم يجد صاحب الحـانوت في مكانه ، فجلس عـلى الارض ينتظره حتى يعود فيخصف لـه نعله ، فسالت بعض المـارة عنه فقال : هذا « كورنى » شاعر فرنسا ، فاخذتني الدهشة وملكني العجب، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي، وقلت في نفسي: ويح لكم معشر الناس.

اتضنون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلد اعناقكم الدر والجوهر. اعجزتم على أن تجمعوا امركم على ان تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم ، ويخفف محنتكم ، ثم رجعت ادراجي وأنا اقول : كان قضاء حتماً على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .

ان في جلسة « لامارتين » منفرداً في منزله لا مؤنس له غير كلبه ، وفي عزلة « دى موسيه » في غرفته بين دموعه وأحزانه ، وفي جلسة « كورني » امام حانوت الاسكاف ينتظر ترقيع نعله ، لآية للمتفكرين ، وعبرة للمعتبرين .

***

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب اشكر للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم، وأقول : من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب ؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس امام الشعر البارودي ، وامام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع مـا سكبنا ، ثم كفكفنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : ان في الباقي عزاء عن الفاني ، وان الأبناء خلفاً من الآباء ، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعد مـــا قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه ، فتساءلنا : أين الباقي الذين يزعمون ؟ والخلف الذي يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الغربية ، لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية ، لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجي ، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما ، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير ؟

ما مـــات منهم أحد ، وانما كانت حياة ذينك الرجلين ، حيـاة

الصناعيين ، وكان لوجودها سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتها من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء ، تشتعل المصابيح بتيارها ، وتضيء بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضى اجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصابيح ـ كما هي ـ جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

اما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام في واد غير ذلك الوادي وما زالت تعبث به الانواء حتى اغرقته في شبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء[1] ، أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام الى العام ، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان ؟ وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التاليف ، هذا بصهاريجه[2] وذاك بفتراته[3] ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على آثر الماضين :

أين سكانك لا أين لهم احجازاً اوطنوها أم شآما

اين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها ، ونهصر اغصانها ، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها ؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين

(١) هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسوي ترجمه حافظ ابراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه

(٢) هو كتاب « صهاريج اللؤلؤ » للسيد البكري .

(٣) هو كتاب « فترة من الزمن » المسمى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي .

اشجارها فتطرب بالأغاريد ، وتستهوى بالاناشيد .

فاسألنها واجعل بكاك جواباً   تجد الدمع سائلاً ومجيباً

انا لا اعجب لشيء عجبي لهؤلاء الادباء : يحزنون فلا يبكون ، ويطربون فلا يضحكون ، ويألمون بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

ايطرب البلبل فيغرد ، ويشجي الحمام فينوح ، ويطرب الشاعر ، ويشجي الكاتب ، فلا ينطق لسانهما ولا يهتز قلمهما ؟

لما اسنّ عمر بن ابي ربيعة ورأى ان شعر الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره ، عزم على هجره فما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وغلب على امره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتال لذلك بأن حلف الا يقول بيتاً من الشعر الا اعتق رقبة ، فشكا اليه رجل حباً برّح به ، فحن واهتاج ، ونظم ابياتاً في شان الرجل ووجده ، ثم اعتق عن كل بيت رقبة .

فهل نزر أدباؤنا ما نذر عمر بن ابي ربيعة ، وهم في شرخ الشباب وابان الفتوة ؟ ان كانوا فعلوا ذلك فاسال الله لهم قصة كقصة عمر تهيج اشجانهم ، فتحنث ايمانهم ، والامة كفيلة لهم بوفاء النذور ، وكفارة الايمان :

وذو الشوق القديم وان تعزّى   مشوق حين يلقي العاشقينا

القِسْمُ الثَالِث

البيان

أعرف أديباً من أفضل الأدباء في هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها. الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها ، الا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة ، ولا ينشر في الناس كتاباً ، الا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملاً ياخذ على القارىء عقله وفهمه ، فلا يدري أي سبيل ياخذ بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه ، الآخذة من نفسه ماخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة،فلا سبيل له الى التخلص منها ، والنزوع عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله اليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العامية ، فاعجبت باسلوبه في كتابه هذا اعجاباً كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه ، كافضل ما يتقدر متقدر على ذلك ، الا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفاً ، وياخذ نفسه أخذاً ، ولو أنه أرسل

نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأناً ، وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضي بنفسه على نفسه .

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن الا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق في وضعها فارسلها عفو الخاطر ارسال من يعلم أنه انما يسأل عن الاجادة في الشعر ، لا عن البراعة في النثر ، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب ، أمام قوة الشاعر غير عالم أنه كاتب من افصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما احسن الا حيث ظن الاساءة ، ولا اساء الا حيث ظن الاحسان .

ووالله لا ادري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الاغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون انهم انما يكتبون للناس لا لأنفسهم ، وأن الناس ، خصوصاً في هذا العصر عصر المدنية والعمل ، والحركة والنشاط أضن بانفسهم وباوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، او سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه ، ولم لا يؤثر أحدهم أن كان يكتب للمنفعة العامة ان يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله ، او للشهرة والذكر ان ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها ،

وهل الشعر والكتابة الا احاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا اليهم بخواطر افكارهم ، وسوانح آرائهم ، وخلجات نفوسهم ، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه النـاس ما يقول ، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً ، ومقبلاً محتفلاً ، وأي فرق بين أن يجلس الرجل الى جمع من اصدقائه ليقص عليهم بعض القصص ، او يفضي اليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم ، وإيصال معـانيه الى نفوسهم . ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم . وبين أن يجلس الى مكتبه ليبعث اليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم ؛ ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى ؟

ليس البيـان ميدانا يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة واوسع اطلاعاً على مفرداتها ، وتراكيبها ، وأقدر على استظهار نوادرهـا وشواذها ومترادفها ومتواردهـا ، ولا متحفاً لصور الاساليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لأحمال المجازات والاستعارات ، وحقائب الشواهد والأمثال ؛ فتلك أشياء خـارجة عن موضوع البيان وجوهره ، إنما يعني بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها ، اما البيان فهو تصوير المعنى القـائم في النفس تصويراً صادقـاً يمثله في ذهن السامـع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً ، فإن عجز الشاعر او الكاتب ـ مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه ـ عن ان يصل بسامعه الى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء ، أو أذكى الأذكياء ؛ ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب .

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر .

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئاً ثقيلا على كواهل الناس وعواتقهم فمله الكثير منهم وبرموا به ، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا باوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس ان يجمعوا بين الأخذ باسباب دينهم ، والأخذ باسباب دنياهم .

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها ، ويابون على الناس الا ان يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة العربية والمعنى المبتكر ، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب ، وكل خيال لم يمر باذهانهم ، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعو طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا ان تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا

كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت ، او غلبت عليها العامية فاستحالت .

★

قال لي أحد الأدباء المتكلفين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه : انت تعلم ان الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس ان ينظروا بعين الإجلال والاعظام الى كل أسلوب شعري او كتابي معقد غامض ، وان تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار الى الأساليب السهلة البسيطة وان اشتملت على أشرف الاغراض وأبرع المعاني ، أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والفسولة ، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها ، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية ان تزدري المبذول لها ، وتستسني قيمة الممنوع عنها ، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب ، بل مع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحتري وأبا نواس والشريف الرضي وامثالهم : شعراء الالفاظ ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي واشباههم : شعراء المعاني ، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها الا ان الأولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت اقدامهم فهانت عليهم ، وضن بها الآخرون

ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم ، وحلت في صدورهم . قال : ولقد عرضت السلعتين في سوق الادب فكتبت أتفه المعاني وأدونها في اخشن الاساليب واوعرها فنفقت في تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكتبت أشرف المعاني وابرعها في ألطف الاساليب واعذبها فما أبه لها الا القليل من الناس ، وربما لم يابه لها احد ؛ فلم أر بداً من ان انتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي اعلم أنها اجدر بي وأجدى علي.

فعجبت لرأيه عجباً شديداً وقلت له : أما هذا الذي تذكره فاني لا اعرفه الا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابىء ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين ، بل ولا رأى العامة من ابناء هذه اللغة ، وهب ان الأمر كما تقول ، فالادب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى ان يحتال لنفاقها في سوقها ، إنما الادب فن شريف يجب ان يخلص له المتأدبون ــ بأداء حقه والقيام على خدمته ــ إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والادباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم فلا يجمل بهم ان ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم ، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له ، فحمدت الله على ذلك .

*

ليس من الرأي ولا من المعقول ان ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل ــ في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف اكثر من العامية الا قليلا ــ باللغة التي كان ينظم

بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والحطفى ورؤبة والعجاج ، ويكتب بهـا الحجاج وزياد وعبـد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربيـة الأولى ، فليس عصرنا كعصرهم ، ولا جمهورنـا كجمهورهم واحسب لو أنهم نشروا اليوم من اجداثهم لما كان لهم بد من ان ينزلوا الى عالمنـا الذي نعيش فيـه ليخاطبونا بمـا نفهم او يعودوا الى مراقدهم من حيث جاءوا .

ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب ان تتمسك به ونحرص عليـه حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم وطريق اليه ، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً .

يجب ان نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بهـا ، ثم نكون احراراً بعـد ذلك في التصور والتخيل واختيار الاسلوب الذي نريد .

يجب ان يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شان عنده اكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والخائل .

ويجب ان يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل ان يتمثل اللفظ ، حتى اذا حسن الاول أفاض على الثاني جماله ورونقه ، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل الا المعنى الجميل .

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع اليـه من يريـد معرفتها ، ومقياس

تقاس عليه ، لوجب ان يكون قانونها العقلي ان يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده فان عجز عن ذلك فلا أقل من ان يصور له المعنى القائم في نفسه ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها ، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم .

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ، ولا يقضي حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية اليه ، فالأمة قد ارتقت واستنارت ، واصبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر ان يرن على صفحة القرطاس دون ان يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب ان يسود بياض الصحف دون ان ينير لها أذهانها ، ويغذي عقولها ومداركها ؛ فان كان لا بد باكياً فليبك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع ان يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الامة ان تفهم عنه ما يقول .

إنني لا ألوم على الركاكة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت اقلامهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ؛ ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغة الاعجمية على أمرهم فاصبحوا اذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ؛ واذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعاً لا حول

لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون ان يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم المتادبين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أدبها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدولهم عن الحجة في البيان الى الجمجمة والغمغمة فيه ، وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام .

*

الناشىء الصغير (١)

لي ولد وحيد في السابعة من عمره ،لا استطيع على حبي إياه وافتتاني بـه ان اتركه من بعدي غنياً لاني فقير ، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لاني أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه ، ان اترك له ثروة من العقل والادب ، هي عندي خير الف مرة من ثروة الفضة والذهب .

احب ان ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا على أي شيء آخر ، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه . ومن نشأ هذا المنشأ والف ألا ياكل الا من الخبز الذي يصنعه بيده ، نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع الى ما في يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان .

(١) كتبت هذه الرسالة جواباً عن سؤال هذا نصه « أيهما أصلح للانسان : ان يولد فقيراً او غنياً » ؟ .

احب ان ينشأ رجلاً ، ولا سبيل الى الرجولة الا من ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل الا بسائق من الضرورة ، ردافع من الحاجة ، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شانها شرها وفضولاً ، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

احب ان يعيش فرداً من افراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروى ، ويجرب ويختبر،ويقارن الامور باشباهها ونظائرها ويستنتج نتائج الاشياء من مقدمتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطىء حيناً ويصيب احياناً ، فمن لا يخطىء لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم له شؤون حياته .

ذلك خير له من ان يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين ، و المجاهدين ، يمتع نظره بمرآهم كانما يشاهد رواية تمثيلية في احد ملاعب التمثيل .

احب ان يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء وشقاء الاشقياء ، ويسمع باذنيه آنات المتاملين ، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته ان كان خيراً منهم ويشاركهم في همومهم وآلامهم ان كان حظه في الحياة مثل حظهم ، لتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس

ومصائبهم ، او يعطف على باسائهم وضرائهم ؛ فان حاول يوماً ان يمدّ يـده بالمعونة الى بائس او منكوب ، فعل ذلك متفضلا ممتناً لا راحماً ولا متالما .

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الارض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ،بل هو معنى الانسانية وروحها وجوهرها ، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة من مكرماتها ، واصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالانسان الناطق .

أحب ان يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ، أي أنني احب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا الا لمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها ؛ وأشقى الاشقياء اولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها ؛ فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر ؛ فيتالمون من الراحة اكثر مما يتالم التعب من التعب ؛ ويقاسون من عذاب الوجود اكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان ؛ وقد تدفعهم تلك الحالة الى الالمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها . تفريجاً بكربتهم وتنفيساً عن انفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم

في ملاعب القمار ، ومجالس الشراب ومواقف الرهان الا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل . يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت الى الموت .

أحب ان يكون غنياً بالمعنى الحقيقي ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أي ان يكون مستغنياً بنفسه عن غيره . لا كثير المال والثراء ، وما سمي المال غنى الا باعتبار أنه وسيلة الى الغنى وطريق اليه ، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب ، فان اكثر الناس فقراً الى المال وأشدهم ولعاً بإحرازه ، واعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الاغنياء ، اصحاب المال والثراء ، وان كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين ، اكثر منه في جانب الاغنياء الكثيرين ، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة الى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ما يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بانه لا ينتفع بقليله ، فضلا عن كثيره ، واذا بلغ المرء في حالته العقلية الى درجة ان تنقلب في نظره حقائق الكون ، وتغيير نواميسه ، فيرى الرؤوس أذناباً ، والاذناب رؤوساً ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام .

لا أكره ان ينشأ ولدي غنياً ، ولا أحب ان اعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكني اخاف عليه الغنى اكثر مما اخاف عليه الفقر .

اخاف عليه ان يعتدّ بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدره فوق قدره ،

ويعتبره الكمال الانساني كلـه . فـلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ؛ وألا يجد من حوله من عشرائه وخاطائه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه لان عشراء الاغنياء متملقون ، مداهنون ، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم .

اخاف عليه ان تستحيل نفسه الى نفس ماديـة جامدة ، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ، ولا تعـني بشيء سواها ، فيصبح رجـلا قاسياً صلباً ، ميت النفس والعواطف ، لا يرحم بائساً ، ولا يعطف عـلى منكوب ، ولا يرثي لأمة ، ولا يبكي على وطن ، ولا يشترك في شان من الشؤون العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه ؛ أسقطت السماء على الارض ، أم بقيت في مكانها .

أخاف عليه ان يحتقر العلوم والآداب ، ويزدري المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا ؛ فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة الـتي لا تزول ، ومن أشرب قلبـه حب المـال ، ونزل من نفسه الى قرارتهـا ، لا يحترم غيره ولا يقيم الا لأربابه وزناً ، ويخيل اليه ان من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة ، بل لا حق لهم في الوجود .

أخاف عليه ان تزوج ان يابى الزواج الا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلمـا تـنزع نفسه الى اشتراط شيء سواه ، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه ان ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر

في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً في أيـدي الخـدم ، وكبيراً في أيـدي عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياتـه ، وعـاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليـه ان يقضي أيامه ولياليه مروعاً مذعوراً خافـق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة ان خسر ، ويصعقه فوت الربح ان فاته ، ويطير بنومـه وهدوئـه هبوط الاسعـار ، ونزول الاسهم ، وتقلبـات الاسواق ، وخسران القضايـا ومنازعات الخصوم ، والآفـات السماويـة والجوائح الارضية .

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيـده من حيث لا يعرف له طريقاً الى سواه على نفسه وعلى مستقبله باشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ، او الذي كان يؤمل ان يتمم به مليونه فلم يتح له .

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً ، ولا يجد ما يسدّ به رمقهم ، باطول من ليلة الغني الذي يسقط اليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، او ان سهماً من اسهمه قد نزل .

وحدّثني من رأى بعينـه من جن وهو واقـف ينظر الى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم الى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم الى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه ان يصبح واحداً من اولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بايديهم ، وهدم مـا ترك لهم آبائهم واجدادهم من مال وجاه ، فاندب حظي في قبري ، وأقرع السن على ان لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد .

ولا أزال اذكر حتى الساعة أنـني مررت باحـد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحـدى الحانات يمرح في نعمائـه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه ، أما الاول فقـد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار ، تسلب الاولى عقله والاخرى ماله ، وقد أحاط بـه جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على اقواله ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثاني فقد كان عارياً الا قليلا ، يفتح إحدى عينيه من حين الى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه الى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه احياناً وهو مغتمض ان خيل اليه ان يداً تمتد اليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا إحسان .

رأيت هـذين المنظرين الغريبين المتناقضين ، فثارت في نفسي تلـك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار لـلأول وعاطفـة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي : لو كان لي ولد وكان لا بـد

له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً ، او المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت ان أراه بين فئة المتشردين ، على ان أراه بين فئة الوارثين ، لأني أرجو له في الأولى ان يجد بين الراحمين راحماً يحسن اليه ، ويستنقذه من شقائه ، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فاني لا أرجو له شيئاً .

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، واطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد ايام حياته في جمع الثروة لأولاده دائباً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شان تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم ان يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فاذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشان فيه اكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الاثقال التي يحملونها من مكان الى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً الى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد ، فاذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين ، صفر الأكف ، فارغي الجيوب ، مطرقي الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم واجدادهم وعدموا في عام واحد او عامين قرناً كاملا مجيداً من أعلاه الى أسفله ولا يعلم الا الله ماذا يكون شانهم بعد ذلك .

ولو ان أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذا المصير المحزن . وضن بهم على هذا التراث المشؤوم .

يقولون ان الفقر يدفع الى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول : إننا اذا استطعنا ان نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الالفاظ وألوانها علمنا ان للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطراً واعظم هولاً ، فان كان بين الفقراء ، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق ؛ فبين الاغنياء : المحتالون والمزورون ، والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والمهائون واصحاب المعامل والشركات الذين يغذون اجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل ، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ،والسماسرة الذين يغتالون الاسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها .

على ان جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الاغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق . ولا يسرق السارق ، ولا يسلب السالب ، ولا يلص اللص الا جزءاً من حقه الذي كان يجب ان يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل الى الأفئدة والقلوب .

ليفتح الاغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ، ولينشئوا المصانع

والمعامل للعاطلين والمتشردين ، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً او قتلة او مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد ان أقول ان الغنى علة فساد الأخلاق ، وان الفقر علة صلاحها ولكن الذي أستطيع ان أقوله عن تجربة واستقراء : إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أر الا قليلا من أبناء الاغنياء عاملين .

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة باجمعها حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذي كتبت به المصنفات ، ودونت به الآثار ، الا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والافكار الناضجة التي رفعت شان المدنية الحديثة الى مستواها الحاضر الا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم، والاحزان وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية الا من صدوع القلوب الكسيرة ، والأفئدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الارض ومغاربها الا من ظلمات الاكواخ الحقيرة ، والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء ، وحكماء وأدباء ، الا في مهود الفقر ، وجحور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

ان المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحداً ، ولا يلوي مقبل على مدبر ، يعدون ويسرعون

ويتصادمون ، ويختطبون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة ، او مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو .

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل الى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ، ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة والقتال المستحر بين البشر جماعات وأفراداً وقبائل وشعوباً وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد : هو ان الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ ان المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون اليه لا من أجل الجمع والادخار ، كما يجب ان يكون ، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، او تنازع البقاء . وما هو بالتنازع ولا التناظر ، إنما هو التفاني والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد .

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة ان يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة ، وان الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وان سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لا تاتي الا من طريق

واحد وهو الاعتدال .

★

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً ان أقضي للناشىء الفقير على الناشىء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم ! وان أقول للناشىء الفقير : صبراً يا بني وعزاء ، فانك لم تخلق الا للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك الا على نفسك ، ولا تحصد غير الذي زرعته يدك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وان ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وان كنت ممن لا يعدّون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون ، فها هو ذا فضاء الارض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك ، فان الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك الى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً او تهلك ظمأ ، ولا تصدق ما يقولونه لك من ان الناشىء الغني أسعد منك حالاً ، وأوفر حظاً ، وان راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدّتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير تقي ونفس هادئة وقلب شريف ، وان تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الارض التي فلحها بيده ، وتعهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جبينه .

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام ان رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة او منتحرة حتى حضر الطبيب ، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً .

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة او بيداء مجهل ؛ فنفزع في أمرها الى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديهم برائحهم ، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسالهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد اليها يده بلقمة واحدة تسدّ بها جوعتها ، فما أقسى

قلب الإنسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة الى جبل المقطم في ساعتها الاخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت اليه تبثه شكواها ، او ان الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسب لو ان الصخر فهم شكواها لأشكاها [1] ولو ان الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها ، لأني لا أعرف مخلوقاً على وجه الارض يستطيع ان يملك نفسه ودموعه امام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتق بها احد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم انها جائعة فيرحمها .

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره !

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين افراد الأمة جميعها من اصحاب قصورها الى سكان اكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، فالمال والحمد لله كثير ، والخبز أكثر منه ، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها

(١) شكا اليه فأشكاه أي أرضاه وقبل شكواه .

السامعون ، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة والمكاثرة ، والتي لا تفهم من معنى الاحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن ان ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات ، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من النفوس ، فأما اليوم وقد أصبح كل امرىء موكولاً الى نفسه ، ومسئولاً امام ربه وضميره ان يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدّها ، فها هم الفقراء يموتون جوعاً بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين .

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة ان تسرق رغيفاً تتبلغ به او درهماً تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان في استطاعتها ان تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات اعراضهن فلم تفعل ، لأنها امرأة شريفة تفضل ان تموت بحسرتها ، على ان تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها .

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر ، أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه . فإن ساقتـه اليه شهوة من شهوات النفس . او نزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه ، ثم اصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم ، وحركات وسكنات ، واشارات والتفاتات ، لا دخل لها في جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً ، وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على ان يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على ان يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف مـا شاء من الجرائم والذنوب على انـ يحسن التخلص من نتائجها وآثارها ، وافضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن « الآداب العالية » اي فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في استظهار تلك الصورة الجامدة التي تواضع عليها « جماعة الظرفاء » في التحية والسلام .

واللقاء والفراق ، والزيارة والاستزارة والمجالسة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس وإسفافها ، اكثر مما يرجع الى أدبها وكمالها ، فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة الا لونها ، فاذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا اليها ، ولا يعجبهم من الحسنة الا صورتها ، فاذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها ، أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجراً ، على اليد الخشنة التي تحمل بدرة ، ويؤثرون كاس البللور المملوءة سماً على كاس الخزف المملوءة ماء زلالاً ، ولقد سمعت باذني من أخذ يعدّ لرجل من اصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله : وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل « ظريف » ! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع هذه الاشياء فضائل لا شك فيها ، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها ، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ ايام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب باوراق اللعب في احد أندية القمار ، وسموه لصاً دنيئاً ، والقمار لصوصية من اساسه الى ذروته .

★

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز واحد : أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وان كان الناس لا يرون رأيي فيهما .

أما الاول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق، والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسماحة والنجدة ، والمروءة والكرم ، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على انفسهم ، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً ، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه ان الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف ! وفهموا من معناه مثل ما فهم ، واخذوا منه بمثل الذي أخذ ، فغضب في وجه الاشرار ، وابتسم في وجهه الاخيار ، والأولون اكثر عدداً واعظم سلطة وجاهاً ، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً ، وامتدح إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون في الدنيا قليلون ، فسمي وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين ،وبذل معروفه للعاجز الخامل ، ومنعه القادر النابه ، فلم يشعر بمعروفه أحد فسمي بخيلا ، واعتبر الناس بقيمهم الأدبية ، لا بمقاديرهم الدنيوية ، فلقي الاغنياء والأشراف بمثل ما يلقى به العامة والدهماء ، فسمي متكبراً ، وقال لمن جاءه يساومه في ذمته : إني أحبك ولكني أحب الحق اكثر منك ، فكثر أعداؤه وقل اصدقاؤه .

أما الثاني فاقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده ، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه احد مخلافاً ، وما رآه الناس في يوم من ايامه عاطفاً على بائس او منكوب ، ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين ، ويستبكي لهم فعدّ من الاجواد السمحاء ، وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ، ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم ،

ويحتضنهم الى صدره في الجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمي الوصي الرحيم ؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم ، الا أنه يخلط جده بالهزل ، ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف .

ذلك هو الأدب الذي اصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ؛ ويعلمه الوالد ولده والاستاذ تلميذه ؛ ويقتتلون اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمل به ؛ كما يقتتلون على أعز الاشياء وأنفسها حتى تبدّلت الصور،وانعكست الحقائق، واصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً ، وأضلهم بهما سبيلا ، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين ؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين ؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية ايام حياته غريباً شريداً ؟ أم يبرز للعيون فيموت هماً وكمداً ؟

★

يجب ان يكون أدب النفس اساس أدب الجوارح ، وان يكون ادب الجوارح تابعاً له واثراً من آثاره فان أبى الناس الا ان يجعلوا أدب الحركات والسكنات اساس صلاتهم وعلائقهم ، وميزان قيمهم واقدارهم، فليعترفوا ان العالم كله مسرح تمثيلي ، وانهم لا يؤدون فيه غير وظيفة المثلين الكاذبين .

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب ، قبحها الله ، وقبح كل ما تاتي به ألا اكتب كلمة في صحيفة سيارة في شان من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي اجلها وان أترك هذا القلم هادئاً مطمئناً في مرقده مدرجاً في ذلك الكفن الابيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى ياتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه ان ينبعث كما يريد لا كما يراد منه ، ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام او عامين لم أحفل به في مبدئه ، ولم ألق له بالاً ، وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها ان تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنقشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق في مكانه، لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الايام ثباتاً ورسوخاً واحسبه سيبقى في مستقبل ايامه اضعاف ما بقي في ماضيها ان لم تثر عليه معشر الكتاب حرباً شعواء ، تهز جدرانه هزاً ، وتدكه دكاً ، وتلحق أعاليه باسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الألية التي

كنت آليتهـا ، فلعـل اصدقائي من افاضل الكتاب يساعدونني في هـذا الشان الذي ان عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً .

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية ومـا هي في شيء من الهزل ولا الجـد ، ولا علاقـة لها بالتمثيل والتصوير ولا باي فن من الفنون الأدبية ، فاقبـل عليهـا الناس إقبـالاً عظيا، وأغرموا بها غراماً شديداً، فليقبلوا عليهاما شاؤا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذي نضن بـه عـلى تلـك المواطن الساقطة ان تطاها قدمه او تظلل سماؤها رأسه لأنا نضن به على كل منقصة في العالم تزري به ، او تنال من كرامته .

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا ، وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم، وصديق من اصدقائكم، ان يحادثكم قليلا في هـذا الشان كما يحـادث الأب ولده ، او الأخ أخـاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم ان ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم ، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم .

الحق أقول ، ان الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم ، فلا أدري كيف أحدثـكم ، ولا ماذا أقول لـكم ؟

أأعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم أوأدعوكم الى اجتناب سيئة لاأحسب ان بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها او مـاضيه !

او اقول لكم ان هذه الاماكن التي تطؤها اقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والاخلاق ، ومصارع الاعراض والحرمات ! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فاعلمكم منه ما لا تعلمون ؟ !

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما اقول ، ولكنه الشباب يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضي اليها قدماً ، لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم .

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة ، او جمالاً يفي بقبح ، او خيراً يعزى عن شر . فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق ان يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر اليه وملحها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة في شفاهم ما يذيبه حياء وخجلاً ، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها الا اصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق ، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك ؟

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا

والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وامثالهم .

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات الدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا واطفالنا وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخي على مثلها الستور ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .

فلو ان غريباً وفد الى هذا البلد وهو لا يعلم من شانه شيئاً فذهب الى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضي عليها للنظرة الأولى بانها أحط الأمم وأدناها .

ذلك الى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته او مشهد من مشاهدها ، الا اذا قدر له ان يتغلغل بنفسه يوماً من الايام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل الى « عرب اليسار » او « عشش الترجمان » فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين .

ولقد قال لي أحد الاصدقاء الظرفاء مرة ان شتائم « أم شولح » قد انتقلت الى بيتي ولا اعرف كيف انتقلت اليه ، فاني اسمع الكثير منها منذ ايام يتردد في أفواه الاطفال هازلين ، وفي افواه الخدم جادين .

أتدرون أيها الاصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون انفسهم ممثلين ، ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات ، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو ان جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيرهم أذناً اتفقوا فيما بينهم على ان يكونوا جماعة واحدة يداً واحدة في مكان واحدة لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشر فنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى ان اولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ، ويجترئون بالشربة ، وهؤلاء يأبون الا ان نقف على ابوابهم ونتعلق باستارها فلا يفتح لنا حجابهم الا اذا دفعنا الأتاوة المضروبة عليها .

وألطف كلمة سمعتها في هذا الشان قول بعض المفكرين « كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد » .

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الاصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، ان تنخدعوا بالاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها ، ولا يمتون اليها بسبب من اسباب العلم او الذكاء او الشرف او الخلق ، وها هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم ، او يعينهم على ما هو بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه .

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح ابيض ورشدي وعكاشة وامثالهم ان كنتم أنتم لا تذهبون اليها ! ومن هو أولى

بها من بعدكم ان قطعتم صلتكم بها ! ؟

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين ، فاذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وامثالهما راضين عن مقامكم فيها ، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها ! ؟

ألا تخشون ان يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان ــ مشهدكم في الاجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الاجواق الجدية الشريفة ــ ان الأمة المصرية أمة غريبة الشان يفسدها العلم ، ويصلحها الجهل ، او ان يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول : ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء ، موفوراً لها حظها من الاخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوى بها في مهواة الشقاء والعار

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو اعظم كيداً ولا أسمج وجهاً من هؤلاء القوم .

إنهم يحاولون دائماً ان يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو ان كان ثوباً شفافاً ينم عما وراءه ، ألا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة ، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكه للدخول في سلك المخدرات المتحجبات .

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل الا ويلصقونها بـه وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية

بشكله . والهزء بصفاته واعماله ، ثم لا يخجلون ان يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الاناشيد (ما دامت بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كنتم تحبوا وطنكم) .

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد امواله في سبيل شهواته ، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز اموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقي هذه الاقوال !

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم ، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان ، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم انصار اللغة العربية وحماتها ، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية ، آل همجية ، يادي المصيبة يا دي العار ، فشر ... دي لغة المدنية اتمسكوا بها صغار وكبار) .

ولا يستحيون ان يجمعوا في نشيد واحد من روايةواحدة بين قولهم « ابيع هدومي عشان بوسة ، من خدك القشطة يا ملبن ، يا حلوة زي البسبوسة يا مهلبية تمام واحسن » وبين قولهم « مصر يحميك ربك ، ما تشوفي الا ايام سعدك » أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون ان يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» « وحب وطنك » و « مت في سبيل الاوطان » وامثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في افواههم الا انم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من

الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه اطفال المكاتب ولا سكان المارستانات .

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين امام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا الا ان ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب الى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فان امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعا ان الدخول الى تلك الاماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين اصدقائه ومعارفه .

نحن في حالة نحتاج فيها الى ان يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة اخلاق وآداب ، وان في نفوس افرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا الى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل ان يكون بأي شيء غير ذلك ، فان فات آباءنا ان يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة الى هذه الاماكن وحدكم بل يذهب اليها معكم إخوانكم واخواتكم ، وبقية افراد أسركم ، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم ، وترون لهم ما سمعتم فكأن سكان البلد جميعاً رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور ان يتصور خطرا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها اعظم من هذا الخطر ؟

إنني لا أدعوكم الى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من اجل انفسكم فقط ، بل من اجل إخوتكم واخواتكم اليوم ، ومن اجل

ابنائكم واحفادكم غداً ، ومن اجل مستقبل الامة المصرية كلها الذي أعتقد أنه امانة في ايديكم ، ووديعة موكولة الى كرم نفوسكم ، وشرف ضمائركم .

اهدموا هذه الاماكن هدماً بالإعراض عنها واحتقارها ، ثم قفوا بعد ذلك على اطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين : ها قد نجت الامة من خطر عظيم ، وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا لوطننا .

★

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا تطوي السماء طي السجل للكتاب .

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الافئدة والصدور ، وملء الاسماع والابصار ، وملء الارجاء والاجواء ، جثة ضاوية نحيلة مدرجة في كفن، ملحدة في مهوى من باطن الارض سحيق؟

ما اعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس فلا تلبث ان تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث ان تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعري الاشجار عن اوراقها ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسمات الربيع ، وينام الاحياء في مضاجعهم ، حتى اذا طلع عليهم الكوكب النهاري ، وعبثت أشعته باهداب جفونهم قاموا من مراقدهم ، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته آمل ، فكان ما صار

اليه : العدم الذي لم يسبقه وجود .

اللهم إنا نعلم ان الموت غاية كل حي ، وان مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ، ولا نياقاً عشواء ، وان ورود الحياة لا يمكن ان تنبت الا في التربة التي نبتت فيها اشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع ان نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، اذا فارقنا عزيز علينا ، لأن ساحة الصبر التي منحتنا ، أضيق من ان تسع نازلة البلاء التى ابتليتنا ، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلا نستظل بـه ، ولا أكمة ناوى اليها ، وان الصديق الذي نعثر بـه في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي اليها فيتلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين ، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها فيجو السماء واصبحنا من بعدها ضاحينبارزين فإنا لا نجد بدآ من البكاء والجزع ، لأن من الشقاء ما لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كاسه .

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلألىء الذي كنا نتنوره من حين الى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها فنحن ان بكيناه فإنما نبكي الامل الذاهب ، والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من

سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهـذه الأمة غـير هذين الرجلين ، ميت الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ علي يوسف ، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها ، يمسكها الاول ان تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني ان تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لهـا من بعدهما أحـداً ، فويل للأمـة في دينها وويل لها في جامعتها .

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الامة كثير ، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الامة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه : الرجل الذي يشعر من نفسه بانه ينزل منها منزلة رئيس الاسرة من أسرته التي يعلم أنـه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها ، فيقوم لها بكل مـا تريد ، ويسعى لها سعي الكادح الجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث اطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها في كل شان من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من حيث لا يمن عليها بذلك . ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً ، بل من من حيث لا تعـلم مـا يلاقي بينه وبين نفسه آلام الحياة ومـا يعالج من شدائدها في سبيلها .

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته ، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال .

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لأن الذين ينظرون

ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً ، وأدق مسلكاً ، من ان تتناولها النظرة الطائرة ، ولأنه كان مخلصاً متحنثاً يعمل في سره اكثر مما يعمل في علانيته . ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه .

رأيته في حادثة الازهر - في تلك الايام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الازهر والازهريين - يقضي كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعاً اليهم ان ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم او بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عن فئة حنين « اللهم ان تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الارض أبداً » فلا يقف في سبيله الا حماقة اولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم اصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم .

ورأيته يضم الى كنفه كثيراً من اصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة « عبد الحميد » وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً اولئك الذين كانوا يزدلفون اليهم أيام إقبالهم ، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك .

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض ايام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون الى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس اليهم ويتحدث معهم حديث المودة والاخاء كأنما كانوا معه على ميعاد .

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً ولا منتقماً ولا

طالباً بثأر ولا ذائداً عن نفسه الا في الساعة التي يعلم فيها ان قد جد الجد وان قد اصبح عرضه وشرفه على خطر ، ولم أر سائلاً دخل اليه يشكو حاجة من الحاج صادقاً كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله او جاهه الا أعانه عليها ما وجد الى ذلك سبيلا ، رحمة وإشفاقاً ، لا رياء ونفاقاً ، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو مصيب والناس جميعاً مخطئون .

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك ، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذا الدنيا سراً كامناً بين أحشاء ضلوعك لا يكتنهها ولا يستشف باطنها الا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعاً رأى العين الا وهي طائرة في جو السماء الى ربها ، وكذلك شأن هذه الامة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم ، الا وهم ذاهبون الى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل ان في ارضها كنزاً مخبوءاً حتى اذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس الى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون .

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لان الحقيقة يخدمها أعداؤها واصدقاؤها ، أما انت فكنت تخدم اصدقاءك وأعداءك ، أما الاولون فلأنك كنت تحسن اليهم بجاهك او بمالك او برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك

وشرفك ، فويل للفريقين معاً من بعدك ، وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الاقلام في هذا البلد ، فقد كانت وظيفة الكتاب ان يشرحوا آراءك او يفسروا كلماتك او يكتنهوا مقاصدك او يوافقوك او يخالفوك او يمدحوك او يذموك ، فإن كتبوا في شان من الشؤون غير هذا فتروا واستبردوا ، فواضيعة الاقلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك ، وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما احسب الا ان الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل ايامها اكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما اكثر شفاءها وبلاءها بعد اليوم .

ايها الراحل الكريم : لقد كنت ارجو ان اجد بين جنبي بقية من الصبر آغالب بها هذا الحزن الذي اعالجه فيك حتى يبلى على مدى الايام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدني عن موطنك في آخر ايام حياتك فحرمني جلسة اجلسها بجانب سريرك اسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك ، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات ؛ ووقفة اقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك اول دمعة يذرفها الباكون عليك ، فلئن بكيت موتك يوماً فسابكي حرماني وداعك اياماً طوالا حتى يجمع الله بيني وبينك .

العظمة

إن رأيت شاعراً من الشعراء ، او عالماً من العلماء ، او نبيلا في قومه ، او داعياً في أمته قد انقسم الناس في النظر اليه وفي تقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شانه ، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه الى رتبة الملك ، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان ، فاعلم انه رجل عظيم .

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والامارة والوزراء والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء منهم قليلون ، وانما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بانه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات افكاره واساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال ، ولا مقدود على مثالهم ، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة ، فاذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة اصبح لا ينظر الى شيء من الاشياء بعين غير عينه ، ولا يسمع باذن غير اذنه ، ولا يمشي

في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شانه وشأن صاحبه سلطاناً عليه في رأي او فكر او مشايعة لمذهب او مناصبة لطريقة ، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم ان حقاً على الناس جميعاً ان يستقيدوا له ، وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع اقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع اعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس واعمالهم تبهر العيون وتدهش الانظار ، وتملأ القلوب هيبة وروعة ، فان كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه او طريقته ، او كاتباً اخذ على النفوس مشاعرها وأهوائها ، او فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، او ملكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، او وزيراً ساس امته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل ، او قائداً ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء .

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شانه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعترك انظارهم وأفهامهم ، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناه امره ، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الاعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل بهم الاعجاب به الى الافتتان بأقواله وافعاله وحركاته وسكناته ، والإغراق في حبه ، والمشايعة له ، والسير بعجباته وغرائبه في كل صقع وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الإغراق في

حبه بالإغراق في بغضــه ، عـلى قاعدة المشادة والمعاندة . وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منــه ، ويناضل عنــه اولئك يريدون استبقاءها في يــده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئاً مغتبطاً ، لا يحزن ولا يبتئس ، لأنه يعـلم ان جميع هـذه الاصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته .

لا أريد ان اقول ان الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط ، فربما كان من هو اضعف منه قوة ، وأخمل ذكراً ، أسدّ منه رأياً ، واصدق نظراً ، وإنما أريد ان اقول ان احداً من الناس لا يستطيع ان يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين وألسنــة الناطقــين ، وقلوب المحبــين والمبغضين ، الا الرجــل العظيم .

أحب عليــاً قوم حتى كفروا بحبــه ؛ وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه . وسمي بعض النــاس أبا بكر وعمر شيخي المسلـمين ، وانكر بعضهم صحبتهما ، وإخلاصهما . وعاش محيي الدين بن العربي بــين فئـة تراه قطب الاولياء ، وأخرى تراه شيــخ الملحدين . واغتبط فريــق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الإسلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع . وسمي قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام . ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح ، وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه يلثم الأولون مواطىء نعاله .

ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة . وشرب سقراط كاس السم بين أفواه باسمة شماتة به ، وعيون دامعة حزناً عليه . وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا هو اكبر المتكلفين ، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا نابغة الدهر ، وهبط به آخرون الى آدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب . وافتتن المفتتنون بنابليون الأول فعلوا به الى رتبة الأنبياء ، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك الحمقى والممرورين ، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونيتشه وتولستوي كاسي الحب والبغض في حياته وبعد مماته الى القطرة الاخيرة منهما ،وماانقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شان رجل من الرجال انقسامهم في شان جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين .

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه اليها المغرقون في حبه ، او ينزل به اليها الغالون في بغضه ، ولكنهم كانوا قوماً عظماء فانقسم الناس في شأنهم ، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، الا في شأن الرجل العظيم .

ليس معنى الوجود في الحياة ان يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخرهم بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الارض ، وإنما الوجود قرع الأسماع ،

واجتذاب الانظار ، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة ، وتحريك الاقلام الراقدة ، وتاريث نار الحب في نفوس الاخيار ، وجمرة البغض في قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال اطول الناس أعماراً وان قصرت حياتهم ، واعظمهم حظاً في الوجود وان قلت على ظهر الارض أيامهم .

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها واصدقاؤها ، ويحمل احجار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبناتها ، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الاصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد ، فاعلم ان العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً .

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانها ، فاذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما .

لا يعجبنك ان يتفق الناس جميعاً على حبك لأنهم لا يتفقون الا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل ، يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلباً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ، ويزجرونه فيزدجر .

ولا يعجبك ان يتفقوا على بغضك ، لأنهم لا يتفقون الا على بغض الخبثاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد.

وليعجبك ان يختلفوا في شانك ، وينقمسوا في أمرك ، ويذهبوا في النظر اليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك آية العظمة ، وذلك شان الرجل العظيم ...

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه ، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم .

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته الى مشارق الارض ومغاربها ، ولا تكن الريح التي تختلف الى آذان الناس باصوات الناطقين من حيث لا يابهون لها ، ولا يعرفون لها يدها .

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الارض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطؤها الاقدام وتدوسها الحوافر والاخفاف .

كن زعيم الناس ان استطعت ، فان عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء ، والتلصق بهم ، او مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم،فان فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء والأعزاء .

★

الانتقاد

سالني بعض الاصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده ؛ وآدابه وواجباته ؛ ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود ؛ ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب او قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً محقاً أم مبطلاً ، صادقاً ام كاذباً ، مخلصاً ام غير مخلص ؛ لان الانتقاد نوع من انواع الاستحسان والاستهجان . وهما حالتان طبيعيتان للانسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، الى انة النزع ، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء فان أصاب الناقد في نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه ؛ ويرشده الى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله .

فان أبينا عليه ان ينتقد إلا إذا كان كفؤاً في علمه ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك اكثر الناس ، فقد أبينا عليه ان يخط سطراً واحداً في

الانتقاد ، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة ، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله ، فيسمح به لجماعة المنتقدين !

على ان المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من ان يكون مصيباً في بعض ما يقول لأنه لم ياخذ على نفسه عهداً ان يختلق جميع المآخذ التي ياخذها ، وألا يكتب إلا الباطل والمحال ، وانما هو رجل عياب بالحق وبالباطل ، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ الى السيئات المختلقة .

ولقد كتب اول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد ، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ، ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الاسواق والمجتمعات ، وبين ايدي الأمراء والعظماء ، فيكرمهم الناس ويجلونهم اجلالاً عظيما ، ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم ، فاخذوا يعيبونهم ، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم واصواتهم ، ومعاني اشعارهم ، وأساليبهم ، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد ، والفضل في ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد الفضل الاول في وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من ان يكون رأيه في استحسان الكلام

واستهجانه رأياً صائباً . لا ، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه - متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم - أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملا ، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنها ، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للاديب حين يراهما ، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه ؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره .

واذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للامة جميعها ، أو خاصتها أو عامتها ، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلا ، ان يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه ، واستهجان من يستهجن منه .

وهل رفع العظماء من رجال الادب الى مواقف عظمتهم وسجل لهم اسماءهم في صحائف المجد ، الا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الاعظم من الأمة ، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها ؟

وبعد ، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً الا الغبي الابله الذي لا يبالي ان يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين انفسهم ، ويزعجه كل الانزعاج ان يتحدثوا بها في مجامعهم،ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها ، او الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ، ويفرق من رؤية الاشباح ، ولو رجع الى أناته ورويته لعلم ان النقد ان كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، او خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته

منه ، لأن النـاس ليسوا عبيـد الناقدين ولا أسراهم ، يامرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم الى المحال فيتبعون ، ولئن استطاع احد ان يخدع أحداً في كل شان من الشؤون فانه لا يستطيع ان يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام او قبحـه ، ولو ان الاصمعي وأبا عبيدة وأبا زيـد والمـبرد والجاحظ والقـالي وقدامة وابن قتيبـة والآمدي وابا هـلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا ان يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلا لما كرهوها ، او يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر « فـلان » لمـا أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل اليهـا ، فهي تختفي حينا ، او تتنكر ، او تتراءى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تنمحي ولا تزول .

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حرمنا الحرية في كل شان من شؤون حياتنا ، فـلا أقل من ان نتمتع بحرية النظر والتفكير .

*

يوم العيد

افضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان ان امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الاعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار ، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله ، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيما ، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الاطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها اليه بلعبة العيد ، كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالاة شديدة حتى علمت ان يدها لا تستطيع الوصول الى ثمنه ، وأنها لا تستطيع العودة بدونه ، فساقتها الضرورة التي لا يقدرها الا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها ، الى ان تمد يدها خفية الى التمثال فتسرقه من حيث تظن ان الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ، ثم رجعت ادراجها وقلبها

يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة الى ولدها .

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع اقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب الى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصعدوا جميعاً الى الغرفة التي تسكنها ففاجاوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر الى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمى ، لا على التمثال الذي انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين يديه ، وكانت كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل : رحماك بأمي يا مولاي ، وظل يبكي بكاء شديداً .

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق إطراقاً طويلا ، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة ، وصعب عليه ان يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت الى الجنديين وقال لهما : أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة ، فاني لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما . والتفت هو الى الولد فاستغفره ذنبه اليه والى أمه ، ثم مشى الى الأم فاعتذر اليها عن خشونته وشدته ، فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقاً حياء من فعلتها ،

ولم يفارقهما حتى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنا مما كانا يظنان .

★

لا تاتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان ، نجم سعود ونجم نحوس أما الاول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولاولادهم اللعب والتماثيل ،ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ،وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون في فراشهم أنيناً يتصدع له القلب ، ويذوب له الصخر ، حزناً على اولادهم الواقفين بين ايديهم يسالونهم بالسنتهم وباعينهم : ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم ؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء ان يمدوا الى هؤلاء الاشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل .

ان رجلاً لا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع ان يملك عينه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في العيد ، في طريقه الى معبده ، او منصرفه من زياراته ، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول

ان تتوارى وراء الاسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها ان تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلىء به أيديهن ، فلا يجد بدّاً من ان يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم ان جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها .

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع ايام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من ان يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة او مرتين .

*

من الشيوخ الى الشبان

لا نستطيع ان ننكر عليكم معشر الأبناء ان شبابكم اعظم قوة ونشاطاً ، وأبعد همة ، وأقوى عزيمة ، من شيخوختنا ، وان أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع ان تصل الى ما تصل اليه ايديكم الفتية المقتدرة ، وان آراءكم وافكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم اكثر حدة وحرارة ، وأبعد غوراً وعمقاً ، من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا ، واحتقاركم لنا ، ورميكم إيانا بالجمود مرة ، والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم في شان من الشؤون ، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بانفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل اليكم معه ان هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم ، ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الاول في ابتكارها وافتراع

عذرتها ، ولو أنكم استطعتم ان تحملوا أنفسكم على الروية والأناة ، وان تنتقلوا بانظاركم من الحاضر الى الماضي – وان لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه – لعلمتم ان هذا العهد الذي يمر بكم اليوم ، والذي تفاخروننا به وتدلون علينا باحلامه وأمانيه ؛ وتصوراته وخيالاته مر بنا مثله في زماننا ، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون ، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والافكار التي ترددونها اليوم ، حتى انطوى ذلك العهد ، وزالت معالمه ، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتامل ، والخبرة والتجربة فاستطعنا ان نرجع الى نفوسنا ، ونثوب الى رشدنا ، وان نهبط بهدوء وسكون الى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والافكار ، والاحلام والآمال ، بإمعان وتدقيق ، فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ومعقولها من موهومها ، وان نقلب الاشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ، ونوازن بين هذه وتلك ، فاخذنا بما أربت حسناته على سيئاته ، واطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون ان لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً،وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته

قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع ان يتصور تصوراً ثابتاً متيناً ان الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق الا من مطلعه ، ولا ينبت الا في تربته ،وان المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب اليه من ان يتصور ان في استطاعته ان يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها ويتصورها ، وان في إمكانه ان يحيل الترب أمواهاً ، والأمواه ترباً ، وان يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع الا بإرادته ، وان يرغمها متى أراد ان تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والاحلام التي لافائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه اول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لا يلبث ان يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً : ان للكون إلهاً لا أستطيع محادته ، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها .

كنا نفكر كثيراً في شان المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً ألذ ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة إعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها ، والوقوع من نفسها موقعاً جميلا ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا اكثر مما تطلبه لنفسها ، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية الى أقصى

حدودها ، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس الى الرجل جنبا لجنب في المجتمعات العامة والخاصة ، دون ان يعارضها معارض ، او يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها الى اكثر من ذلك فكنا نغتفر لها سيئاتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أي هفوات فردية لا أهمية لها ، ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها : ليس من العدل ان يغضب الزوج من خيانة زوجته اذا كان هو يخونها ، وكنا نظن ان هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا ، صادرة من اعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها ، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرآة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه .

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ،وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الاول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره ، لا لأننا وازنا بينهما ، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة ، والطفل سريع الملل كثير السآمة ، لا يصبر على لعبته اكثر من يوم ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها .

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لانكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف

انواعها وألوانها فنلتقطها باسرع مما يلتقط « الفلم » صوره ، كان فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها .

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث ان يفتتن بها وباصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في احاديثه واستشهاداته ، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان احد غيره لا لأنه يفهمهم او يفهم غيرهم ، بل لأنه كان بسيطاً غريراً يحتقر كل ما في يده ، ويستعظم كل ما في يد غيره .

ولم نعرف الا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والافكار ، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل اشباحاً وصوراً تتراءى في حياتنا ، فنعجب بها ، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها فاصبحنا معتدلين في آرائنا متئدين في احكامنا ، نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها ، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الامم المتمدينة ولكننا لا نقلدها ، ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ، ولكننا لا نحتقر من اجل ذلك رجالنا وتاريخنا .

نحن لا نطلب منكم معشر الابناء وانتم في ثورة الشباب ونشوته ان تكونوا معتدلين متئدين في احكامكم وتصوراتكم ، او هادئين في مطامعكم وآمالكم ، فليس من الرأي ان نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عن انفسنا ، ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا اشد الحرص هو الذي اليكم ان تحرصوا عليه مثلنا ، وتضنوا به ضننا .

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا واجدادنا ، واوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً ، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون ، او متاخرون او جـامدون ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقـاب التي تلقبونتا بها ، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم مـــا قدر لهم أن يقضوه بيننا من ايام حياتهم ، وكان شاننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافةالخلف بيننا وبينهم شان خالد بن‌عبدالله القسري أميرالعراق إذكان مسيحياً فاسلم وحسن اسلامه ، وكان أبوه لايزال على دينه فطلب اليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها باداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب الى ربه .

ذلك ما نضرع اليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا واذكروا أن سياتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا ، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم ابنائكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم ــ وأساتذتكم آباؤكم ــ أن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود ، ومـا هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون .

الزهرة الذابلة

ورد الي من صاحب التوقيع الكتاب الآتي :

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح ، غير أني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض « الحمى » العضال الذي ضعضعني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني « الصمم » الكامل فضاعت بذلك آمالي واظلمت الارض في وجهي فرأيت ان أستغيث بك لعلك تسدي الي جميلا بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام .

٦ يناير سنة ١٩١٤ .

لا أستطيع ان أعزيك عن مصابك يا بني ، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ، ويطيق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شاني معك شان اولئك الخادعين من المعزين الذين

يتخلفون ليلهم ونهارهم الى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل « لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك » وللباكي أباه « ما مات من خلف مثلك » وللباكي أخاه « ان في الباقي عزاء عن الماضي » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك » وللمحتضر المشرف « ان في لقاء ربك عوضاً من لقاء الدنيا » ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع اقوال الكذب وكلمات السوء » وكانما هم يحسبون ان الفواجع والرزايا صفقات تجارية اذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذاك واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون ان الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب او نفثة من نفثات الود ، ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك ، وان أقسى الآباء قلباً ، واصلبهم فؤاداً ، لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الارض والسماء لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله :

وما سرني ان بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وان الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من اولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وان كثر اصدقاؤه في كل محلة يحل بها ، والزوجة تبكي زوجها وان كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها ، وان البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكاً وبؤساً يضن بحياته الضن كله اذا أحس بوشك فراقها وان علم أنه سينتقل

منها الى جنة عرضها السموات والارض ، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائهم ، وتصغير شانها في أعينهم ، ويلقون في نفوسهم الياس من ان يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس بإحساسها وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها .

وأعوذ بالله ان اكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك ، او الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت ، وكيف يستطيع ان يعزيك عن مصابك من لا يستطيع ان يعزي نفسه عن مصابه فيك ، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كاني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكان الذي اصابك من البلاء قد اصابني من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب وصلة ، فاصبحت وانت في دار الأنس والاجتماع ، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها ، كانك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها باحد ولا يانس بك فيها احد ، ولا ترى بين يديك الا نصباً ماثلة ، وتماثيل جامدة .

تحسب العين أنهم جدا أحياء لهـــم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنة حداء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف

شجر ، ولا زفيف ريح ، ولا ثغاء شاة ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جنـدب ، سواء لديك ليلـك ونهارك : وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فان فررت من وحشتك هذه الى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست الى الناس ساعة تتفرج[1] فيها مما بك ، لا تسمع شيئاً مما يقولون، ولا يعنيهم ان يسمعوا شيئاً ممـا تقول ، فـان قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفـاً من حروفهم ، او تتفهم حركـة من حركات شفاههم ، او إشارة من إشارات أيديهم ، أنكروا عليك نظراتك ، وسخروا منك فيا بينهم وبين أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بهـا في وجهك من حيث لا تعلم ، فـان رأوا منـك أنك تقتضب الاحاديث اقتضاباً ، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم ، وانك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس اسماعهم ، فتعلو به عليها ، او تنزل به دونها وأنك تبتسم في موضع التقطيب . وتقطب في موضع الابتسام اصبحوا ينظرون اليك بتلك العين التي ينظرون بها الى الاطفال الصغار والبله الاغرار فان ألمت بسر نظرتهم هذه اليك ألم بكمن الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله ، واصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه اليك ، وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من اصدقائك وعشرائك ، بـل من أبويك وأهليك فـلا يكاد يسلم لـك صديق ، او يصفو لك حميم .

(١) طلب الراحة والفرجة .

فاذا فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت الى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في ايامك الأولى ، وما انتهى اليه أمرك في ايامك الأخرى فلا تنفعك خلوة ولا يؤنسك اجتماع .

واخوف ما أخاف عليك ان أستمر بك هذا الشأن ـ ولا أسأل الله لك دوامه ـ وظللت تنطق ولا تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال ان تصبح في يوم من ايامك لا سامعاً ولا ناطقاً ، فالسماع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير .

وكثير عليك يا بني وانت زهرة يانعة في روض الشباب وابتسامة لامعة في ثغر الآمال . وفجر مشرق في سماء الحياة ان تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة ، فلا تلبث الا قليلا حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك الا قليلا حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء .

فوارحمتاه لك يا بني مما بك اليوم ، ومما يستقبلك به الدهر غداً ، فأسأل الله تعالى لك ان يرفع عنك محنتك ، او يمنحك عيناً ثرة من الدمع لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلا على فؤادك

الملتاع فتبرد غلته ، وتفثأ لوعته ، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ اليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الارض ولا في سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معيناً ، والسلام عليك - من الراثي لك ، الباكي عليك - ورحمة الله .

★

الوجهاء

جرى بيني وبين احد الوجهاء المصريين الحديث الآتي :

الكاتب ــ ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء ، من السحب السوداء ؟

الوجيه ــ إن بين جنبي هماً يعتلج ، وكمداً يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناراً من الحزن متاججة متطربة دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب ــ أحق ما تقول وانت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان ، وخورنق النعمان ، وحور وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ، وخزائن تموج بالذهب ، موج التنور باللهب ، ذلك الى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس ! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة ، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك ؟

الوجيه ــ أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر ، والشقاء المقبل في السعد المدبر ، واني لأرى في السماء غمامة دكناء يوشك ان تنفجر بالصاعقة

الكبرى والكارثة العظمى .

الكاتب ـ ما كنت أحسب ان الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الاحرف الذهبية ، ألا يسدد سهمه اليك ، ولا يدور بدورته عليك .

الوجيه ـ متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي ، يديرها فترى الاسود في مكان الأبيض ، والأبيض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها ، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد .

الكاتب ـ هل لك ان تحدثني من اي منفذ نفذ الدهر اليك وما عهدتك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً ولا مستهتراً ؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل .

الوجيه ـ أين يذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤتي الاغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ؛ وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الامير ،ولفتة الوزير ، وزورة المدير ، وأنت تعلم ان رجلا مثلي لا يمكن ان يكون له مطمع في المجد الصحيح ، فلست بصاحب علم فأفخر به ، ولا صاحب قلم قامتْ بما يمتّ به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا سبيل اليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز

روكفلر ، وقد انفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة ، في بناء القصور نزلاً للحكام ، وغرس البساتين منازه لهم ، وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم ؛ فلما نضب معين الذهب ، وعيت الأرض ان تثمر فوق ما تثمر لجأت الى مصرف من المصارف المالية فاثقلني بالديون ، وارهقني بالطلب ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر فكنت كناقس الشوكة بالشوكة ، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت ان جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف ،وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين : قضاء الأرض وقضاء السماء .

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به ، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن ، وشقاءه الخفي ، فهو أتعس خلق الله ، واكثرهم هماً وأثقلهم مئونة ، واخسرهم حاضراً ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع او العمائر جملة لا تثمر له من المال اكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهاً ، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير ، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمدّ لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بجيه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وان كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ويبتاع تذاكر حفلات

الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها واشكالها وان كان لا ينتفع بواحدة منها ، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالإنسان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير او المامور بابتياعها وان كانت في علم الأرتناطيقي او علم المنطق وكان هو عمدة او شيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فياخذ منها بالحظ الاوفر الا اذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وامثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على اهل الذمة في سالف الازمان ، والتي لا فرق بينها وبين خراج الاطيان وعشور النخيل وعوائد الاملاك .

الكاتب ـ انها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام ، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجناً ، وكل ما في الأمر ان رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم الى هذه الاعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة .

الوجيه ـ لا أزال اكرر القول : ان رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد ، مجبور باطناً مختار ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه ، وأما الباطن فهو ان الوجيه منا ـ كما علمت ـ مفلس من جميع انواع المجد الا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم الا على مقدار

ما يفتح من ابواب خزائنه لهم، فمنا من يزوره المدير او المفتش لانه وهاب الآلاف ، او المأمور لأنه من اصحاب المئات ، ومن لا يزوره احد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ، ولا يشيعه اذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعاً ، ولا يكتب رقماً في قائمة اكتتاب ، فلا يلبث ان يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير ان تشهر عليهم سلاحاً ، او تعد لهم سجناً ، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الويركور » و « البطانطا » والعوائد الشخصية في عدة اعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام — عام الأزمة والجدب — فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية .

الكاتب — هب ان الأمر صحيح كما تقول ، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها ، ولا تقضي به غرضاً من اغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارتقائها .

الوجيه — ذلك ما يجب ان تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من اموال الأمة لهذه الاغراض التي تذكرها ، ولكنها تضن بمال هي في حاجة اليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الاجانب منهم وإقرار عيون السياح الاوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بداً من حمل تلك الحمالات على اعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر الى ما تتكبده في هذا السبيل مما

يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها ، فقد حكي عن احد رؤسائها أنه علم ان أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة أنهم ضاقوا به ذرعاً فاحضره في مجلسه وأمر ان تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل ، ثم أمر ان تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم ، فقال له هكذا يجب ان يكون أخذ الاموال من الرعية ، متفرقاً تحتمله ، لا مجتمعاً تتألم له .

الكاتب ـ حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله ، وللآخرة خير وأبقى .

الوجيه ـ من اين يأتيني الثواب والاجر ، وهل يثاب المرء الا على قدر نيته وإخلاصه في عمله ؟ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من احوالهم . ومارست من طباعهم ، أننا لا نريد من بذل ما نبذل الا رضا الحاكم ، والتودد اليه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة ، وقضاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى ان أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد الى جاره البائس الفقير الا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء ، ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا وجفانا ذوو الرحم

والاقرباء ، واصبحت قصورنا في نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات ، لا مناهل يرجون منها الصدقات . وأقفرت « مضايفنا » الا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين فمن اين لثواب الله ان يعرف طريقنا عافاك الله ! ؟

الكاتب ـ أتغضبك كلمة الحق ان قلتها لك أيها الصديق ؟

الوجيه ـ قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل .

الكاتب ـ أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كانك لا تعرفه، وتمد يدك الى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقد زعمت ان مجد القربى من أولياء الأمر باطل ، ولقد أصبت فيا تقول فما شانك به ، وما نهوضك اليه ، ومالك واللصوق بأمر انت تعلم قلة جدواه ، وسوء مغبته ، ولقد كان طريق مختصر الى المجد الصحيح والشرف الصميم ، لو كنت اكبر منك همة ، وأصح رأياً ، وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس باقل شاناً من مجد السيف والقلم ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله الا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب وما كان يصيبك في الاول من الشقاء ما أصابك في الثاني ، فالكريم معان على أمره ، ومبارك له في عيشه ، متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغي على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى ، ولكنكم بخلتم باموال الأمة

عليها واحتجنتموها من دونها ، وأبت لكم همتكم الضعيفة ان يكون لكم كما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجيء والمستشفيات تسمى باسمائكم ، وتسجل في صحيفة أعمالكم فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم ، ويلعب بأموالكم ، ويرغمكم على الإحسان إرغاماً ، من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتم ، ولا مالاً حفظتم ! وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .

*

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته ، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها ، فان كان صحيحاً ما يقولون من ان ساكن القبور يستطيع ان يجد بين صخورها ورجامها منفذاً يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل ، وثناء عاطر ، وسيرة صالحة ومجد باق ، فان نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار ، وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجزلها .

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة ، ولا أغلى جوهراً ، ولا أحسن أثراً من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد انه يجزى على عمله، مكافأ به، مؤمناً كان أم ملحداً، معترفاً بنعيم الآخرة أم منكراً له ، فان كان الاول ساقه الى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد

وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وان كان الثاني ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل ، والسيرة الصالحة ، والحياة الباقية في ألسنة الاجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان ، جنة المؤمنين وجنة الملحدين ، ما جدّ في هذه الحياة جاد ، ولا عمل فيها عامل .

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العمل الصالح والجزاء عليه معاً ، وكيف يسعها والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفىء ذبالة حياته ، وتحترق فحمة شبابه ، حيث تموت في قلبه لذة العظمة ، وتنضب في فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها الى نفسه ، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة ، إما حياة الأجر ، أو حياة الذكر .

مات جورجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً ، أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظراً من أجمل المناظر وأبهاها ، لأنه يعلم أن هذه الدموع التي ترسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه ، والإعتراف بفضله ، والثناء على عمله ، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد ، وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون .

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده واخاءه، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأنس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارىء كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة، وجمال الاسلوب، وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها، وبكاه قارىء رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها، عوناً له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها، او صورتها التي تتشكل بها وتأخذ منها الاغراس نماءها، والازهار ألوانها، والنار حرارتها، والاجسام الحية قوتها، والاجسام الجامدة صورتها، والاجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهائها وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد.

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب احسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب، وينشىء اجمل الروايات ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره. ولا يشكو مللا ولا ضجراً، ولا يستشعر خوراً ولا فتوراً، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه ان قليلا من العلم

يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل .

ولو شئت ان اقول لقلت : ان جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت الى مصر في اواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كلياً ، وغرست في صحرائه القاحلة الجدبة أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والإقدام ، والهمة والاستقلال ، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشؤون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية ، وحياة أمتهم الادبية ، ويتقون بها مذلة الوقوف على ابواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ، ويسالونهم ان يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها فاما عطفوا عليهم فالقوا اليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد ، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية .

وكان شريف النفس بعيد الهمة ، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز . ولا يداهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة اذا رآها ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها ،عربها وعجمها،

جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر ، فأقام بهـذا العمل العظيم لهـذا الدين القويم حجته أمـام اولئك المتعصبين من الاوروبيين الذين لا يثقون في خبر من اخباره ، ولا في بحث من أبحاثه ، بحديث شيعته وأبنائه ، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين ، والمثـل الاعـلى للعـالم يتعـلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الامانة والعـلم ، والوفاء بحقـه .

وكان مستقيماً في عمله ، أميناً في علائقه ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يخيس بعهـده ، ولا ينكث وعـده ، ولا يكسو بضاعته لوناً غـير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون ان الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح ، ولا سبباً من اسباب النجاح .

وكان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبـله ومن بعده فريق المقاطعين في هـذا البـلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكمنوا وراء أكمـة الدين ليرموه فيصموه ، وقالوا إنـه شوه وجه التاريخ الإسلامي ، وعبث بحقائقه ، ولم يسالوه من اين نقل ، ولا كيف استند ؟ بل سالوه لِم لم يكتبه كما كتبوا ؟ ويستنتج منه مثـل مـا استنتجوا ؟ كانما لم يكفهم منـه ان يروه بينهمُ مسيحياً متسامحاً حتى

أرادوا منه ان يكون مسلماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون : وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله ، وخبث النية في مذهبه ، ولم يستطيعوا ان يروضوا أنفسهم الجامحة على ان يقولوا : ان الرجل باحث مستنتج ، يخطىء مرة ويصيب أخرى ، او يقولوا ان له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب ان أحداً منهم كان يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون ان الدين سلعة تباع وتشتري ، وان سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب ان تعرض في حانوت غير حانوتهم ؟ وكانوا يظنون ان الرجل تاجر مثلهم يريد ان يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها ، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه ، واستثقلوا ظله ، وقالوا مرة : إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه ، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى ، وقالوا أخرى : إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقاً او متجراً ، فما هو بمخلص ولا بامين ، وفاتهم ـ عفا الله عنهم ـ أنه ان كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة ، ولا من خلال المروءة والكرم : ان يمن المضيف على ضيفه بيده عنده ، وان يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد باعهم بهذا النذر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله ، وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرابحين .

والله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الايطالي

وللفاجر الارمني ان يفتح كل منهم في كل موطىء قدم من مدنهم وقرارهم حاناً يسلب فيه عقولهم ، او مقمراً يسرق فيه أموالهم ، او ماخوراً يهتك فيه أعراضهم ، فلا يطاردونه ولا يحاربونه ، ولا يسمونه دخيلا ولا واغلاً ؟ ثم يضيقون ذرعاً بالعالم السوري او العراقي او المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم ، ويهذب نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والاقدام .

ذلك هو شقاء الامم ، وهذا هو جواب السائلين عن اسباب سقوطها وانحطاطها .

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شانه معهم ان كان يعتب عليهم ولا يشتمهم ، وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتها ، ولا يؤنبهم ، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، وان كان مخطئاً ، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل ، وسوء الخلق ، وضيق العطن ، وان كانوا مصيبين .

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الاخلاق الفاضلة في هذه الامة ، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون ان يتناظروا ولا يتشاتموا ، وان يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون ان يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف ، فان تم لهذه الامة في مستقبل

حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شؤونها وأغراضها فلنتذكر دائماً ان جرجي زيدان كان احد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والاخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الامة خفوق النجم الزاهر في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الاخلاق معوجها وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف: ان قيمة المرء في حياته أداء واجبه الإنسانية أولاً ولامته ثانياً، ولنفسه أخيراً، وان الحب سعادة لإنسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه وان الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب ان الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه، وان الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وان الله تعالى أوسع رحمة، وأعلى حكمة، من ان يسدّ في وجوه عباده كل طريق للوصول اليه الا طريق السيف والنار، وان هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الاديان نفسها، بل رؤساء الاديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل، وان الذين يقدسون الاحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين، ومقوماً من مقوماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: ان الإلحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه،

وعبادة الشمس والقمر ، والترب والحجر ، أنفع للمجتمع واحسن عليه عائدة من عبادة الله المعبود .

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الارواح العالية تمنيناهابرهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلا ثم فقدناها أحوج ما كنا اليها ، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه .

★

الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاك ، الا ان الأول ينقل مشاعر النفس الى النفس ، والثاني ينقل مشاهد الحس الى الحس .

وكما ان ميزان الفضل في التصوير ان تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة ان يكون المكتوب في الطرس، خيال المكنون في النفس .

بهذه العين التي لا ازال انظر بها دائماً الى الكتابة والكتاب ، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ؛ كنت أقرأ ذلك الاسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته ، فاتخيله مرآةنقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام .

وقليلا ما كنت أجد فينفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه لأن الكاتب ان استطاع ان ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ، أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا اذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه في طهارة لسانه ، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم . ونزوله في كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ ولأنه كان يؤثر ان يتعلم عنه الجاهلون على ان يرضى عنه المتحذلقون .

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون ، فلا أعلم ان أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان ، فوارحمتاه له ، ووا أسفاً عليه .

★

احترام المرأة

نعم ان الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل ، وملاك أمره ، وسر حيـاته ، من صرخـة الوضع ألى أنة النزع .

لا يستطيع الاب ان يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الام ، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها ، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيلا الى قلب واحد ، يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد ، وهي التي تسهر عليه ليلها ، وتكلؤه نهارهـا ، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله ، غير شاكية ولا متبرمة ، بل تزداد شغفاً به ، وايثاراً له ، وضناً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته ، ولو شئت ان أقول لقلت ان سر الحياة الإنسانيـة ، وينبوع وجودها وكوكبها الاعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة هي « قلب الام » .

لا يستطيع الرجل ان يكون رجلا حتى يجد الى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء ان يعلم انه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شؤون حياتها عليه ، حتى يشعر بحاجته الى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد ، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شئون حياته ، وسلوك الجادة في سيره ، ولا هداه الى التدبير ومزاياه ، والاقتصاد وفوائده ، والسعي وثمراته ، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة ، والدأب والمثابرة ، مثل دموع الزوجة المنهلة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ، ما يجد في قلب ابنته الفتاة، فهي التي تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها مستودعاً لأسراره ، وهواجس نفسه ، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصغي الى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمى لا يهونها عليها ، ولا يخفف من لوعتها في نفسها ، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً ، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ، ويشتجرون في الساعة التي

يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات .

وجملة القول ان الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة ، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها الى مسرات أو ترويحها عن نفوس اصحابها على الأقل ، فكاننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها .

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك .

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها الينا وجازيناها بها خيراً ؟

لا .. لا ، لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال ، وهي الى نهلة واحدة من نهلات الاجلال والاعظام أحوج منها الى شؤبوب متدفق من الحب والغرام .

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار انها إنسان كامل لها الحق في الوصول الى ذروة الانسان التي تريدها ، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ؛ بل لنعهد اليها بوظيفة

المربية او الخادم او المرضة ؛ او لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا ، ونديماً لسمرنا ومؤنساً لوحشتنا ؛ أي أننا ننظر اليها بالعين التي ننظر بها الى حيواناتنا المنزلية المستأنسة لا نسدي اليها من النعم ، ولا نخلع عليها من الحلل، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً.

إنها لا تريد شيئاً من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته .

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه..

إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه .

يجب ان ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلاً ، وحياة ذاتية ، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح ، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطاناً ، وأقوى يداً من جميع الوازعين المسيطرين .

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات .

لا يمكن ان تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا مدرسة لتربية

النفوس على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة ، الا اذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور ، والموت علة للحياة ، والعدم سلماً الى الوجود .

كما لا أريد ان تتخلع المرأة وتستهتر ، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها ، كذلك لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها ، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير .

وبعد ، فإما ان تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه او اقل منه . فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير ، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده ، اي انه يعلمها ويدربها ، ويأخذ بيدها حتى يرفعها الى مستواه الذي هو فيه ، ليستطيع ان يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم . والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه .

* * *

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه : ما له لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ! ؟ فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه ، وهو غير ملوم إن جزع .

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه ، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط ، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها ، وأذهبها بالعقول والألباب فما اشبه هذا البطل الباكي ، بذلك البطل الجازع .

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه

أنفة وإباء ، حتى اذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها الا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل .

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وانطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين ، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالاعجاب بفصاحة الفصيح ، أو نباهة المؤرخ ، أو بلاغة الشاعر ، أو إبداع المبدع في معانيه ، او إحسان المحسن في إلقائه ، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكي الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً ، شيوخاً وشباناً ، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال .

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، او عالماً كان ينتفع بعلمه، او كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه .

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون في احكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر. فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمراً، وتارة يكون خلاً؛ ويكون حيناً صافياً وأخرى كدراً، والوعاء باق على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها؛ فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز ان نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشىء المتادب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها

وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء او الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه ، ولا يغمض الا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الإقناع ، وما البيان الا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا باطراف الأحاديث بيننا وسالت باعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على اكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها ، بل هو رأس المعاني وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع باذنيه وكأنه يراها بعينيه ، فقد أتى بأجمل المعاني في

أجمل الأساليب .

وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

لخير الف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة ، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة ، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها ، كقصيدة المتنبي التي مطلعها :

* أيطمع في الخيمة العذل *

ويقولون أيضاً عن هذا البيت :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيما يقولون ، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى خطر على اذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه ، فالصقوه به إلصاقاً ، وتوهموه له توهما ، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً ، وهذا شان جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق ، او كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين، أولى من ان تكون معاني القائلين.

اذا سمعت بيتاً من الشعر فاطربك ، او احزنك ، او أقنعك ، او ارضاك ، او هاجك وانت ثائر ، او ترك أي أثر من الآثار في نفسك ، كما تترك النغمة الموسيقية اثرها في نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت

المعاني ، وان هذا الذي تركه في نفسك من الاثر إنما هو روحه ومعناه ، وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ،وثقل عليك ظله ،وشعرت بجمود نفسك أمامه ،وخيل اليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها ، فاعلم أنه لا معنى له ، ولا حياة فيه ، فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول ان يوسوس لـــك ان وراءه هـذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طياتها ، فكذبه ، وفر بنفسك وأدبـك وذوقك منـه فراراً لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذي يجب ان تزن بـه الكلام ، ونصيحتي اليـك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة الـتي يضعها واضعوهـا من الادباء لأشعارهم خاصـة ، ويزعمون أنهـا للشعر عامـة ، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن بـه مـا تسمع ، فكما أنـك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ الى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك عـلى وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، وكذلك لا تعتمذ في استحسان ما تستحسن من الكلام ، واستهجان مـا تستهجن منه ، الا على شعور نفسك وإلهام حسك .

★

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء . ثم ياتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير ، وتمثيل الحقيقة، واكتناه اسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس وامثال ذلك من الاغراض والمقاصد ، على ان تكون تلك النغمة الموسيقية اساسها والروح السارية فيهـا ، ليتحقق الفرق بـين الشعر

والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها ،وحججها وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته ، واهازيجه ونبراته .

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الاولى الى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه الا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده ، وسيموت شعر جميع الشعراء في هـذا العصر ولا يبقى منـه في المستقبل الا كما بقي من الماضي في الحاضر .

*

الاداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام واتخذوا لانفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه ، فاصبحوا متبذلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجرىء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً وإهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن الى مدارسهن،او اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب الى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وانواع الاشراك لأصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار ، وهذا ما اريد ان اتكلم عنه قليلاً ! ؟

أصحيح ما يقولون عنكم ايها الفتيان التعسون انكم تتخذون صلة العلم التي هي اشرف الصلات واكرمها صلة فساد بينكم وبين اولئك

الفتيات الضعيفات وان الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي ، حبالة القلم الذي هو افضل اداة للخير ، واعظم وسيلة للفضيلة ، وخير واسطة للأدب والكمال ؟

اصحيح ما يقولون عنكم انكم تكتبون اليهن ليكتبن اليكم ، وتهدون اليهن صوركم ليهدين اليكم مثلها ،فاذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن اخذتم تنشرونها في كل مكان ، وتعرضونها في كل معرض ، واخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها او بجماله وروتقه ، كما يفخر المرء بأفضل المزايا واشرف الخصال ؟

اصحيح انكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن ، وحيث ذهبن الى عمل ، او خرجن لزيارة ، او برزن في مجتمع، فاذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن ، وربما توسلتم اليهن بأخواتكم وبنات اعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الاصدقاء حتى يجتذبنهن الى منازلكم ؟

اصحيح أنكم تقضون اكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام واكثر ايامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم الى ساكنيها ، وربما جلستم على ابوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عما تحبون ؟

اصحيح أنكم اصبحتم لا تقنعون في أمر اولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد اخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا

موقعاً عليه بتوقيعاتهن ، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن ، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من ايديكم ، والحياة بعيداً عنكم في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى او متزوجات ؟

اصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن ، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث ان تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن انفاسهن الاخيرة في أقبية الحانات او بين جدران المواخير ؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فاصبحتم تتجملون للنساء باخلاق النساء ، وتزدلفون اليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن ، واصبح الرجل منكم لا هم له في حياته الا ان يتجمل في ملبسه ، ويتكسر في مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بالوان التضعضع والفتور ، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم ، وحتى سرى التانث من اجسامكم الى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة واخلاقها غير الاسماء والالقاب ؟

ان كان حقاً ما يقولون كله او بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ولا

ينتظر إياباً .

ان هـذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها ، وتعبثون مـا شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم اولادكم ، وعماد منازلكم ، ومستودع اعراضكم ومروءاتكم ، فانظروا كيف يكون شانكم معها غداً ،وكيف يكون مستقبل اولادكم وأنفسكم على يدها .

اين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم ان انتم افسدتم الفتيـات اليوم ! وفي أي جو يعيش اولادكم ويستنشقون نسمات الحيـاة الطاهرة ان انتم لوثتم الاجواء جميعها وملاتموها سموماً واكداراً .

لا تتكون اخلاق الفتاة في عهد طفولتها او في عهد شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فاذا سلم لها ذلك العهد فقـد سلم لها كل عهـد بعـد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة ، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج ، وخـــير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل .

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوهـا غداً زوجـة طاهرة شريفة في منازلـكم ، بدلاً من أن تجـدوهـا فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات .

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحـات شريفات يحفظن لكم اعراضكم ، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلـكم فتلك جنـاية انفسكم عليكم ، وثمرة مـا غرست أيديكم ، ولو انـكم حفظتم لهن مـاضيهن لحفظن لكم حـاضركم ومستقبلكم ، ولكنكم

أفسدتموهن ، وقتلتم نفوسهن ، ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن .

إنني لا أفزع في أمركم الى القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي ، ولا الى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها: ولا الى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا الى آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم ، بل أفزع في امركم الى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا الى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه اليكم ، وصوت الضمير اقوى من كل صوت في العالم.

أصغوا اليه تسمعوه يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا اليهن اعينكم وأيديكم إنما هن اخواتكم الحميات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الاخوات وشرفهن .

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها . لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي ، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان ، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف .

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت اليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها ، فلما تزوجت ـ وكان لا يحب ذلك منها ـ أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة ، ثم ارسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة

عرسها ، فما لبثت ان خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها .

وحدثني من اثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد ان يأخذن على انفسهن عهداً امام اخلائهن ان يكن لهم بعد الزواج ، اي بعد ان يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل الا وردت عليه ليلة البناء بها او في صبيحتها كتب الوشاية بها من الاشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت اليهن ، فانتهى امرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار .

نحن في حاجة الى ان نعلم بناتنا ، لأننا لا نريد ان يعشن جاهلات متاخرات ، فتنحوا عن طريقهن ايها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن الى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن واعراضهن ، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن ، بل ليضفن الى فضيلة الادب والكمال فضيلة العلم والمعرفة .

افسحوا الطريق لهن ، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها ، والأرمل المسترزقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها الا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الارض سعياً وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فإن ابيتم عليها ذلك فاعترفوا انكم اعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها الا احدى الخطتين القاتلتين : إما الجهل الدائم ، او السقوط العظيم .

الفضيلة الفضيلة ايها القوم ! فهي العزاء الوحيد لهذه الامة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ، والامل الباقي لها ان ضاعت - لا قدّر الله - جميع آمالها وأمانيها ، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه اعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك ايدينا شيئاً سواه .

★

المؤتمر الاسلامي

سرني منظر ذلك الرجل[1] العظيم، والداعي الكريم، وهو قادم الى مصر يجتاز التخوم ، ويتخطى البلدان ، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء يقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ،ونفس كبيرة وقلب مشيع ، وفؤاد في الافئدة ، كالنسر في الطيور ، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول ان يظلله بجناحيه .

سرني منظره ، وان لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول ان يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو الى الله تعالى دعوة النبوة الاولى ، الا ان تلك عربية تدعو الاعجمية ، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى .

هنا ذكرت الإسلام ومجده ، والإسلام وجنده ، والإسلام ودولته ،

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير اسماعيل بك غصبرنسكي الروسي الى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة الى مؤتمر إسلامي عام .

والإسلام وصولته ، وذكرت أبـا بكر وهو يقاتل أهـل الردة ويقول : والله لو منعوني عقال بعير لقـاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحاً اسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منـه فتبينه فاذا هو اعرابي قـادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والاعرابي راكب لا يعرفه ويسال مـــا فعـل الله بسعد وجنده ، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفـاء الله بـه عـلى المسلمين من عرش كسرى وذخائره ، وتراث مرازبته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع ، وفرحاً بما تم.وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، الى حيث يستنقذ الثغور ، ويستخلص الامصار ويخوض جمرة الحرب المتاججة ليفتدي بنفسه أجساماً ان لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر ، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الارض لعب الصبي بكرته ويخترق بسفائن البحر رمال القفر ،حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق الى الغرب فانشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا ، وذكرت مع ابطال الحرب ابطال السلم فذكرت عمر بن عبـد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي وحكمته ، وابن رشـد وفلسفته ، ومعاويـة وسياسته ، وعبد الملـك وكياسته ، وذكرت مدارس بغـداد وبخاري والاسكندرية والقاهرة وغرناطـة وإشبيليـة وقرطبـة ، وذكرت مـترجمي كتب اقليـدس

وبطليموس وارسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء وذكرت مخترعي البنـدول والبوصلة « بيت الإبرة » والساعة الدقاقة الـتي أهداها الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا ففزع منهـا سامعوها فزعـاً شديداً ، وسموها شيطانـاً رجيمـاً او آلة سحرية او مكيدة عربية الى كثـير من امثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية .

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ،ورماه بنكباته ، فاصبح أثراً من الآثار ، وخبراً من الاخبار ، وعليلاً حار فيه أطباؤه ، وملـه عواده وظل مترجحاً بين داهيتين ، ومضطرباً بين غايتين إمـا ان يموت موتة أبدية ــ وبالله العياذ ــ او يحيا حياة مادية ، لا حيـاة أدبيـة ، وينهض جامعة تجارية ، لا جامعة دينية ، ما دامت قاعدة الحكومات ، وما دامت الحكومات عدوة الاديان ، وما دامت الاديان لا تستطيع التحليق الا في فضـاء من الحرية لا ينتهي البصر فيـه الى مـدى ، لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب اذا عثر بـين اوراقه على رسائل الحب ، وأناشيـد الغرام ، وأمضني مـا يمض العاشق المفارق ، اذا مر بالآثار واطـلال الديـار ، فرأى النـؤى والاحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذيول ، فذكر ما كان ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر .

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهليـة الأولى بـاحوج الى الاصـلاح الديني من الجاهليـة الأخرى ، بل ربما كانت هذه احوج من تلك اليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله زلفى ، وجاهليتنا تعبد الاحجار والاشجار ، والاحياء والاموات ، والابواب ، والكوي ، والقواعد والاساطين : تبركا ، او تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظاً متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه .

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً ، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتاً ، بل آحاداً وافراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ واخيه ، والأب وبنيه .

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الاوتار ، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات ، وكان افظع ما في جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبغي على بعض بسرقة ماله ، او استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الاوراق وتحريف الصكوك ، وتقليد الاختام ، والبراعة في النصب والاحتيال ، يكاد يستوى في ذلك العالم والجاهل ، والشريف الهاشمي ، والفلاح القروي .

وليتنا إذ اخذنا جاهليتهم اخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها ، ولكنا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم ، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى احوج الى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الاولى ؟

نبئني عن الإسلام اين مقره ومكانه ؟ واين مسلكه ومضطربه ؟ وفي

أي موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل ؟

أفي الحانات والمواخير الـتي يغص بهـا الفضاء ، وتئن منها الارض والسماء ، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء ؟ كانما هم يشربون الماء الزلال ، ويغشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله ، او الاحتشام في أمره ، سموه جباناً جامـداً ، او متكلفاً بارداً ، كل ذلك عـلى مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية ، والمعاهد الدينية ، والقضاءين الشرعي والنظامي ؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح ، والغبن الفاحش ، مزخرفاً بالاقوال الكاذبة ، والأيمان الباطلة ؟

أم في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع ، اللهم الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها (العدل اساس الملك) او (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام ، وكانت تلك الاعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات ، لغفران تلك السيئات ؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح ،وعلماً .لا عمل ، كانما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة ، او أحد الاديان

الغابرة ، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الاكاذيب ، والترهات ، فلا تكاد تسمع من أفواههم الا حديثاً موضوعاً ، او قولاً مصنوعاً . او خرافة تاريخية ، او بدعة دينية ، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات ، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر ، وهي بعينها الاخلاق والرذائل التي ما جاءت الاديان الا لمحاربتها ، والقضاء عليها ، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الالعاب الجبازية،والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

ان أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللاسلام صلاحاً ، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية ، لا تربية مادية ، أي أنهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والإسلام وان كان دين العقل والفطرة ، والاصلاح ، الا ان الخطر كل الخطر على المسلمين ان يكون في نظرهم تابعاً للعقل ، وان يكون العقل الحكم بينهم وبينه ، والخير كل الخير في ان يكون الدين حاكما والعقل مفسراً ومبيناً ، فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين : الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك في العهد الاول من هذا الباب نفسه ،

وفي هـذه الجـادة المستقيمة ، فهـل يستطيـع دعـاة الاصلاح في الجاهلية الحاضرة ان يكونوا كدعاتـه في الجاهلية الأولى ، وهـل يستطيعون ان ان يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين ، لا تاخذهم فيـه هوادة ولا عنـه سنة ، وان لا يرى احدهم لنفسه عـلى أخيـه فضلاً الا بالإيمان والتقوى ، وان يرى كل منهم نفسه بمـنزلة المجاهد في سبيـل الله ، يتحمـل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل للياس الى قلبه سبيلا ، ولا للهوان على نفسه سلطانا ؟

هل يستطيع المصلحون ان يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما اصلح المصلحون في الاولين ؟ « لست أدري ولا المنجم يدري » ؟

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

★

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي ؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب ان يفعل .

لذلك لا أسمي الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الامن كما يعف في حالة الخوف ، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في افعاله صدقه في أقواله ، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل ان تبكي عيناه ، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه .

التخلق غير الخلق ، واكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة ، لا فاضلون ، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس ، او خوفاً منهم ، او طمعاً فيهم ، فان ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين ، او خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين .

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، او يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجوداً ، او لا نعرف له مكاناً .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار ، لأنه لا يعدم ان يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب انه يمشي في طريق الفضيلة ، أو خوفه من القانون، لان القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب ، أو خوفه من الناس ، لان الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضر بهم ، رذائل كان أم فضائل ، وانما ينفعه ان يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

وما زالت الاخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها ، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات ، والقواعد والانظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب حبلها ، واستحالت الى صور ورسوم وأكاذيب وألاعيب ، فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد ان يسلبه إياها ، والامير الذي يتقرب الى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله الف بيت من بيوت المسلمين ، والفقيه الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته الى خاتمته ، والغني الذي يسمع انين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به ، فاذا أصبح الصباح ذهب الى ضريح

من أضرحة الأولياء ، ووضع في صندوق النذور بـدرة من الذهب قـد ينتفع بها من لا حاجة بـه اليها والمومس التي تتصدق بنفسها ليـلة في كل عام عـلى روح بعض الأولياء وعندها أنهـا قـد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام .

الى كثير من امثال هذه النقائص التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الاخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة .

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عـين الرحيم كلما وقـع نظره عـلى منظر من مناظر البؤس ، او مشهد من مشاهد الشقاء .

هو القلـق الذي يساور قلب الكريم ويحول بـين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً ، او أساء الى ضعيف مسكين .

هو الحمرة التي تلبس وجـه الحي خجلاً من الطـارق المنتاب الذي لا يستطيع رده ، ولا يستطيـع مد يد المعونة اليه .

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه باكذوبةربما دفعته اليها ضرورة من ضرورات الحياة .

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الايـدي الى العبث بعرضه أو بكرامته .

هو الصرخةالتي يصرخها الأبي فيوجه من يحاول مساومته علىخيانة وطنه ، أو ممالأة عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عمـــا يترتب عليه من النتائج فمن أراد ان يعلم الناس مكارم الاخلاق فليحيى ضمائرهم ، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والنفور من الرذيلة باية وسيلة شاء ، ومن أي طريق أراد ، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الاذهان ، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب ، والأريج عن الزهر .

★

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها ، وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجاراة الامم الغربية في عظمتها وسلطانها ،فاصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها .

أصبحت أعتقد ان مفاسد الاخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه الا اذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف آتمناها لامتي وهي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبي؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل ، ففروا من وجهها الى حيث يجدون الراحة الدائمة في اعماق القبور ، وما اكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد !

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من

أن العرض إناء اذا ألم به القذى لا يغسله الا الدم المسفوح ، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف .

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام الى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات ، شوقاً الى لثمة من خد يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده حتي إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام . فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم ، رأوا أن يحتالوا على الإلمام باولئك الموتى خيالاً لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة ، فانشاؤا لأنفسهم في باطن الارض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأستار السوداء ، ووضعوا في وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها ، وإسبال جفونها ، وسكون أنفاسها ، فإذا لج بأحدهم الشوق الى الإلمام بفتاة ميتة نزل الى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظلماً موحشاً ، يضم بين اقطاره فتاة ميتة لا حراك بها ، فيلم بها وهو يسمع نغمات الاحزان من قيثارة اعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال .

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه الى الغرام ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لا عجب في ذلك . وهل هو الا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء الى حصرها

سبيلا ! ؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أغتفر لهـا ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأهـا قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأساً ولا يجدون فيه متلوماً .

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي :

يوم الأحد : دروس استعدادية .
« الاثنين : الغزل .
« الثلاثاء : المطارحة .
« الاربعاء: صناعة التقبيل والتخميش .
« الخميس : فلسفة الدلال والتصبي .
« الجمعة : اختيار مواعيد اللقاء .
« السبت : الامتحان .

هذه هي المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ، فهل سمعت في حياتك أن أمـة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة الى مـا بينها وبـين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قـد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلـغ تلك الأمـة التي يقولون عنها انهـا زهرة المدنية الحديثة ، وتاجها المرصع .

لماذا نسمي الزنوج قبائل متوحشة ، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل الى مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً ، حتى اذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه ، كما نعلم انهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات ، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة ، وها هي ذي تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها ، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها !!

إذا كان توحش الاولين لإغراقهم في صون الاعراض ، والحيطة لها فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم في هتكها وابتذالها ، والإغراق في الخير ، خير من الاغراق في الشر .

فيأيها الزنجي المسكين ، لقد ظلمك من سماك متوحشاً ، ويأيها الامريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمدينا .

أيها الزنجي الأسود : إن كنت أسود اللون ، فالفضيلة اعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة لا تغتفرها ! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن اليه ، أو تتقطع نفسك حسرات عليه ؟ وإن كنت عارياً فربما لبست من

الفضيلة ثوباً يحسدك عليه ـ لو يعقل ـ ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه ودمقسه وحريره :

ولو بتما عند قدريكما لبت وأعلا كما الأسفل[1]

(١) أي لو تنزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل ، والأسفل مكان الأعلى .

أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الاولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح، فانقلب جرهراً بعد إذ هو عرض، فاصبح كانما هو فحل سائل، او مداد جامد، فانشا هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد، وتخفضه الوهاد لا يرى علماً فيهتدي به، ولا يتنور نجماً فيعتمد في سراه عليه.

وإنه لكذلك وقد استوت في نظره الجهات الست، فسمائه ارض، وأرضه سماء، ووراءه امام، وامامه وراء، واذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وافرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته المتلألئة فعشي بعد ان كان بصيراً فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً، وما زال في ضلاله القديم، الا ان ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلالين، واقتل الداءين، فان ضلال الظلام يتخلله

بريق الامل في الضياء ، فاما وقد اصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء .

لو بغير الماء حلقي شرق　　كنت كالغصان بالماء اعتصارى

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همي سيلها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرق تربة طيبة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الاعشاب الضعيفة ، والجذور الفاسدة ، فأما ما تحجر منها ، فلم تغن عنه السقيا شيئاً ، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كاصله وكان خيراً له لو ذهبت ذلك الفيضان به وبجذوره .

أي أن المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم الى سمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا ، فبلغوا ما أرادوا ، وهوينا الى أعمق مما كنا ، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو ، فإذا ارتد ارتد الى حفرة يدفن نفسه فيها .

أي أن الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدّوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات اعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات . ووثبنا الى الغاية وثباً فسقطنا .

فمها كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهنا

عيشاً ، وأسدّ خطوات في سبل الحيـاة ، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ، أكثر منها فردية ، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرهـــا عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخـلاق والعـادات ، تجتمع حول المـائدة كما تجتمع في نادي المسامرة ، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المتنزه ، يحبون الله، لا يختلفون الا في الطريق الى رضاه ، ويحبون الوطن ولا يختلفون الا في الطريق الى خدمته ، ويحترمون عـاداتهم وأخـلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العـادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الاسد ، مخـالفة أن يرق هـذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم ، فإذا هم ميتون ثم لا يبلغون .

وكان بين الصغار في الاسرة والكبار فيهـا معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه ، فإذا أنزل نفسه منه هـذه المنزلة أصبـح بحـكم الطبيعة مرآة له تنطبـع فيهـا تلك الأعمـال والإرادات والمشارب ، حتى اذا اصبح الصغير كبيراً وجـد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا تزال سلسلة التوارث في الاسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث ، وتكبوا دونه عاديات الليالي .

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحاً في حاضره ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو ، حتى اذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الاسرة بفقده شيئاً .

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثكلتنا اياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة؟ فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية محضة فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقي بأبيه، والأب شقي بولده، وكان ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء أثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء.

ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أكله الى جداول القضايا في المحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها - خصوصاً المدنية منها - واقعة بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجيال متعددة، فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة اولاد و «امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيء الا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء الا هذا فتكون قد علمت كل شيء، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وخوالجها فربما عرض لها المهم من الامر فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على صواحبها وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو) فتكون له (جوليت)[1] وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها

---

(١) روميو وجوليت : اسم رواية لشكسبير.

نصفان : نصف للخروج ، ونصف للتهيؤ له ، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس الى مغربها ، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الاولى فلم يغتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم اشد نكالاً منها .

اما اولاده فادخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة . الإنكليزية والفرنسية والالمانية ، ثم تخرجوا ، هذا انكليزي بفظاظته وخشونته ، وهذا فرنسي بخلاعته واستهتاره ، وذاك ألماني بخيلائه وكبريائه، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً ، وما فيهم من تفرنج همة وعملاً .

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، اما الدين فلأن اكثر مدارسنا حتى الاهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشان من شؤونها والدين خلق شانه كبقية الاخلاق ، لا يرسخ في النفس الا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه ، فان بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شأن هؤلاء الاولاد المساكين فقست قلوبهم ؛ وجمدت نفوسهم ، وفقدوا بفقد دينهم اطيب عزاء يستروحه الانسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، الحافلة بالكوارث والهموم .

والانسان مهما طال حوله ، وكثر طوله ، واتسعت مذاهب قوته ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الامل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن ، فيستروح منها ما يروح عن قلبه ، ويسري عن نفسه ، ولولا يقينه أن هناك حولاً اكبر من حوله ، وطولاً أعظم من

طوله ، وإلهاً قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق بـه ذرعه ، وعيت عنه قوته .

وأما الوطن ، فلان المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لاوطانهم

فكنت ترى منزل الرجل كانما هو مجمع من مجامع السفراء تركي متمسك بتركيته ، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سيدة البحار ، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها ، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها ، ويصفها بانها أمة العدل والرحمة،وان أسعد المستعمرات مستعمراتها ، وألماني يستظهر خطب الامبراطور ، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم انكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا ، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين ، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلوا ، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون ؟ ولا يتفقون الا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم ، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديماً وحديثاً أثواب المراقع المضحكة، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية والدم الجالس ناحية يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون .

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفرق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في متنزه ولا

يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شان من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من الماكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه .

فأنى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة ، وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه ؟

وأي شان لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا [1] بها إلا هذراً في المنطق ، وثرثرة في اللسان ، وشغلا للأذهان ، لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً ؟

ولو عقلوا ان ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلا وهمجية ، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به ، وننعي عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا .

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد اقسام الأرض، وان مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون ان وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم، وان ابناء وطنهم اخوة لهم يسعدون معاً ويشقون معاً وان سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية اليهم ، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والاوهام، وان هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ،

---

(١) أفادوا كاستفادوا

ويطاطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحنثا وتعبداً ، وعندي ان ديناً خرافياً خير من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها ، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب ، والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتيال الاموال ، وغير ذلك من الشرور الانسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجراً ، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الاخلاق .

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في اكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن ان يمرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فاصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت ، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه ، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون .

وجملة الحال انهم كانوا يجهلون اكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عليهم جهلهم اكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين اكثر مما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة ، ومراكب فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وآنيه صقيلة ، وأدوات للمآكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله لانهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا

بجالتينا ، إلّا ان معيشتنا يكدرها الفقر والافلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء وها هي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم الى حاجيات ، فبنوا القصور ، وشادوا الدور، وما شادوا لا يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم ، فإن هؤلاء الاولاد المساكين بعد ان خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا ان لا يبقوا في قوس الحرية منزعاً فاطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف ؛ ثم ينامون النهار بين التمطي والثوباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم ، فابعدتهم عنها ، فاصبحوا كلاً على أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ،ولم تغن عنهم شهادتهم، بعد ان نفخت الكبرياء في صدورهم فأبوا ان ينزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك ايمانهم وقلوبهم ، وبعد ان ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسهم متسعاً لسواها ، فاغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تارات ، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم ، وثانياً باتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوربية، التي تفني خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول الى إشباع بطون تجارها ، فنضب معينها ولم يبق

منها حتى الذماء [1] فتبدل ذلك النعيم شقاء ، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعدماً ، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستحدثات ، وأما الاولاد فاغتالت احدهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب ، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جناية دفعه اليها العوز والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » الى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله ، فلو ان باكياً بكى على ما آلت اليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكي أسراً متعددة ، وأمة كاملة :

لقد لامني عند القبور على البكا   رفيقي لتذراف الدموع السوافق
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى   دعوني فهذا كله قبر مالك [1]

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي ، فلا خير في العصرين ، ولكن ويلا أخف من ويلين ، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين ، ولئن دام هذا الحال ، واطرد المقياس، فالغد شر من اليوم ، كما كان اليوم شراً من الأمس .

---

(١) الذماء بقية النفس .
(١) الأبيات لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا .

المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل ، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمرآه ، وتراجعت قليلا قليلا ، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق الى المرقص ، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والذل والانكسار ، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين .

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفت ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسالني : ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما ساله عن سبب بكوره : أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب ، قال : أنا أفتش عن ابن عمي ، قلت : وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال : هيا بنا ندخل قبل أن تمتد

سلسلة التفتيش الى حيث ما لا نهاية له ، وامسك بيدي حتى جار بي باب المرقص ، فسألته ما هذا الجندي الواقف أمـام الباب ؟ قال : كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد اصبحت اليوم حكومة مدنية لا ادبية ، فتساوت في نظرها « المصالح » والمراقص ، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء ، ومعاهد البغاء ، فأصبح الجندي يحمي ابواب العاهرات كما يحمي ابواب الوزارات ، ويقف امام البارات موقفه امام الإدارات .

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخاً وتذرافاً كلما ابصرت هذا الجندي الظريف واقفاً هذا الموقف الذليل ، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء ، ويحمي الفسق والفجور ، لا القلاع والثغور ، وما أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجنديها ان يشتمه شاتم ، او يلمسه لامس ؛ فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيها الشامة والحمية ، والعزة والنخوة ثم لا تضن به ان توجره نائحة في الجنائز ، او قواداً في المراقص ، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته ، وينوب عنها في غدواته وروحاته .

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي الى قاعة المرقص حتى وصلت اليها ، فماذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع في حياتك ان فداناً واحداً من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم انه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه ؛ أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون .

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والعقول جـامدة في الرؤوس ، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت احسبه اوفر الناس عقلا ، واذكاهم قلباً ، ومن كنت اراه فاغضى بين يديه إجلالاً واكباراً ، واقعاً في حبالة بغي تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره ، وتعبث بـه عبث الطفلة بلعبتها ؛ وهو في غـير هـذا المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً ، وكسرى فارس أنفة واستكباراً .

رأيت من يزعم ان الله قـد وهبه عقلا يخترق اشعة حجب الغيب ، وعلماً تتساوى امامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى مـا اسائل واحداً عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل قضية من القضايا الاولية التي يشترك في فهمها الاذكياء والاغبياء والعلماء والجهلاء .

رأيته يجلس في المرقص فتمر بـه البغي فما هي الا لمحـة طرف ، او غمزة كف . حتى تحدثه نفسه انه قد وقع من نفسها ، وملأ فراغ قلبها ، فيدعوها اليه فتجلس بجانبه ، فما هي الا ابتسامة خالية ، او كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الايمان ، ان نفسه صادقة فيما حدثته ، وان الفتاة قد علقت به علوقا لا نجاة لها من بعده الى يوم يبعثون .

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى ان ذلك قليل في جانب مـا تبذل له من دقائق تقضيها بـين يديه ، وابتسامـات تجود بها عليه .

لقد كذبتك نفسك ايها الرجل فها هي المرآة بجانبك فهل ترى فيها منظراً رائعـاً ، او جمالاً ساطعاً ، ياسر أقسى النساء قلبـاً ، واعصاهن عنانـاً .

ان الفتاة التي اسمعتك كلمة الحب قد اسمعتها قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك .

وان كنت في شك مما اقول فامسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعـد ذلك اين مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبهـا ، فان لم تمطر عليك سحائب اللعنات ، وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات ، فأنت اصدق الصادقين ، وانا اكذب الكاذبين .

رأيت هنـاك كل حـاسة من الحواس قـد لبست منظـاراً يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغـني المغنيـة بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات والسكنات ، فتمتلىء ارجاء القاعـة بالآهات ، وتدوي فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجـه مغضن وجفن مقرح ، وسن بارز ، وخد غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتتحلب لها الافواه ، وتترامى تحت اقدامها الوجوه ، فقلت في نفسي . اهـذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة ، وتذبل فيه الرياض الزاهرة ؟

اهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق الانهار في البحار ، وتقبر فيه نفوس الكرام ، قبل ان تقبر تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله واساطيله وقنابله ، ولا الارض بزلازلها وبراكينها ، ما

يبلغ منا المرقص ببغاياه .

قال المحدث . والحق اقول إني دخلت المرقص وانا احسب اني انفس عن نفسي كربة ، فرأيت ما زاد نفسي هما ، وملأ قلبي غيظا ، فقلت لصاحبي . هل لك في القيام؟ فقام وقمت وانا اقول . والله ما ادري ماترك هذا المكان ، للمارستان؟

★

الماضي والحاضر

عندي ان الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح امران اعتباريان يختلفان باختلاف الامكنة والازمنة ، فكما ان الجمال في امة قد يكون قبحاً في امة اخرى كذلك الفضيلة في عصر ، قد تكون رذيلة في عصر آخر .

ليست الفضائل والرذائل اسما توفيقية كاسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وليست الفضيلة فضيلة إلا لانها طريق السعادة في الحياة،ولا الرذيلة رذيلة إلا لانها طريق الشقاءفيها،فيحث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة ، وإن كانت صفة الكرم .

اعتاد علماء الاخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم الى اليوم ان ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه او رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان ، يكتبون على رأس احدهما عنوان « الفضائل » وتحته كلمات الشجاعة والكرم والامانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيهما عنوان« الرذائل » وتحته كلمات الجبن

والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة ، وارى انه قد آن لهم ان يعلموا ان النـاس اليوم غيرهم بالامس ، وان اساليب الحياة الحاضرة غير اساليب الحياة الماضية ، وان كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون منها قد اصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري ، واسساً ثابتة تبنى عليها جميع اعماله وشؤونه ، فلا بدّ للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا مندوحة لهم ان ارادوا ان يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من ان يتعلموها تعلماً نظامياً ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شان سعادتهم وهنائهم .

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه،ويعرفون له يده التي اسداها اليهم ، فاذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم ان يجدمن بين الذين احسن اليهم او عظم في نفوسهم شأن إحسانه ــ من يمد اليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، او يرفه عليه ، اما اليوم وقد انكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم ، بل اصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل بـه قدمه ، ويصبون عـلى رأسه جميع مـا في كتب المترادفات من اسماء الجنون والقابه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من الرأي الدعاء له ، والحض عليه .

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في احاديثهم عن انفسهم فلا يعترف بالبؤس الا البائس ، ولا يلبس القديم الا من عجز عن لبس

الجديد ، اما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فلبس ثوب الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤس غير البؤس ، واصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم الا اللجوء الى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالي ، فالرحمة هي الفقر العاجل ، والخسران المبين .

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد ، اما اليوم وقد فترت همم الناس ، ووهت عزائمهم ، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير ، ووكل كل امره الى صاحبه ، فان رأوه قائما بدعوة وطنية او اجتماعية اغروه بالمضي فيها ،وقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فان ظفر هتفوا له، وانحدروا اليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها ، وان فشل خذلوه ، وتنكروا له ، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها الا التهلكة والشقاء .

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم ،ويوم كان الفقر مفخرة للشريف اذا عقدت يده ، وعزفت نفسه . والغنى معرة للدنيء اذا سفلت مساعيه واغراضه ، أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم الا المجد المالي ، واصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل ان يتعارفوا بصفاتهم واعمالهم ، فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل .

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها

قدرها ويطاطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها ، أما وقد اصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذي لا يحسن الذياد عن نفسه ، فلا خير في الحلم ، والخير كل الخير في الغضب .

الحياة معترك أبطاله الأشرار ، وأسلحتهم الرذائل ، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى .

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم باس بعض ، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاها فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك اشراف الناس وفضلاؤهم، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص ، في هذا العصر ، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها ، فيستأثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا الى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا الى القناعة الا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها ، ولا الى الصدق الا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه .

كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ؟ وكلنا يبتسم

لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرياء والمصانعة ؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفظع الطمع والجشع ، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق ؟

اننا لانفعل ذلك الا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية .

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب ، وأن قصص الفضائل التي يقرءونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار ،وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها انما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه ؛ ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات .

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناشيء كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر ، ويغش الصانع ؛ ويلفق المحامي ، ويدجل الطبيب ؛ ويختلس المرابي ، ويرائى الفقيه ، ويصانع السياسي ، ويتقلب الصحافي ، ثم يقولون له : هذه هي الحياة ، وهذا هو ما يجري فيها ، فان أردتها على علاتها فذاك ، او لا ، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل حشرات الارض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك اجلك .

الشر لا يقاوم الا بالشر ، والظلم لا يدفع الا بالظلم . وحامل السيف لا يغمده في غمده الا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه الا اذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم الا اذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال الا اذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يامن بعضهم باس بعض، الا اذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد .

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على ان تكون وسيلة من وسائل العيش ، في عصر مثل هذا العصر ، وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل .

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها ، لولا ان شرور الاشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفا على ايامها وعهودها .

*

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب ان أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف الى أسرة كريمة ليخطب اليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق ان وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من ان يزوجوها منه على تقدم سنه ، وإدبار أمره لأنه اكثر من أبنه مالاً ، واوسع جاهاً وسلطاناً ، فكانت نتيجة ذلك ان هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ، لأنه كان يحب الفتاة حباً جماً ، واصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم ، واصبح الشيخ حزيناً بائساً لأنه اصبح بلا زوجة ولا ولد .

سمعت بهذه الحادثة فتالمت لها كثيراً . ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت ، وتستنتج منهما ما استنتجت :

فجعت سيدة اسمها « مارجريت بونفيل » بوفاة زوجها وهي في

الخامسة والثلاثين من عمرها . وكانت امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن، لا يرها الرائي حتى يخيل اليه انها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء ، وانها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً وبدأت تختلف الى بعض الاندية العامة علها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان اعجبها منه جمال صورته وعذوبة اخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه . فاحبته وافتتنت به واضمرت في نفسها ان تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وان كان اصغر منها سنا بنحو عشر سنين . فلم تزال تتودد اليه ، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت اذا جلست اليه للحديث معه يردد على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفي ، فكان يخيل اليه ان تلك الابنة طفلة في الخامسة او السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يوماً من الايام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الاطفال ويطربون لها ، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل ؟ قال : إنها هدية لماري أريد ان اقدمها اليها واين هي ؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطىء الجدول ، فاذهب اليها وقدم لها هديتك بنفسك .

فذهب حيث أشارت ، فراعه أنه لم يجد امامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعباً رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف امامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول ، حتى

رنت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارفض جبينه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها : أقدم لـك يا مـاري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصاناً خشبياً جميـلا ، فهـل تحسنين ركوب الخيل الخشبية ؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة ، فأثر في نفسها خجل جورج وارتباكه فمشت اليه ووضعت يدها في يده وقالت له : أشكر الك هديتك يا سيدي ، وأتقبلها منك باغتباط وسرور ، وأعدك أني ساحفظها لك عندي تذكاراً دائماً لا أنساه ، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعاً يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلهم الليل فاستاذن جورج وعاد الى منزله .

واصبح بعـد ذلـك يختلف الى مـنزل مرجريت لا من اجـل الأم وحدها ، بـل من اجـل الأم والبنت ، حتى حضر صباح أحـد الايام ، وكانت الأم قد خرجت لبعض شانها ، فوجد ماري وحدها ، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكانه كان يتمنى ان يجدها خالية فوجدها ، وكانت جالسة على شاطىء الجدول في المكان الذي رآها فيه اول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلا ذهبا فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب ، فورداه، فاذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب ، وإنهما لمضطجعان وجهاً لوجه على ذلك البساط الاخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور ان يراها فيرسمها فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران

فرابها منظرهما ، وخيل اليها أنهما يتحدثان في شان غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها ، فاصغت اليهما ، فالمت بطرف من حديثهما ، فدارت بها الارض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها ان صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء فاملست من مكانها إملاساً ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله ان تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فمسحت عبرتها بيدها فاذا المرآة امامها ، واذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها ان قد انقضى عصر شبابك او كاد ، وقد خطوت الخطوات الأولى الى شيخوختك ، فأخلي مكانك لابنتك ، فهي أولى به منك ، وحسبك من السعادة ان تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها ، واعلمي ان للطبيعة حكماً قاسياً لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرد عليه متمرد الا هلك ، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكاً وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ، فتثور ثائرتها ، وتأبى الا ان تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها امثالها ، ونحو ابنتها أخرى ، فتلين عريكتها ، ويسلس قيادها ، وتقول في نفسها : إنها أولى به مني ، لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر ، فخرجت من غرفتها باسمة متطلقة حتى وصلت الى مكانهما ، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولهما ، فصاحت بهما : أأنتما هنا يا ولديّ ؟ فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما ووضعت

يدهـا في أيديها وعادت بها الى غرفتها ، وجلست تتحدث اليهـما حديثاً طويلاً انتهى بعقـد الخطبة بينهما ، ومـا هي الا اشهر قلائل حتى زفت اليه ، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهـداه أبوها لأمها منـذ عامين حـين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها .

وكانت قـد بقيت بقيـة من مرارة الألم في أعمـاق قلب مرغريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رن في أذنها يوماً من الايام صوت حفيدتها تدعوها « جدتي » فكان هذا آخر عهدها بها .

وكذلك استطاعت مرجربت ان تعيش بعـد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها .

ذلك مـا فعل الرجل في السبعين من عمره ، وهو يخطو الى القـبر خطوات حثيثة ، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصف لا الى الشيخوخة ولا الى الشباب فجوزي هو عـلى تمرده عـلى الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها ، وتأدبها بادب الحياة ، احسن الجزاء .

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هـذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يوماً من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، الى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سداً محكماً لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي ، زيه وهيأته ، ولغته ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقـه ، وأصحابه وعشراءه ؛ وجميع صلاته وعلائقه ، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له : صورته واسمه لفعل .

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول ، لا صلة له به ،ولا شان له معه ، وأنه قد خلق خلقاً جديداً .

إنها لخلة رديئة جداً ما رأيت في الخلال أقبح منها .

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب « وعـار » ، والفقر ليس بعيب ولا عار ، فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنـه قد قضى على

أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضاً ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشبابُ هو الحياة من مبدئها الى منتهاها ، في الفقر والخصاصة ، والعَدم والإقلال .

ولا أدري ماذا يكون شانه غداً إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبة ، أو يمنح منحة حتى يستردها .

عذرته في ثوبه الذي خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفي داره التي هجرها، وقلت لابد أن يكون هناك فرق بين حياة السعةوحياة الضيق ، وفي لهجته التي غيرها ، لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم ، وفي خده الذي صعّرة ، وصدره الذي أبرزه ، وأنفه الذي شمخ به، لأن الثروة طغياناً كطغيان الشراب،لا سبيل الى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره فيزوجه التي طلقها واستبدل بها سواها .

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرّائه وضرّائه ، ويسره وعسره وشبعه وجوعه وريه وظمئه ، واحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء الى الله تعالى أن يبدل عسره يسرا ، وضيقه سعة ، وشدته رخاء ، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته .

إنها شاركته في شدته ، فيجب ان تشاركه في رخائه ، واحتملته

والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها، ان كان يرى أنها عبء ثقيل عليه .

أيريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقـة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل الى ذلك ؟

إنهن يتمنين ذلك فعـلاً ، بل يسعين له سعيهن ؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فياللفظاعة والهول، ويا للمعيشة النكدة المريرة! وياللشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء !

حدثني من أثق به أنه دعي الى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفـة تحت جدار البيت تتحدث الى بعض الناس وتقول لهم : انها سيدة هذا البيت بالأمس ، وان زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي انعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها مـا يصنع الكريم باهله ، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء ، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة ، لايعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولالولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد ؛ وقالت انها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونـة والمساعدة فيمنعها الخدم .

انه لموقف مؤلم جداً ان تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته

بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين .

لا يجد المرء لذة الطعام الا اذا ذكر الجوع ، ولا لذة الماء الا اذا ذكر الظمأ ، ولا لذة السعادة الا اذا تمثل امام عينيه عهد الشقاء ، فما أحوجه – اذا انتقل من عذاب الفقر الى نعيم الغنى – الى اصدقاء عهده الاول وعشرائه ، ليجلس اليهم من حين الى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره ، فيشعر بلذة الانتقال من حال الى حال،وما أحوجه الىزوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته ، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً .

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً اعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها « بوشنج » وفد الى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد اليهم بذلك المنصب العظيم ، وقف الناس له صفوفاً على جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد اصدقائه وكان يسير بجانبه : الا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟ قال : نعم اراهن ولكنني كنت افضل ان ارى بدلاً منهن عجائز « بوشنج » .

اي انه كان يتمنى ان العيون التي رأته بالأمس وهو وضيع ، تراه اليوم وهو رفيع .

الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر ، وسالت لها دموع الفضيلة حزناً وآسى ، وتحدث المتحدثون عن اولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتاً عيش البؤس والفاقة ، أعجب لهن ولأمرهن ، واقول في نفسي : ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن ، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن ، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن ، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته ، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الارض حيث شئن ، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق ، والاجواء الحرة المطلقة كثيرة ، واسباب العيش فيها متنوعة ، وما على وجهه الارض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن ان يصرن اليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في

تأويل ذلك من ان ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن الى اختراقه ، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها او إنه وضع في أعناقهن أغلالاً من الديون وليس في وسعهن ان يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فان من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس ، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالامس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فانا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت .

★

توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزناً شديداً لأنها كانت أحب اليه من نفسه التي بين جنبيه ، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف الى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها ، فمر بخاطره يوماً من الايام ان يزور حي « مونمارتر » وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق الى زقاق ومن معبر الى معبر حتى وقف بباب خان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه ، فانحدر اليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولابط بالارض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه ، وراقص يوقع حركات قدميه

على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحباً متكاثفة يرى الرائي من خلالها بعد لأي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب الا قليلاً ، وتنثر على الناس نثارات من الورق الرقيق الملون ، والناس من حولها طائرون بها فرحاً ، يداورونها ، ويعابثونها ، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحداً ، وربما مد بعضهم اليها يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يزلقها من مكانها ، او دفعها في صدرها بعصاه فآلمها ، وهي تبتسم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين ، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية ، ولكنه رأى على كل حال منظراً غريباً لم ير مثله قط فأعجبه وسكن اليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكاناً قصياً ، وجلس الى مائدة منفردة ، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فاذا هي رائعة الجمال ، الا أنه جمال مبعثر مذال ، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظراً اليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها ، ونزلت تدور بعينيها علها تجد من يدعوها الى لقمة تسد جوعتها او كأس تبل بها غلتها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطيرت فرحاً وسروراً لأنها لم تر قبل اليوم زائراً مثله في فخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث اليها ويسائلها عن نفسها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد أمرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك

النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنه ان أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد احسن اليها والى الإنسانية إحساناً عظيماً ، فسألها : ألها باحد من الناس صلة من زواج او مخالة ؟ فاطرقت برأسها واجابت : ان لا ، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها ، فاستطارت بـه فرحاً وسروراً ، وما هي الا ساعة او بعض ساعات حتى كانت بجانبـه في مركبته فسار بـه الى منزله .

وهناك تغـير من شانها كل شيء ، فاصبحت تلـك الفتـاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية ، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيـدة فخمة يتـلألأ وجهها بنور العزة والكرامة ، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشان في الحياة ، وان الدوق يوشك ان يتزوج منها .

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر الا خدمه ، ولا يختلف اليه الا القليل من اصدقائه القدماء من حين الى حين لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا نسيب فكانت « مارسيل » ملهاته التي يتلهى بها في وحدته ، وأنسه الذي يانس به في وحشته وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع ، وظـل الأمر بينهما على ذلـك شهوراً عـدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتها الى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة او ساعتين ثم يعودان ، فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزهها اذا مرت بهما المركبة على مقربة

من حي « مونمارتر » فاقترحت عليه « مارسيل » ان يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة ، ومشاهده العجيبة فاذعن لرغبتها ، وظلا يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه فطلبت اليه ان ياذن لها بدخوله لترى ما حل باصحابه وزائريه من بعدها ، فلم ير في ذلك باساً ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها ، واتجها الى بعض الموائد المنفردة فجلسا اليها ، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً ، وهتفوا لها هتافاً شديداً ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها وهي تبتسم لهم ، وتعطف عليهم ، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا ان جذبوها من مكانها ، وأصعدوها الى المائدة لترقص لهم ، فكانما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم ، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت . حتى أتمت دورها ، ثم نزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق .

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل اليها ان هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن ، وان هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها ، وان هذا السكون الذي يحيط بها انما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور ، فكانت اذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه ، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الاشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كؤسهم ، فتطرب لتلك الحياة

الهائجة الثائرة ، وتحن اليها حنين العاشق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها ، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة الى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادىء قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد ، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها ، وكانت لا تزال ملقاة في بعض الغرف ، وتسللت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها ، واخذت سبيلها الى حي مونمارتر .

وهكذا قضي عليها ان تشقى ، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها.

ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها ، فبكاها كثيراً وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل .

ومر على ذلك عام او بعض عام وبينما هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع ، وتحاول ان تمد يدها الى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع ، فدنا منها ليتبينها فاذا هي مارسيل ، او هي شبح متهافت باق منها ، فلما أحست به حدت ذراعيها اليه وقالت له بصوت خافت ضعيف : اغفر لي ذنبي يا مولاي ، فدهش لمنظرها دهشة شديدة ، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها الى القصر فحملوها الى غرفتها التي كانت تنام فيها ، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد ، وتستذرف الدموع ، ثم جلس اليها يسائلها عن

شأنها . فقالت انها مريضة مدنفة منذ شهور عـدة ، وانها قد عجزت عن ان تجد سبيلاً الى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً ، فـلم تجـد بـداً من ان تـأتي اليـه لتستغفره من ذنبها ، وتساله ان يعينها عـلى أمرها ، لأنهـا لا تعرف في الدنيا لها راحماً سواه ، فسألها لم فرت من قصره ؟ وما الذي كانت تنقمه منه ؟ فقالت لا أعلم ، وانما هو قدر قدره الله ولا حيـلة لأمري فـيما قدره وقضاه ، فسألها اين كانت تعيش بعـد فرارها ؟ قالت في المكان الذي أنقذتني منه فأبيت لشقوتي وبلائي الا ان أعود اليه لتنفذ في ارادة الله ، فرثى لحالها ، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرهـا ، فـلم يستطـع الطبيب ان يصنع شيئاً ، لأنه جاء بعد الاوان ، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها الى خالقها ، وخلفت الدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلا بعد ذلك .

*

لكل جو من الاجواء رائحـة خاصة بـه يألفها أصحابه ويستنيمون اليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبـين تلـك الاجواء الخبيثة ، ولا تقولوا انهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها ، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها الا البعيد عنها .

الرسائل

كتاب في التقاضي :

أنا ان سالتك حاجتي ، أعزك الله ، وبسطت اليك يد رجائي ، فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً ، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت الى منكم أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت ، أيدك الله ، بين ان استشفع اليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى لديك وبين ان أكل ذلك الى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت ان الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر ، والسلام .

كتاب مقاطعة :

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك ، وصحوت من رقدة

طال على الغيب فيها حتى خفت ان تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك [1] ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي ماخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة [2] وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصرى ، فجفت الدموع التي طالما أذلتها [3] بين يديك وقرت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقاً اليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك الا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب ، ثم يغذوها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف [4] ظلالها وترن اطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عالجت هذا القلب الشموس [5] في الرجوع الى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح جموح المهر الأرن [6] وركب رأسه الى حيث لا مطمع في أوبته وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فاسات عشرته وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل فما هو الا ان أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلى الجديدان .

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تـ كد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

---

(١) أي لم تعجبني محاسنك . (٢) الروعة : المسحة من الجمال . (٣) أذلتها : هتنها
(٤) رف النبات : اهتز واضطرب . (٥) شمس : امتنع وأبى .
(٦) المهر الأرن : النشيط .

كتاب تهكم :

علمت أن ساسانيا[1] طرق بابك بالأمس ، ومـــا زال يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من روضه ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم ، فما هـذا الخلق الغريب الذي تخلقه ، وما هـذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصياً عـلى أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، عـلى أن الفقراء في الدنيا كثير قـد ضاقت بهم خزائن الارض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بـين الدرهم الذي أعطيت ، والدراهم الذي أبقيت ، الا حرف واحد[2] ؟ فليت شعري من اين ذهبت ، ومن اي باب نفذ هـذا الشيطان الى قلبك ، وان أخوف ما أخاف عليك ان تكون اتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبـلاء جسيم ، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت ، لا تقع عينك الا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ، وطريح عـلى التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين وتسولت مع المتسولين ، ثم لا تجـد لك راحماً ولا معيناً . فارحم نفسك قبل ان ترحم سواك ، ولا تنس ان

---

(١) النسبة الى ساسان : وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات .

(٢) يشير الى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست الا درهماً على درهم .

تردد في صباحك ومسائك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي اعقاب صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة » .

وعلمت انك دعيت الى وليمة فلان فتحلب لك فوك ، ورقصت لها اشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكهتها وحلوائها ، مثلج الصدر ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس كأنك لا تعلم انها لذة الساعة ، ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الأبد ، وأنك انما طعمت ما في الحبالة من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غداً . فمن لك بالنجاة من مضيفك اذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه ، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآك لبك ، وتمشي له قلبك في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر ان منحت ، والعار ان منعت واعجب من ذلك انك ما برحت الوليمة حتى اخذ المغني مجلسه ، فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب جرب ، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك ، حيث لا تزور ولا تزار ، منادح عن هذه اللقمة التي اسهرت ليلك ، وأقضت مضجعك ، واقعدتك مثل روق الظبي خيفة وحذاراً ، فإياك والعود الى مثلها يطل غمك ، ويسود عيشك ، والسلام .

كتاب يأس :

كتابي الى سيدي ومولاي، والنفس بين جنة من الأمل تغن اشجارها، وترن اطيارها ، وتشتجر اغصانها، وتعتنق غدرانها، وهاجرة من اليأس

تتلظى نارها ، ويعتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالـع مشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الامن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره ، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب مـا بين فرح وهم ، وسرور وحزن ، وقبض وبسط ، ومـد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ، ورأفتـه وحنانه ، فيشرق لي من خـلال ذكراه وجـه الحيـاة الناضر ، وثغرها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والايام ومـا أعـدت في طياتهـا لبنيها عن عثرات في الخطوات ، ونكبات في الغدوات والروحيات ، ومـا أخذته من العهـد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيها ، فالمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي ، ثم أنثني على كبدي من خشية ان تصدعا ، فليت الله يصنـع لي فيمطر عـلي قطرة واحـدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي ، وأطفي بها لوعتي ، او ليت القدر ينشب أظافره بين سحري [1] ونحري نشوباً لا يستقي بعده عرقاً نابضاً، ولا نفساً مبردداً ، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف ، لا هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكى .

يقولون « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » وأقول مـا عذب الله عبـاده بنازلة القضاء ، وصاعقة العـذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلزال الاكبر ، والمـوت الاحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص في الامـوال

(١) السحر : الرئة .

والأنفس والثمرات ، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ، ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذاراً ، فوق أرض تعزف جناتها[1] وتحوم عقبانها ، وتزأر سباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحت سماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، باسوأ في نفسه آثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه ، تردد الغصة بين لحييه لا هي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

قد اصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية ، وقنن الجبال ، ان أراها ساربة في مساربها ، سارحة في مسارحها ، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق ، قد قنت من الماء بالكدر ، ومن العيش بالجشب[2] فتساوي لديها شحمها ولحمها ، وشيحها وقيصومها ، وسعدها ونحسها ونعيمها وبؤسها ، فما تحفل بنوازل القضاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها ؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي منه كمثل رجل زلت به قدمه فسقط في جوف بئر بعيد غورها ، نساء مكانها ، فما زال يتخبط ويضطرب ، ويهب ويثب حتى عثر برقاة علقت رجله بها . ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها ، حتى بلغ منه الجهد او كاد ، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى ، فسقط ، فخاف الغرق فعاد الى نفسه ، فعاد

(١) جمع : جان (٢) الجشب : الخشن من الطعام .

الى سقوطه ، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء .

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر الا صريعاً صرعه أمله ؟ او قتيلا قتله رجاؤه ؟ او صديقاً يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر فاصبح عون النوائب عليه ، او باكياً يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الايام فيه ، او ساعياً دائباً وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده ، او ساهراً متململا لولا أمله ان تنيله الايام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً ، داعياً مناجياً لا تراه الا عين السماء ، ولا تسمعه الا أذن الجوزاء .

هذه حالتي ، وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي ان أعتزل الناس جميعاً ، وافارق عشيرتي وصحبتي ، ويراعي ومحبرتي ، علني أجد في البعد عن مثارات الأماني ، ومباعث الآمال ، راحة الياس ، فالياس خير دواء لأمراض الرجاء .

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي الا وحشتي ، ولا أنيس الا وحدتي أتخيل البيت قبراً ،والثوب كفناً ، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة ، وأمانيها الباطلة ، ومطامعها الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك ، والسلام .

الكلمات

الجرائد :

لا أرى الصحف في مصر الا نادياً من أندية القمار ، ولا هؤلاء الكتاب الا جماعة من اللاعبين ، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة « البليار » ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها ، فيكسبها في الصباح « زيد » ويخسرها في المساء « عمرو » وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي .

عبد الحميد :

حضرت منذ اشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان ، ويدعو له بسلامة عرشه وطوله بقائه ، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقاً كاد

يضم اضلاع المسرح بعضها الى بعض ، وحضرت ليلة امس منظراً من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلا ظالماً سفاحاً ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس ، زَمِن المروءة ، جباناً مستطاراً، ورأيتهم عمدوا الى صورته فجعلوها مواطىء اقدامهم ، ومضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في اعينهم ، وابتهجوا لمرآه ابتاجاً ملأ فضاء صدورهم ، فتمشى في اعصاب ادمغتهم حتى وصل الى اعصاب ايديهم ، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل .

أنا لا أعلم ان كان عبد الحميد ظالماً او عادلاً ، كريماً او ليئماً ، شريفاً او وضيعاً ، وإنما أعلم أنني سأموت قبل ان اقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم ، كتابهم وشعراؤهم ، علماؤهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأم المخطىء الهبل

الشهرة :

لا يمكن ان تكون الشهرة بحال من الاحوال ميزاناً للفضل في مصر ، خصوصاً في عالم الادب ، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد الا اذا سلم السابق من كيد العابث ، وخدعة الاريب وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصاباً ، ويلصقها بنفسه إلصاقاً . وينزع اليها بوسائل لو عرفها الناس لانزلوه منزلته ، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ، وإمتاع وجدانه فلا يترنم بقصائده في

المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الاسماء والالقاب ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره ، ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى للاول في هذا البلد الساذج دوياً كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحاً مجفواً لا يؤبه له ، والدرّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الارض من الواح البلور . وان كان ملء العيون حسناً وبهاء ، ورونقاً وماء .

فـــكاهة :

حدثني بعض الاصدقاء أنه دخل في ايام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة اكثر من افراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فاجلسه على كرسي امام المرآة وامسك بالموسى وانشا يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك الى جانبها أخرى مستطيلة او مستديرة وأخرى مثلثة او مربعة حتى ريع الرجل وظن ان الحلاق قد اصابه مس من الجنون ، فارتعد بين يديه وخاف ان يمتد به جنونه الى ما لا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع ان يساله عن سر عمله .

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية،ورسومه الجغرافية حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كانه يتمم حديثاً سابقاً بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا هاقد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس « الزبون » هنا طوكيو ، وهنا بور أرثر ، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الاسطول الروسي ، وفي هذه البقعة

تلاقى الاسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ، ثم اردف كلامه بقوله « وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية » وضرب بجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين ، والناس أجمعين .

لا أعلم إن كان المحدّث هازلاً ، أو مجداً ، وإنما اعلم انه قد اجاد التمثيل!

الأقسام :

لا اعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه كلاهما ضعيف المنّة ، وكلاهما ساقط الهمة ، وكما لا يستطيع الكاذب ان يكون صادقاً ، كذلك لا يستطيع الحانث ان يكون باراً . وناقض العهد ان يكون وفيّاً فخداع من المتكلم ان يزعم ان لاحاديثه من الشأن في مواقف الاقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحرّج في الحنث، ما لا يتحرج في الكذب ، فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً .

الدين :

أيها الناشىء : ان من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين ، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا ان الناس سياخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها اليهم غير دعوى انكار الدين وجحوده استثقالاً وتبرماً ، لا تقلداً

وتمذهباً ، وما هم بمنكريه . فاعلم ان الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك انكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون اليك أنك لن تستطيع ان تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة ، وان تنال الحظوة الباسقة في نفوس اصحابها ، الا اذا تنكرت لدينك . وتسلّبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على ان لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك الى نفسك احوج منك الى الناس وان الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً ان انت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وان هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وانواع الآلام ، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة ، ولا يثل من عثرة الا الى عثرة ، لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته. ويستروح من اعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة :

قال لي بعض الناس : إن قوماً يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم فقلت له : إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع سيئاً ، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها .

الانتقاد :

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان : أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان ، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا

ينتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أي أنـه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مراً فلا يبقى من آثاره فيها الا اثر واحد ، وهو ان الكتاب جليل القدر ، سني القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بامره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم الا اذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل الى بعض الناقدين ان ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الامر ان ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، اولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا واثر انتقاداتهم في نفوسنا، اما الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً .

الحـــزم :

إن الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه ، قد خرج من يدك فـلا سبيل بك الى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه امامك من يستحقه ، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كاساً يقتل بهـا نفسه قـد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفاً يسد به جوعة اولاده .

الالم :

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف ان الانسان غافل بطبيعته عمـا يهدده من مصائب هـذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نذر تاتيه من عالم

الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة .

الغفران :

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للانسان ، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لانفسهم، ويذكر لاصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لان الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم ، فلم لا نغتفر ذنوب اولئك الذين ما اذنبوا الا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على اثرها صرعى لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ؟

الدعوى :

إن أردت ان تكون في الامة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء، تنل بقولك في الزمن القصير ، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل فان الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه .

الدين والوطن :

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لانه ان كان بنقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً ، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للإنسان افضل الاوطان ، فمن لم يحرص عليها فاحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران .

الحلم :

اذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين

اثنتين اما ان يكون الرجل صادقاً فيا يقول او كاذباً ، فإن كانت الاولى فاحمد الله تعالى على ان قيض لك من ارشدك الى عيبك ، وكشف لك عن خبيئة نفسك ، وان كانت الاخرى فاربا بنفسك ان تكون من الجاهلين الذين يتوهمون ان في استطاعة الاكاذيب ان تبقى زمناً طويلا على ظهر الارض .

الأدب :

لا تكافىء السفيه على سفهه بمثله، فإنك ان فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم انك تنقمها منه ، فإن كنت لا بد منتقماً فليكن مثلك مثل الاحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلا على ان يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحا محرجاً والاحنف ساكت لا يقول شيئاً حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب الى قومه باكياً نادباً ياكل اصبعه أكلا ويقول : والله ما سكت عني الا لهواني عليه :

الأخـــلاق :

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تمترض الرائح ، وتصد سبيل الغادي ، فلا الناس بظلها يستظلون ، ولا هم من شرها ناجون .

الاعتـــدال :

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام ، وبين البخل

والإسراف منزلة هي الكرم ، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة ، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة ، فليكن من افضل ما تاخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل ، واعلم انك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا انت مسرف ، وانك لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا انت جهول ، وأنك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فاذا انت شجاع ، وان كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الاذكياء .

البر :

ربما كان لك من أبويك او من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره او عصور نشأته على ان ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل ما نلت ، فإياك ان يدعوك ذلك الى تسفيهه او تجبيهه او السخرية به او الإدلال بنفسك عليه فإنك ان فعلت خسرت من الأدب اضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها ، وموارد الأمور ومصادرها ، ما يبهر علمك الذي تعتد به ، وتدل بمكانك منه عليه ، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك ان تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالاضافة اليها الا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر .

الشقـــاء :

السبب في شقاء الإنسان أنه دائمًا يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع اليه من سعادة غده ، فاذا جاء غده اعتقد ان أمسه كان خـيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقياً في حاضره وماضيه .

★

الفتاة والبيت

« الكلمة التي قرّظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت »

حضرة صديقي الكاتب الفاضل انطون أفندي الجميل .

أهديتَ الي كتابك : الفتاة والبيت فاهديته الى ابنتي ، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات ، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت الي تقول إنني لم أهد اليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب .

سامحها الله ، فقد كان فيما أهديت اليها كتاب « النظرات » فقد فضلته على كتاب أبيها ، ولكن ما لها وللنظرات ، وامثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة ، فهي فتاة على باب المستقبل يهمها ان تعرف اسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر ان تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن ان يرشداها اليها ، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى

اليوم ، ويعنيها ان تعلم كيف تنسج من اخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، ان قدر لها ان تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه ان قدر لها حظ المكثرين ، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها الى خادمتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها ، ان كانت ذات خدم ، او تستغني عن معونتهم ، ان عجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ،في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها، قطرات من الرزق تقيم بها أوَدَها ، وتصون بها ماء وجهها ؟

وكتابك ــ يا سيدي ــ هو الجواب عن جميع ما تطلبه ، وتسائل نفسها عنه ، فلا غرو ان أعجبها وأطربها ، ولا عجب ان فضلته على كل كتاب حتى كتاب ابيها .

أشكر لك ، يا انطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها الي والى أمتك ، وانصح لجميع الآباء والأمهات ان يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها الى فتياتهم ، وان يأخذوهنّ بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها ، فما احرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت » .

البعث

« هي قصة خيالية ، الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية » .

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهمّ نزل بي ، والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين اشياعها فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، فلما تقضي الليل الا أقله ولم يبق الا ان تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت من الطارق ؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء واعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه ، ومضجعاً يأوى اليه ، وقد أعد لمن يسدي اليه تلك النعمة ، ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب ، فاعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح

القول وصحيحه ما يعيى على جهد المتكلفين ، وتزويق المزورين [١] ، وقلت في نفسي : ما لهذا الرجل بد من شان وفتحت البـاب فاذا شيخ كنتي [٢] من حملة أعباء الدهر ، قصير القامة، ناحل الجسم ، زري الهيئة، قد نيف على الثمانين من عمره ، فخيل الي ان ظهره المحدودب قوس، وان عصاه التي يعتمد عليها وتر قد شد إلى تلك القوس،وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون [٣] فلما شعر بمكاني رفع رأسه الي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت الى موضع الاسرار من قلبي واحاطت بما بين قمة رأسي واخمص قدمي فرأيت وجهاً اسمر اللون قـد انتثرت في اكنافه حفائر الجدَرى [٤] واسارير تنطوي تارة عـلى عبر القرون ، وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن انوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء الا أنها شعثـاء ، وعينـين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفـاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالاً واعظاماً ، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها ، واحسب ان لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغـابرة لنسبتها [٥] فمشيت اليه

---

(١) زور الشيء :حسنه وقومه ،

(٢) الرجل الكنتي الكبير العمر ، نسبة الى قوله : كنت في شبابي كيت كيت .

(٣) وصف ابو العلاء نفسه في شيخوخته في احـدى رسائله بقـوله « واني لأعجز اذا اضطجعت عن القعود فربما استعنت بانسان فاذا هم باعانتي وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي، لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » وقوله في لزومياته :

يا نفس جسمك سربال له خطـر ... وما يبدل في حـال بسربال

قـد اخلقته الليالى فاتركيه لقى ... فما يزيدك لبس الخلك البالي

(٤) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك . (٥) نسبتها : أي ذكرت نسبتها الى نوع من أنواع تلك الصور .

مشية الهائب الوجل وقلت : على الرحب والسعة يا سيدي ، لقد حللت بمنزل انت صاحبه وولي الأمر فيه « ثم قدمت اليه يدي فمشى معي يتوكا ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة :

ما اوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا الى غرفـة الاضياف فاعاد النظر اليّ وقـال : اذهب لشأنك فانا في حاجة الى الانفراد بنفسي ، فتركته وذهبت الى غرفـة منامي وقـد اخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي وشغلني من أمره مـا كاد ينسيني هموم نفسي فـلم أزل اقلب النظر في حـالة واذهب المذاهب في استبطان سره حتى اخـذ عيني نوم ثقيل لم استيقظ منـه الا في صفرة الأصيل .

سالت الخادم عن الضيف فعلمت أنه اخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنـه لا يزال في مصلاه فهبطت اليه في خلوته أهيب ما اكون له فرأيته جالساً الى قبلته يقلب وجهه في السماء ، ويكرر هـذا الدعاء :

اللهم لا راد لقضائك ، ولا سخط على بلائـك ، أمرت فاطعنا ، وابتليت فرضينا ، فامطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون الا بك ، ولا ملجا الا اليك ، انك أرحم الراحمين ، واعدل الحاكمين [1] .

---

(١) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لايعلم←

ثم أطرق بعد ذلك إطراقا طويلا خلت انه وصل فيه الى مقام التجريد وان الذي اراه بين يدي جسد هامد قد اسرى بروحه الى الملأ الأعلى فجعلت اختلس الخطا اليه حتى صاقبته ، فرفع رأسه الي ذاهلا ، وقال : انت هنا ؟ قلت : نعم ، قال: في اي سنة نحن من تاريخ الهجرة ؟ فعجبت لسؤاله وقلت : في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف ، قال : ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه ؟قلت : القاهرة المعزية : قال : أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت ، لم افهم ماتريد ياسيدي ، قال:لقداستفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم اجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث ان يراني حتى يرعد مني فرقا فيوصد بابه في وجهي او ضنيناً يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، او اعجمياً لا يفهم ما اقول ، ولا افهم ما يقول : قلت : ما في هذه الحالة اعجمي ، قال : انهم خاطبوني بلحن لا اعرفه وان شئت اعدته عليك كما سمعته ،ثم اخذ يسرد علي الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه الي سرداً متواصلا كما تسرد الببغاء كلماتها ، فقلت : انك قد اعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد ابي العلاء المعري ،فانهم يتحدثون عنه انه كان اذا سمع اعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون ان يفهم

← بمكانه :

كم بودرت غادة كعوب   وعمرت أمها العجوز
يجوز أن تبطىء المنايا   والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى (ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة – الآية) ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الارض وهو يقول : سبحان من هذا كلامه . قال : فعلمت صحة دينه ويقينه .

معناه [1] فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه [2] ورأرأ بمقلتيه [3] وزحف الي حتى اصطكت ركبتانا، فعجبت لامره وما رأيت من استحالة حاله . ثم قال لي : من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ، قلت : رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والادب وتعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به ؟قلت: ان الناس في امره مختلفون ، ومن يرفضه اكثر ممن يتشيع له ، قال : ومن ايهم انت ؟ قلت: من يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه ، قال : أكنت تؤثر ان تكون في عصره او ان يكون في عصرك حتى تراه ؟ قلت : ما اعدل بهذه الامنية غيرها ، قال : قد بلغك الله طلبتك ، قلت لم افهم يا سيدي شيئاً مما تقول ، قال : أكاتم انت على سرّي قلت: نعم، قال : أتقسم؟ قلت: ان للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت ، قال : الآن عرفتك ، انا احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، فما قرعت هذه الكلمةمسمعي حتي اسقط في يدي وعلمت اني قد هلكت ، وكان اول ما كان مني ان التفت ناحية لأرى هل اجد السبيل الى الهرب ان عرض لي من هذا الجنون عارض سوء ، وكانه المّ بما في نفسي فقال : لاالومك على ما ظننت فقد قدرت قبل ان القي اليك كلمتي هذه انها بالغة منك مابلغت فهل تؤمن

(١) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلا حتى يلقيه كما سمعه .

(٢) انكفأ لونه : تغير . (٣) رأرأ بمقلتيه : حركهما وأدارهما

بالله ؟ قلت : نعم ، قال : وتؤمن بالبعث، قلت : نعم ، قال : ومايريبك من رجل اماته الله ثم بعثه بعد موته ؟ قلت : ذلك يوم يبعثون ، قال : هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه (فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن ياتينك سعياً) وبعد فوالله يا بني ما كفرت منذ آمنت ، ولا كذبت منذ عرفت ان الصدق منجاة من النار ، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعد ما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك فقد اسلفت الي من اياديك ما لا احتاج بعده الى كذبة اتنفق بها عليك ، او ازدلف بها اليك، واني قاص عليك قصتي فاصغ لها ولك بعد ذلك حكمك ، فسرى عني قليلا ما كان ألم بنفسي من القلق فاقبلت عليه بوجهي فانشا يقول :

لا أزال يابني حتى الساعة اشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفي ، فكادت حسناتي تكافيء في الميزان سيئاتي ولولا تلك الكلمات التي كنت ارددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج[1] فقد دخلت بها في زمرة

(١) لأبي العلاء اقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة تارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله :

قدم الفتى ومضي بغير تثية ... كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل ... لو عاش كابد شدة في دهره

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله :

واذا أردتم للبنين كرامة ... فالحزم أجمع تركهم في الأظهر ←

المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لا بـد من العقاب ففزعت الى الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بهـا لا اريد القضاء ولكن اريد اللطف فيه ، فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الإلهي وقال :

اللهم إنك تعلم ان عبدك هذا عاش في تلك الدار كارها لها متبرماً بها

← وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلامي باء
تثاءب عمرو اذ تثاءب خالد بعـدوى فما أعدتني الثوباء

وقوله :

بلت عن الدنيا ولا بلت لي فيهـا ولا عرس ولا أخت

وقوله :

لقد صرت في الدنيا غبيناً مرزءاً فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن
فان تحكمي بالجور في وفي أبي فلن تحكميه في بناتي وفي إبني

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولد جناية منه عليه كقوله :

ليذمم والداً ولد ويعتب عليه فبئس عمري ما سعى له

وقوله :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ماكان يتصوره من ان الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الانساني ولا خلاص له منه الا من طريق العدم المحض ، وان اسناده الجناية الى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل اراد به الامعان في تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالانسان وانه لو لم يولد لما كان شقياً ، وقد أوضح غرضه هذا توضيحا بيناً في قوله :

الاتفكرت قبل النسل في زمن به حللت فتدري اين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت به الفتاة الى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عند النذور لعل الله يبقيه
وانت ارشد منها حين تحمله الى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له بقراط ما كان من موت يوقيه

متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً من أهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه ان تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل فاسألك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت ، ان تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد فيشهواتها ولذائذها والصبر على آلامها واهوالها من عذاب النار [1] وان تجعل عذاب قلبه فداءعذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه الى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه ، وحسبه من العقاب ان يلقى فيها آخر ما لقي فيها اولاً ، إنك بعبادك لطيف خبير .

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى ان أعود الى الدار الأولى لأقضي فيهامن الايام بعد ما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى اني كنت في العهد الاول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فرد اليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا اول يوم من الأيام التي ساقضيها في

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين ان مالقيه في هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وانعمها مدخر له أجره في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله :

أأخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله:

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وادخل ناراً مثل قيصر اوكسرى

داركم هذه ، فاكتم على أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها ، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك وعلمت ان الله ما قيضك لي الا وهو يريد ان يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت أني احرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الارض ظاهرها وباطنها ، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي الا خوف انقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على ان نلتقي غداً .

اليوم الثاني

ما كنت اجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت اليه في طعام العشاء دجاجات ربلات [1] كنت أعددتهن للضيفان من قبل فلما اخذ بصره المائدة صار ينظر اليها مرة والي أخرى ثم قال : ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه الي ؟ قلت : انهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهم والحدب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها

---

(١) الربل الكثير اللحم .

منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن [١] واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقي عليهن كلما طرقني طارق إبقاء على الفتاة ان ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات ، أمـا اليوم فلم أر من ذلك بـداً فذبحتهن إكراماً لك ، فسال من دموع الفتاة عليهن اكثر مما سال من دمائها .

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهينم [٢] فيه بهذه الكلمات ، وارحمتاه ، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه ، ويأبى الا ان ينظمه في سلـك الجمـادات الصم لأنـه صامت لا ينطق ، وأخرس لا يبين [٣] وبمـا كان زقاء الديك ، وقوقأة الدجاجة ، وصرصرة البازي ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، وثغاء الشاة ، ومواء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب [٤] بـكاء بغير دموع ، وشكرى بغير لسانـ ؛ وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجـد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع ان يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخور عيوناً .

ثم رفع الي وقال : أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبحهن قلت : لا يا مولاي ومتى قلن للنـاس شيئاً فيقلن لي ؟ فنظر الي نظرة شزراء لا انسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال : أما لو ان

---

(١) اكتنز اللحم : اجتمع وصلب .
(٢) الهينمة : الصوت الخفي
(٣) من كلام ابي العلاء في احساس الحيوان بالألم قوله في احدي رسائله « وقد علـم ان الحيوان كله حساس يقع به الألم » وقوله « ولم يزل من ينتسب الى الدين يرغـب في هجران اللحوم لا يتوصل اليها الا بايلام حيوان يفر منه في كل اوان » .
(٤) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة

الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له : مهلا رويداً أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمدد يدك الي فلا شان لك معي ولا ترة [1] لك عندي .

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد ان اموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي افراخاً صغاراً هن الى حياتي احوج منك الى مماتي ، وليس من الرأي ان أكل أمرهن اليك من بعدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

انت لا تملك ان تعطيني الحياة فلا تملك ان تسلبني إياها .

كل ما تستطيع ان تمن به على أنك تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني الا فتات مائدتك ولا تسقيني الا غسالة يديك ، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحساناً الي بل لتهيىء لنفسك ما يسد شهوتك ويطفىء لوعتها وهل تعلم أنك انت الذي سجنتني في اقفاصك ، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمة أنى ذهبت واين حللت من حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب ؟! .

أمن أجل الخشارة [2] القذرة والجريئة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي افراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك الا أنا كنا زينة بيتك ولعبة اطفالك وحماة آلك من بنات الارض [3] وهوامها ورسل الفجر المنير اليك .

(١) الترة : الثأر .

(٢) الخشارة : فضالة المائدة .

(٣) المراد ببنات الأرض : الحشرات التي تخرج من بطنها .

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلا كما وحش وكلا كما مفترس لا فرق بينك وبينه الا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن ، فهو يبقر البطون بأظافره وانت تفري الاوداج بمداك ، لا بل ان جريمتك اكبر من جريمته وعذرك اضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وانت على ذلك من القادرين [1] .

استضعفتني فبرزت الي فهلا برزت لشبل الاسد ، او ديسم الدب ، او فرعل الضب ، او حرش الحية ،او هيثم النسر ، او ناهض العقاب [2] ؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزاً ، وما اظلمك قادراً ، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك !

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو ان الله وهبه أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر ، ولكن الناس لا يعلمون .

هيه يا صاحب الدجاجات ! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الارض من بقلها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها مناَدح لإكرامي والقيام بحقي ، وانت تعلم أنني رجل سلخت في دنيا كم هذه من حياتي الأولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا

---

(١) فضل ابو العلاء الحيوان على الانسان في كثير من كلامه كقوله :

سببت بالكلب فأنكرته ... والكلب خير منك اذ ينبح

وقوله :

أقل منهم شراً ومرزية ... ماركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله :

خير من الظالم الجبار شيمته ... ظلم وحيف ظليم يرتعي الذبحا

(٢) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان

نتاجه ، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعاماً والبلس حلوى [1] لأني كنت اعلم ان طعامي الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه ، وان لحم الحيوان انما خلق للشفاه الغليظة ، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة [2] والاعضاء المتوثبة ، والهامات الضخمة ، وكنت أرى ان أكلة اللحوم إنما يخادعون انفسهم فيها ويجترونها الى طبباعهم اجترارا لا ياكلونها الا اذا عالجوها بالطبخ والصف [3] والتقديد والشي والقلي ، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والاقزاح [4] مزجاً يكاد يخرج بها عن جوهرها الى جوهر النبات ، حتى اذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا الى الله منها وفزعوا الى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم ، كانما يطلبون شفاءهم في الرجوع الى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم انهم كانوا ينكرون على رأيي في ترك ذلك الطعام ويعنون في مسالتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه

(١) البلسن : العدس . والبلس : التين ، ومن كلام أبي العلاء :
يقنعني بلسن يمارس لي فان اتتني حلاوة فبلس

(٢) الثوب المزأبر : الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

(٣) الصف : تشريح اللحم عراضاً .

(٤) التوابل وما يليها : ما يطيب المطبوخ من الاشياء اليابسة .

ويلحون في ذلك إلحاحاً شديداً حتى ظننت انهم قاتلي من دونه [1] كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه انهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم [2] او ان الله تعالى انزل عليهم قرآناً ألا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً الا اذا قدموا عليه ببطون بجر [3] مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين ايديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم ابواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم ان يؤدوه وترك ما أمرهم ان يتركوه فلم يبق بين ايديهم من ابواب العبادة الا باب التورع عن أكل اللحم مخافة ان ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً ، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة ان تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة [4] .

واحسب ان لو كنت فيهم من أكلة السحت او الميتة والدم ولحم الخنزير او أموال الناس بالباطل ، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة او تبرماً بها او تمرداً

(١) كتب ابن أبي عمران الى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتاً مؤلماً، ويعرض عليه ان يحمل بعض الامراء على ان يرسل اليه مايكفيه مؤونة ذلك احراجاً له واعناتاً ، وأبو العلاء يومئذ في اواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل « ولو مثل بحضرته السامية لعلم انه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا ان يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فانما يصلي قاعداً والله المستعان » .

(٢) القرم والجعم : شهوة اللحم . (٣) بجر ، جمع أبجر : وهو الممتلىء .

(٤) من كلام ابي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها :

يعيب أناس ان قوماً تجردوا لحامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا ان كان لم يجز عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

عليها ، ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه ، وكنت فقيراً لا املك في كل عام من الرزق الا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين [١] وما كنت أجد السبيل الى غيرها الا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شاني أنني رجل لو علمت أني ان أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير او قدم وزير امطرت السماء علي ذهبا ، واستحالت الحصباء تحت قدمي دراً ما فعلت ضناً بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثاراً للرضا بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده [٢] .

---

(١) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله « ومما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فاذا اخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن ، وبعض ما لا يعذب في الاحسن » ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامي بالمال أوجب أن يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل

(٢) كان أبو العلاء غاية في قناعته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك في حالة معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الامراء فيه والحاح الكبراء عليه في البروز اليهم والسكون معهم فضلا عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة ارضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله :

من مذهبي أن لا أشد بفضة قدحي ولا اصغى لشرب معوج
لكن أقضي مدتي بتقنع يغني وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أرد أني قائم بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر ان يخرج الى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منه اطلاق جماعة من ـــ

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : ان رسول الله لم يمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي واقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : يا عائشة اخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم واجزل ثوابهم ، وكان يقول: شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة (١) وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة (٢) إذ

← الاسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم. ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله :

تغيبت في منزلي برهة	ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل	وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام	واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هذا النفا	ق فكم نفقت محنة ما كسد

(١) مخ الحنطة : خالصها .

(٢) الدرة : السوط يضرب به ، كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارق يده .

دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله قائلاً : كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب [1] والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله او محرماً ما حلل الله ؟ لا ، فما كل من أبغض حلالاً حرمه ، ولا كل من أحب حراماً حلله ، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال : لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ولو قطعت إرباً ما شربته وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بحل الطلاق ثم قال : أبغض الحلال الى الله الطلاق ، بل لو تبينت لعلمت ان قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها ، والنفوس لا تنفر الا مما حل لها ولا تشتهي الا ما حرم عليها .

فويل لي من هؤلاء الناس ، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون [2]

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه يبين ، فرثيت له مما به وأمرت برفع

(١) الجوذاب : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .
(٢) من كلام ابي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في ايديهم :
حوربت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام ، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فاردت ان أرفه عليه ما ألم به من الهم فقلت له : يا مولاي ان للحيوان اليوم شأناً غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان اليه ، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين ياخذون انفسهم بمناظرة المدارج والسبل والاسواق العامة فاذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل او يسوطها سوطاً عنيفاً[1] رفعوا الى الحاكم أمره ،او رأوا حيواناً هزيلا او مهيضاً[2] حملوه الى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه ان وجدوا الى الرجاء فيه سبيلا والا قتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه .

قال : لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الاقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى في كل يوم مريضاً يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله ، وصحيحاً يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه الى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر اليه[3] .

ما احسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم الا مرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم الا حبالة من الحبائل نصبوها

---

(١) ساط دابته ــ سوطاً : اي ضربها بالسوط . (٢) المهيض : الكسير .

(٣) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن ادراك الغيب :

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت ولا سطيح

لاصطياد العقول واختتال النفوس ، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا الا ان يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى ان يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعاً الى البدرة حراماً .

يا بني آدم ، دعوا النوق في مراحها ، والشاء في دروبها ، والوحش في كناسه ، والضب في جحره ، والذئب في وجاره ، والقطا في أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير في اعشاشها ، ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الاسماك عن مسارحها [١] ، وجنبوها فخاخكم وشباككم ، وقتركم وزباكم [٢] ، ومداكم وشفاركم ، فان لها نفوساً كنفوسكم ، ووجداناً كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا ان الله تعالى ما أغوى بعضكم بعض ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم ، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين احيائكم الا بعد ان ضريتم [٣] بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم الى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والاوداج والأباهر [٤] ، فارحموها ترحموا انفسكم ، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم الى الرحمة محتاجون ، والى الله راغبون [٥] .

---

(١) هذه فروق اماكن تلك الحيوانات .

(٢) القتر : جمع قترة بضم القاف ، وهو الناموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد . والزبى : جمع زبية بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الاسد .

(٣) ضري الوحش باللحم اعتاده وألفه .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق ، والأباهر جمع ابهر وهو عرق يخرج من القلب الى سائر الشرايين اذا انقطع مات صاحبه .

(٥) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن ايذائه ومطاردته وذبحه وا كل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب ؛

←

ثم سكت بعد ذلك سكوت الجهد المتعب ، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه ، فشعرت ان سنة من النوم قد رنقت[1] في عينيه ، فانسللت من بين يديه ، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً .

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته الى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها

→ لقد ساءني مغد الفقير يجهله ... على العير ضربا ساء ما يتقلد

يحمله ما لا يطيق فان ونى ... أحال على ذي قترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله :

لك النصح مني لا اعاديك خاتلا ... بمكر ولكني اغاديك مكرما

اذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري ... اخا الإنس اياما وان كان محرما

يصوغ لك الغادي قلادة هالك ... من الدم تخبي وجدك المتضرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش :

لا تطرد الوحش فما يلبث ... المطرود في الدنيا ولا الطارد

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة :

روح ذبيحك لا تعجله ميتته ... فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الاسماك :

جاروا على حيوان البر ثم غدوا ... على البحار فقالوا الصيد ما فيها

لم يقنع الحي منها ما تقنصه ... حتى اجاز الناس اكل طافيها

وقوله يبكي على الطائر المقتول :

وابك على طائر رماه فتى ... لاه فأرهى بفهره الكتفا

او صادفته حبالة نصبت ... فظل فيها كأنما كتفا

بكر يبغي المعاش مجتهداً ... فقص عقد الشروق او هتفا

كأنه في الحياة ما فرع الغصـــــن فغنى عليه او هتفا

(١) يقال رنق النوم في عينيه اذا خالطها كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر اي تحليقه ورفرفته بجناحيه .

وأنوارها ويبسم للعصافير تنتقل بـين أنجمها[1] وأشجـارها ويصغي الى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل الى قلبه والوسيلة الى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز الى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا الى واد أفيـح يهتز بصنوف الأشجار ، وأفـانين الأزهـــار ويتراءى في ألوان من النبـات ، مشتبهات وغـير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجميم[2] ، وكروم وأعناب ، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران، والقني والخلجان، مطردات ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقـات ، يفضي أولاهـا الى أخراهـا ، ويتصل أقصاهـا بادناها ، ويعطف كبيرها عـلى صغيرها ، وقويها على ضعيفها ؛ فكأنها صلال رقشاء قـد فرت من حر الظهيرة الى هـذا الروض الأريض تبترد بـين روابيه وأكماته ، ومصاعـده منحدراته ، فهي تنقبض وتنبسط وتنساب وتتمعج[3] وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتتواثب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع ؛ وكان حفيف أوراقه ، وخرير مائه ، وتغريد أطياره ، وضجيـج نواعيره ، وعجيـج سائمته أنغام مختلفات يتالف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامـع فيخيل اليه أنه هابط من أبواب السماء او أن سكان الألمب[4] فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم

(١) الأنجم : جمع نجم بفتح النون ، وهو ما نجم من النبات على غير ساق .
(٢) الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الارض والبارض اول ما يبدو من النبات فاذا تحرك قليلاً فهو الجميم .
(٣) تمعجت الحية : تلوت في سيرها وتثنت .
(٤) الالمب : خرافات اليونان ، مجمع آلهتهم ويقولون ان لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون .

يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب بجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع الى نفسي حتى سمعته يقول :

المليك المذكرات عبيد   وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر   قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثرة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ماعا   بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت الي وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون ، او من أفواه الفقهاء ، والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، او من خطرات عقولهم ، وقد أفسدها ، عليهم القائلون والكاتبون [1] والحقيقة

(١) كثيراً ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص اخبارهم التي يضعونها من عند انفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله .

ويقال للكرام قولاً وما في الـ   ـمر الا الشخوص والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة   وافترتها للمكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق   وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من اخبار المعمرين في التاريخ القديم :

وادعوا للمعمرين أموراً   لست أدري ما هن والمشهور
أتراهم فيما تقضي من الايام   عدوا سنيهم بالشهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون ان أول من شاب من الرجال هو سيدنا ابراهيم عليه السلام :

←

موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق اليها ، قلت واين نجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين الظل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة ، فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث ان تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الارض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء والاسماك السابحة في الماء ، والاجواء المملوءة بالهواء والليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلى، فيمتلىء قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده الى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي اليه سواه [1] .

ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قد يحل في اللحم

وقوله :

لعمري لقد فضح الأولين ما كتبوا وما سطروا

(١) كان ابو العلاء من اشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده انها تورث الأحقاد والاضغان فضلا عما تلقيه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين ان المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بأن زخرفه يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شام وفي يمن يستنبطون قياساً ما له أمد

هنـا يرى الإنسان السائمـة تاكل العشب ، والعشب ياكل الـتراب ، والـتراب ياكل السائمة ، فيستحيل الجمـــاد نبـاتاً ، والنبات حيواناً ، والحيوان جماداً . فيعـلم انـ المواليد الثلاثة مادة واحدة تتـلون ذراتها وتشكـل جواهرها ، ويعـلم ان هـذا الإنسان الفاخر بنفسه ، والمـدل بعظمته واقتداره ؛ وربما كان بالأمس صفيحة [1] ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة [2] نعل [3] .

هنا يرى الانسانـ الارض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذورن ، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أنـ الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار الى ان تبلـغ شغافها وأن النـاس مـا اختلفوا الا لأنهم جـاحدون ، ولا اقتتلوا الا لأنهم ملحدون .

هنا يرى الانسان الشمس طالعة من مشرقها ، مصفرة اللون متقاربة

← فـــدرهم ودنيام فقـد شغـلوا   بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله : ملـل غدت فرقاً وكل شريعة   تهـدى لمضمر غـيرها اكفارها

وقوله : علم الفتى النظار ان بصائراً   عميت فـكم يخفي اليقين وكم يعم

لو قال سيد غضاً بعثت بـــلة   من عند ربي قال بعضهمو نعم

وقوله : هـذا الفتى أوقـح من صخرة   يبهت من ناظره حيث كانـ

ويدعى الإخـلاص في دينـه   وهو عن الإلحاد في القول كان

يزعم ان العشر مـا نصفـه   خمس وان الجسم لا في مكان

(١) الصفيحة : الحجز المرئيض .

(٢) الذؤابة من النعل ما أصاب الارض من المرسل منها على القدم .

(٣) يردد ابو العلاء هذا للمعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه فمن ذلك قوله :

مضى الأنام فـلولا عـلم حالهم   لقلت قول زهيرايـة سلكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا   منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

الخطوات مخافة ان تطير اليها رشاشة سوداء من مآثم هـذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث ان تاخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر الى مغربها هـاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق مـا ألم بـه من تلك الأدران والأوحـال ، ويرى الليل مقبـلاً يقطب وجهه ويزوى مـا بين حاجبيه ويربد شيئاً فشيئاً ، حتى يسود غضباً على هـذا المجتمع البشري فيا يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور ، ولا يزال مـاداً يديه بالدعاء الى الله تعـالى أن يعجـل أوبته الى مستقره حتى يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ، ثم أطلت بعيونها على هذا العـالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخـافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار ، التي تتطاير يمنة ويسرة وصعوداً وهبوطاً فلا يقوم لها شيء الا أتت عليه.

هنا يرى الانسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها

وقوله :

ومـا يدريـك والإنسان غمر	وقد يدري خليلك وهو دار
لعـل مقـاصل البنـاء تضحى	طـــلاء للسقيفـــة والجـدار

وقوله :

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد	الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعـل إناء منـه يصنـع مرة	فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمـل من ارض ومـا درى	فواهاً له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة :

رب لحـد صار لحـداً مراراً	ضاحـك من تزاحم الاضـداد
ودفـين على بقـايا دفـين	في طويل الازمان والآباد

واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ، ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي ، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً احسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا اليه عله ييسر لنا ظلة نفيء اليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارة[1] ، فمشينا اليه حتى بلغناه فرأيناه مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها ، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره[2] ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً ، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم ، فحييناه بتحية حيانا بأحسن منها، وأفضينا اليه بطلبتنا، فأشار بيده الى كوخه، وكان منه على بعد كثب ، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج[3] ، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الاشجار ، واعتمد على أسيطينة[4] من اللبن الأسود ، وامتدت أمامه صفة مستطيلة ، واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء ، فدخلناه فلم تر فيه الا رثة[5] من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس ، وخلقان من القمص والأبراد ، وقدر وأثفية ، وجرة مملوءة ماء ، وحشية[6] مفككة تضطرب في جوفها حشوة من

(١) يقال فثأ القدر اذا سكن غليانها ، الصارة : العطش .

(٢) شرست اليد اذا غلظ ظهرها من برد فتشقق . وشثنت القدم اذا خشنت وغلظت ، وزأبر الثوب اذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

(٣) يقال سجج الحائط اذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين .

(٤) أسيطينة : تصغير أسطوانة .

(٥) رثة المتاع بكسر الراء : ساقطة .

(٦) الحشية : الفراش المحشو .

الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا ،واخذنا من تلك الحشية مضجعاً ، وما زلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل [1] في مشيته ، ويحمل فأسه على عاتقه ، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة ، فجلس وجلس ولداه بين يديه ، وأنشأ يلقي الينا معاذيره ، ويتوجع لعجزه عن اكرامنا وإسعافنا بما نحب ، فعذرناه . ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي – وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان : –

الشيخ – من يملك هذه الارض ؟

الفلاح – هي لسيدي ومولاي – أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته – صاحب هذا القصر الذي تراه – وأشار الى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء – .

الشيخ – أراك تدعو له ، وتتمنى له الخير والسعادة ، فلعلك سعيد بجواره ، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه .

الفلاح – حسبي من سيدي ان أرى وجهه مرة في كل يوم او يومين ، ممتطياً فرسه الدهماء ، في ركب من أصحابه وحاشيته ، ماراً بهذه الاجمالات الملتفة ، يتنزه ويتروح ، ويطارد الثعالب والذئاب ، مطاردة الشجاع المستقتل ، ثم يعود الى قصره مسروراً مغتبطاً بصبحه وممساه .

(١) قزل – به قزل : وهو أقبح العرج .

الشيخ ـ إنما اسالك عن أياديه عندك وصنائعه لديك ، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته .

الفلاح ـ وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها ، نعمة اجل قدراً وأسنى قيمة من ان اكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا السيد ، رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطاطىء بين يديه رؤوس العظماء ، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء ؟

الشيخ ـ أيها الرجل : ما عن هذا اسالك ، إنما اسالك هل يسلم عليك سيدك هذا اذا مر ببابك او يخلو بك احياناً ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك ؟

الفلاح ـ الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي باعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده الا بالأمر والنهي او يرفع اليه طرفه الا بالنظر الشزر ، او يلامس بيده جسمه الا للتاديب والتهذيب ، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة ايام او إغفاله أمري ونهيي وزجري وتاديبي ، وقد أعد لي ـ حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته ـ عصياً غلاظاً يتعهدني بها من حين الى حين كلما نسيت أمراً من أوامره او قصرت في رعاية غرض من اغراضه فاغتبط بذلك الاغتباط كله لأني

أعلم أني منه على ذكر [1] وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ ـ واين أم هذين الولدين ؟

الفلاح ـ ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها ، فقد كنا يوماً نمتح [2] على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت على ان لم أكن قد لحقت بها فاكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشيخ ـ ربما كنت قانعاً من إحسان سيدك اليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الارض وثمراتها ؟

الفلاح ـ لا والله يا سيدي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيزبر ، او حفنة تمر ، الا ان تسقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي او أحتطب من اطراف الوادي بضعة أعواد من الحطب اشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه او أخطات فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول ان يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه

(١) الذكر : التذكر .

(٢) متح الماء متحاً : نزعه .

فاشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل ، وقـد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي ان اكون قـد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قـال : مـا نغص عـلي يومي الا منظر ذلـك الرجل الأبله المسكين في صغر سنـه وسقوط همته وذلة جانبه . وما احسب الا ان الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسهـا ووجدانها فاصبح لا يعرف لنفسه حيـاة ذاتية مستقلة عن حيـاة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده (١) فهو لا يفرح الا لفرحه ولا يغتبط الا باغتباطه ، ويرضيه منـه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه عـلى اخلاصه اليـه وتعبده له ، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليـه ، وكذلك يفعـل الظلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر الى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مرأى لبنـي آدم   وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة   لا تظلم الناس ولا تكذب

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً الا بالفضائل النفيسة ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله :

أسر ان كنت محموداً عـلى خلق   ولا أسر بـأني الملـك محمـود

وقوله : وإقصائي عن الرؤساء كوني   وكونهـم لخالقنـا عبيـداً

وقوله : وإن أفضل من تعظيمهم رجلا   صفرا من الحـكم التعظيم للحجر

الاربعون [1]

الآن وصلت الى قمة هرم الحياة ، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر ، ولا أعلم هل استطيع ان أهبط بهدوء وسكون حتى اصل الى السفح بسلام ،او أعثر في طريقي عثرة تهوي بي الى المصرع الاخير هوياً.

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت ميداناً فسيحاً للآمال والاحلام وكنا نطير في اجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل نعتقد ان في العالم هموماً وآلاماً ، وكان كل شيء في نظرنا جميلا حتى الحاجة والفاقة ، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها ، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوباً قشيباً من نسيج الزهر الابيض ، فاصبح فتنة الانظار ، وشرك الالباب !

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله رحمه الله وبرد ثراه .

وكان يخيل الينا ان هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطرداً مندفعاً لا يعترضه معترض ، ولا يلوى به عن طريقه لا والى ما لا نهاية لاطراده وتدفقه .

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم ، ان يكون لنا مأربان من مآرب الحياة ، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر او غرضان من اغراضها ، فنصل الى القريب ، ونبيت دون البعيد .

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب او طلعة رقيب او أرق ليلة او ضجر ساعة ، او نظرة شزر يلقيها بغيض ، او نفثة شر يرمينا بها حقود ، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا ان تطرد تلك الآلام امامها كما يطرد النهر المتدفق الاقذار والاكدار بين يديه وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص .

سلام عليك أيها الشباب الذاهب ، سلام على دوحتك الفينانة الغناء ، التي كنا نمرح في ظلالها ، مرح الظباء العفر في رملتها الوعثاء ننظر الى السماء فيخيل الينا أنها مغدى ومراح لنا ، والى الآفاق البعيدة فيخيل الينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا ، فكان العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا .

أبكيك يا عهد الشباب ، لا لأنني تمتعت فيك براح او غزَل ، ولا لأني ركبت مطيتك الى لهو او لعب ، ولا لأني ذقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى .

أبكيك لأني كنت ارى في سمائك نجم الامل لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره ويطربني لألاؤه وينفذ الى اعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبت ذهب بذهابك فاصبح منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب ، ولا يلمع فيها شعاع .

أجل ، لم اتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلتُ في عهدك مارباً من مآرب المجد او الجاه ، ولكني كنت اؤمل وأرجو . وبذلك الامل كنت اعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم .

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة الى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه الا ان أعدَّ عدّتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها الى قبري .

مضى عهد الشباب وبدأت اختلف الى الاطباء الثلاثة طبيب العيون، وطبيب المعدة ، وطبيب الاسنان ، وتقاربت خطواتي فاصبح فرسخي ميلا ، وباعي ذراعاً ، ونعى الناعون الى كثيراً من اصحابي وأترابي أي أنهم نعوا الى نفسي ورأيت اصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فانكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم ، واحمرار خدودهم ، وابيضاض شعورهم ، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء ، وحسن الختام ، أي ان قوتي في هبوط ، ونشاطي في اضمحلال وسلامتي في خطر وحياتي على وشك الانحدار الى مغربها ، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة

والنشاط والمرح والسرور فخيل الي أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شان لي معهم ، وأنني اعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر في شان نفسي، وشان مستقبلي الى النظر في شان اولادي وشان مستقبلهم ، لأن مستقبلي اصبح ماضياً ، وغداً اصبح أمس لا رجعة له الى الأبد ، وسمعت كلمة « الجدّ » يهتف بها احفادي الصغار ، فلم انكرها ولم أبتئس كانني معترف أنها الكلمة التي يجب ان اسمعها ، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير ابقاءً على مصلحة اولادي الفقراء ، كانهم يقولون لي إنك موشك ان ترحل فاعد لمن وراءك من اهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك ، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها ، فاصبحت سمحاً كريماً ، عفواً غفوراً ، لا ابغض أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أقابل ذنباً بعقوبة ، ولا إساءة بمثلها ، كانني أقول في نفسي : ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً ، ان لم يكن اليوم فغداً ، وأخذت أتحدث عن الماضي اكثر مما أتحدث عن الحاضر ، لا لأن الاول أجمل من الثاني بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة ،وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها ايام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيتها ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلا ومجداً وشرفاً ، لأن الأولى كانت في سماء الاحلام الحلوة اللذيذة ، أما الثانية ففي ارض الحقيقة المرة المؤلمة ، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة ، فكنت ، اجد في نفسي غبطة عظمى حينما اجلس لمطالعة قصة الف ليلة وليلة ، او سيرة سيف بن ذى يزن ، او حروب عنترة ، او

وقائع أبي زيـد او اساطير الجن والشياطين ، وحـين آوي الى مضجعي فارى في منامي رؤي بديعـة يجتمع لي فيهـا جميـع مـا احب واشتهي من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه ، وحين اختلف الى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة امام حلقات ابوابهم فاشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء ، والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها ان اساطير الاولين أكاذيب وأباطيل وان الرؤي والاحلام هوس وجنون ، وان الأولياء والصالحين أحياء كانوا او أمواتاً في شاغل بانفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً ؟ أي أنني شقيت حين علمت ، وكنت سعيداً قبل ان اعلم ، وكان كل ما افكر فيه ان أشيد لي بيتاً جميلاً اعيش فيه عيش السعداء الامنين في مدينة الأحياء ، فاصبحت وكل ما أفكر فيه الآن ان أبنى لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الاموات ، وكنت ادهش لبلاغـة البليـغ ، وذلاقة الخطيب ، وبراعـة الشاعر وقـدرة الكاتب الصائـغ ونبوغ المبتكر ، واطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما اسمع ،فاصبحت لا ادهش لشيء ولا اعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم ، واين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها .

ما انا بآسف على الموت يوم يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكنني أرى امامي عالماً ، مجهولاً لا اعلم مـا يكون حظي منـه واترك ورائي اطفـالاً صغاراً لا اعلم كيف يعيشون من بعـدي ولولا مـا امامي ومن

ورائي ما باليت اسقطت على الموت أم سقط الموت علي ؟!

لكن ما أراده الله ، أما ما امامي فالله يعلم أني ما المت في حياتي بمعصية الا وترددت فيها قبل الإلمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوماً من الايام في آيات الله وكتبه ، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره ، ولا اذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير عظمته ، وما احسب انه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك ، واما من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها ، والقطاة في افحوصها ، والعصفور في عشه ، والفرخ في وكره ، سيتولى هؤلاء الاطفال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه .

وداعاً يا عهد الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة ، وما الحياة الا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر ، فاذا هدأت فقد هدأ كل شيء ، وانقضى كل شيء !

أيا عهد الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

القسم الرابع

العبرات

وهي مجموعة روايات قصيرة .

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ، علهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى ،

مصطفى لطفي المنفلوطي

اليتـــيم

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشر أو العشرين من عمره ، وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كثب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلاً منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفل بشيء من أمره ، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه ، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سنة من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت به مكانه ؛ فما رمت مكاني [1] حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيـــه .

---

(١) رام مكانه : زال عنه وفارقه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو هماً من هموم الحياة أو رزء من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع [1] الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض ، فلم أزل واقفاً مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى ، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثه [2] ذات نفسه وأشركه في همه لولا ، أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعاً حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إلي ،

---

(١) الضارع : الضعيف النحيل .

(٢) استبثه السر : طلب إليه أن يبثه إياه .

وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المصير إليه ، فتقدمت إلى خادمي [1] أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلي هنيهة لا ينطق ولا يطرف [2] فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض [3] من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بضع قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شكاتك أيها الأخ ؟ قال : لا أشكو شيئاً ؛ فقلت : فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال : لا أعلم ؛ قلت : أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة وقال إنما

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به .
(٢) طرف فلان بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر .
(٣) الفضفاض : الواسع .

يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بدأ من دعاء الطبيب رضي أم أبى ، فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو – من حيث يعلم أني أسمع شكواه – إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة ؛ فلم أحفل بتعريضه لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً : إن عايلك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه ، فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال : أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل ، قال : أرجو أن أكون كذلك ، قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهراً أو هماً باطناً ؟ قال : أشكوهما معا ، قلت : فهل لك ان تحدثني بشأنك وتفضي إلي بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبامضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فان من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ، لا يكون كاذبا ولا غادرا .

أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة

من عمري فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برا وإحسانا وأكثرهم عطفا وحنانا فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدا من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلا ، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنا طويلا فلم يدرك أمنيته فعني بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبا شديدا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين الى حين ، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي .

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعاده إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة ، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها .

وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء

مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها ، وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة تؤلف بين أزهارها أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه ، وتلك الخمائل الخضراء التي كنا نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها ، وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطىء الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فاذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبي نداءنا ، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي وداً وإخاء ، أو حباً وغراما ، ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوما إني أحبها لاني كنت أضن بها — وهي ابنة عمي ورفيقة صباي — أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها ، ولا قدرت في نفسي يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي ، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط [1] منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون ، لأني كنت أجلها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها ، أمنزلة

(١) تسقط فلان الخبر : أخذه شيئاً بعد شيء .

الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فاستعين بارادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها .

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشب [1] أن ذهبت به إلى جوار ربه ، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : « لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أماً كما كنت له أبا وا وصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وحالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتداخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ، وفي هذا العالم طريدا .

فاني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت علي الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة ، وقالت : قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبدي ، إلا أنني

---

(١) لم تنشب : لم تلبث .

تماسكت قليلا ريثما قلت لها : سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلي من ذلك . فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده » .

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها[1] وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها .

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى

لو انا وجدنا من فراق لها بدا

كفى حزنا أن رحت لم أستطع لها

وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدا طريدا حائرا ملتاعا قد اصطلحت علي الهموم والأحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ، ولا معيناً .

وكانت معي صبابة[2] من مال قد بقيت في يدي من آثار

---

(١) الكلة : الستر الرقيق .
(٢) الصبابة : البقية من الشيء .

تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتّى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع علي الشمس في مكان حتّى تغرب عني في غيره . حتّى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

فقنعت بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفرداً كمجتمع وغائباً كحاضر وبعيداً كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه . وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري .

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتّى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة أو موشكة ، وكنت مأخوذاً بأن أهيىء لنفسي عيشاً مستقلا ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فأهمتني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلا إلى القوت بوجه ولا حيلة ، فعمدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت

سائرها[1] إلى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدين ؟ قالت : لي إليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : هات ، قالت : مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس ، فقلت : ما بكاؤك ؟ قالت : أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ قلت : لا ، فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه[2] كتاباً مغلقاً فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك ألا تأتي إلي لتودعني الوداع الأخير » .

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت : أين تريد يا سيدي ؟ قلت : إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها . فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم

---

(١) سائر الشيء ، باقيه .
(٢) أضعاف الثوب : أثناؤه .

له مكاناً ، ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين ، ففتحت عيني فإذا الليل قد أظلني وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت : نعم . قلت : قصّي علي كل شيء فأنشأت تقول :

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير و لا بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً ممضاً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل[1] يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً . فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت : في أي ساعة نحن من الليل ؟ قلت : في الهزيع الأخير منه ، قالت : أأنت وحدك هنا ؟ قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً ، قالت : ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت

---

(١) أبل من مرضه : برء منه .

لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتي أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئاً ، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت : ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك يا سيدتي .. فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين علني أراك وأرى من يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً .

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت .. فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .

* * *

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت[1] وأن هذه أفلاذها . فدنوت منه وقلت : ما بك يا سيدي ؟ قال بي أني أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه فاذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي وأني عاجز مستضعف لا اعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذماء[2] وإني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك واسترد وديعتك إليك وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجُوار جوارك » .

ثم أمسك رأسه بيده كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت : نعم ، وأسأل الله لك السلامة ، قال : الآن أموت طيب النفس عن كل شيء .

---

(١) ارفض الشيء : تفرق وترشش .
(٢) الذماء : بقية النفس .

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

* * *

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الحجاب

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ؛ وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد ؛ وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته

على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت : وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تحدث؟ قال : ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت : ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال : إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي (١) القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

حياء منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلياء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هماً وحزناً ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت ، قلت : هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء ممـــا لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ قلت : أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع ، فتداخلني ما لم أملك معه وقلت له : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من

جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال : أتنكر وجود العفة بين الناس ؟ قلت : لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟.

أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لم يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه وخجلاً ان خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟ .

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟ .

وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتمطق[1] بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز .

---

(١) تمطق : صوت بلسانه عند استطابة الطعام .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاء طويلا .

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟.

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ، تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فواعجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !..

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا

بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء[1] من الحجاب موكوء[2] فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض[3] ، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب ؛ فقلتم لها إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك

---

(١) السقاء : وعاء الماء من جلد السخلة .

(٢) أوكى القربة : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) تقبض : يبس .

أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه .

وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت[1] .

وقلتم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك ، والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها .

وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات[2] ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة

(١) أفاد : بمعنى استفاد .
(٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم بها ، وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها !

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زمناً ينمو فيه !

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء .

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانهـــا فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني عنه .

ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من يشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها

مع الرجال ان تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصريـــة الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها !

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

* * *

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من اهلك تقتلني حياءً وخجلاً . ثم انصرفت . وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشياً

لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثـــة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال : لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل المذنب ، ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيي وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك ، ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئاً ، ثم شعرت كأنه يزور [1] في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إلي نظرة حائرة ، وقال : إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت : أما كان يصحبها أحد ؟ قال : لا قلت ، ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ قال : لا ، قلت :

(١) زور الكلام في نفسه : هيأه .

وممّ تخاف عليها ؟ قال : لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ،في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصاً إلي هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له : هل من حاجة يا سيدي ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخل علي من الناس أحد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع ، فقلت :

ما بكاؤك يا سيدي؟ قال ؛ أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت : وماذا تريد منها؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها ، قلت : إنها في بيت أبيها ، قال : وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف ، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي ، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها [1] أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟

نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي ، فلم يذنب إلي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا في وجهي ! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما

---

(١) اهتدى الرجل امرأته : جمعها اليه وضمها .

جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسروراً وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً : ان ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين [1] .

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !...

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ؟ ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً ، وبيتي ماخوراً [2] وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم !.

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفاً على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته

---

(١) يريد : ليتني لم أولد .
(٢) الماخور : بيت الريبة .

بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح : أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورائي بعد مماتي ؛ وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح : أرجعوه إلي ؛ فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً ! ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً

وحزنا .

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

* * *

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

الهـــاوية

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت « فلاناً » منذ ثماني عشرة عاماً فعرفت امرءاً ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه ، فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرض إلي من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة الى مسقط رأسي غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير اليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن

حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيل إلي أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شبح ولا يلمع في أرجائها مصباح ؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده أو أنني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبني أحد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه[1] نوراً مقبلاً ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلي بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار ، ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً ، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، فخفق قلبي خفقة

---

(١) خصاص الباب : خرته .

الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه[1] ، ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحيتني فحييتها ثم قالت لي هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك؟ قلت · لا ، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام. قالت : ليتك لم تفارقه ، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى كما تعلمه غريراً ساذجاً فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للانسان حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت : وأي شر تريدين يا سيدتي؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول :

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فاستحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة[2] وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي ؛ ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر ،

---

(١) المأتى : الوجه الذي يأتي منه الشيء .

(٢) الفينة : الساعة والحين .

فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسيه في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وانه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ، لأني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيراً مقامرا مستهتراً لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذر ، وبزوجه أن يتجهم[1] لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنو منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون[2] حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجوا ويرقصوا ويملأوا الجو

---

(١) تجهم له : استقبله بوجه كريه .

(٢) قصف الرجل : اقام في أكل وشراب ولهو .

صراخاً وهتافاً ثم يتعادوا[1] بعضهم وراء بعض في الأبهاء[2] والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي. ومسمع فلا يقول شيئاً، ولا يستنكر أمراً فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار، ولا خمار، غير إزار الظلام وخماره، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي فأقضي عندهم بقية الليل.

وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها، ثم رفعت رأسها، وعادت إلى حديثها تقول:

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لابد له أن يستدين ففعل، فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه، لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين، أو غنيمة للمقامرين.

هذا ما صنعت يد الدهر به، أما ما صنعت بي وبأولادي، فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي، وأدوات بيتي وأثاثه، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال[3] يعود علي من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكت

---

(١) من العدو: وهو الجري.
(٢) الابهاء: جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.
(٣) رقة الحال كناية عن الفقر.

وهلك أولادي جوعاً .

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم ؟.

• • •

الآن عرفت أن الوجوه مرايا(١) النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس

---

(١) المرايا : جمع مرآة .

في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقياً منكوباً قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، استشرف[1] عاتقاه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب ، فكان أول ماقلت له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك ! وكأنما ألم بما في نفسي وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له :

والله ما أدري ماذا أقول لك ؟ أأعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي ؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء ! .

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهمل العاطلون

---

(١) استشرف الشيء : ارتفع .

الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد منهم ! .

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم[1] بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً فأصبحت وضيعاً ؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء .

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم إليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ، فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا . فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له : مالك لا تمد يدك إلي ؟ فاستعبر باكياً وقال : لأنني لا أحب أن أكون

---

(١) تبرم الامر : سئمه وضجر منه .

كاذباً ولا حانثاً . قلت : وما يمنعك من الوفاء ؟ قال : يمنعني منه أنني رجل شقي ، لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت : قد استطعت أن تكون شقياً ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟ قال : لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله ، قلت : ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين ، قال : إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين .

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

* * *

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته

وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الخان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاها أن ترى ولداها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت تقتاتان فيها ويقيتانها ، فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى

زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلّما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين الى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وبهاء ، ثم تذكر كيف أصبح السيد مسودا ، والمخدوم خادماً ، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام . فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتّى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها ، لا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ، لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتّى أضاف إليها ثقلا جديداً ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتّى ما تسع قطرة واحدة . وما زالت تكابد من آلام الحمل

ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد الا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها ، لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ؛ فأكبّ عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفاً وذعراً فوطىء في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : واشقاءاه واشقاءاه ؟ وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : ابنتي ! زوجتي ، هلموا إلي ؟ أدركوني ! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوارحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء .

العقـــاب

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها وقد جلس،على يمينه

---

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها : صراخ القبور .

رجل يلبس مسوحاً [1] وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤتَ بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظراً وزئيرا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرماً تكاد تسلمه قوائمه ضعفاً ووهناً ، فسأل الأمير : ما جريمته ؟ فقال الكاهن : إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة [2] من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير الغادي والوحش الساغب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقا حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته ؟ فقال : إنه قاتل ، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح الناس : يا للفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ، ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ،

---

(١) المسوح جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
(٢) الغرارة : الجوالق .

فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ؛ وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها ؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم ! ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها ؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلّل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم ! واعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي

ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الايام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟ .

ألم تزل قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته. فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟ .

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كلما يريدون ؟

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم ، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟ .

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة

المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟.

من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟.

من هو القاضي ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟ .

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين وأبراراً طاهرين ؟

عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرماً ، فإذا قتل الأمير القاتل سمّي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصاً . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها .

كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدّث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية

رائحة ، فاخترقتها حتّى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتّى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتّى أصبح شبحاً ماثلاً ، أو خيالاً سارياً . ورأيت الفتـــاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلا حتّى غاب عن نظري كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتّى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ؛ فما زال يتقدم حتّى صار بجانبي فأشعل مصباحاً صغيراً كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتّى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم قلباً ونفساً ؛ فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتّى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني

بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك »
فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو أفضيت إلي بذات نفسك علّني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك ، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقل بحمله من الهم ، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة [1] ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ،

---

(١) الفينة : الساعة والحين .

ولا ما نعللهم به تعليلا ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أر بدآ من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلي بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل ركوتهم[1] فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون[2] جوعاً . ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل ؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفىء لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتّى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتّى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلا ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من

---

(۱) الركوة : وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(۲) يتضاغون من الجوع : يتضورون منه .

قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل[1] أو أفحوص[2] القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة[3] دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء[4] تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت

---

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمي الحبالة للصيد ، وكفته : حبالته .

(٢) أفحوص القطاة : مجثمها . لأنها فحصت عنه التراب لتبيض فيه .

(٣) الغرارة : الجوالق .

(٤) الألقاء : جمع لقى -- كفتى ، والقى الشيء : الملقى المطروح .

على ردائه فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتّى مر به العسس [1] فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ! الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتّى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتّى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتّى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فواأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده !.

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : «الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء ! الوداع حتّى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه» ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في اعماق الظلام حتّى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتّى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتّى انحلت ثم احتملته

(١) العسس : الطائفون بالليل لحراسة للناس أو كشف أهل الريبة .

على يدها وأضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي ؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنسأه[1] إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا

(١) استنسأ غريمه الدين : طلب منه أن ينسئه إياه أي : يؤجله له .

أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء. وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل، وقال له: لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد، فإن أبيت فحياتك فداء عنها، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له «فلتكن حياتي فداء لشرفي» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غله[1] الأعوان واحتملوه إلى السجن، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتيان همة ونجدة، ونادرة الرجال عزة، واباء وأفضل الأخوة رحمة وحناناً.

ثم قالت: هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة لا أقوى على شيء؛ فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها؟ فرأيت تربة القبر مخضله بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت: شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً، ومضت لسبيلها.

---

(١) غله: وضع في عنقه الغل.

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسي : إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها ، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي ؟ قلت : فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأناً ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت : نعم شأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي ؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ،

وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتني كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني (١) راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات . إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبل بقولها وقال لها : ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه

---

(١) أخطبه : قبل خطبته .

تعدو عدواً سريعاً ، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأتني فألقت نفسها علي وقالت : إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها ، فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إلي ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت

أحدّث نفسي وأقول :

ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجـــرام .

وأجرم القاضي لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته .

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ [١]

(١) يسمي قدماء اليونان في أساطيرهم المريخ : إله الحرب .

يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من علياله رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : « ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحداراً ؛ فـــلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . »

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

فهرست